النجوم الزاهرة

في ملوك مصر والقاهرة

تأليف

جمال الدين أبي المحاسن يوسف تغري بردي الأتابكي

٨١٣ - ٨٧٤ هـ

جلد ٦

نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب

مع استدراكات وفهارس تحليلية

بسم الله الرحمن الرحيم

النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره

كاتب:

جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی

نشرت فی الطباعة:

وزاره الثقافه والارشادالقومی

رقمی الناشر:

مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة

الفهرس

الفهرس ----- ۵
النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة المجلد ۶ ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۶] ----- ۱۰
اشارة ----- ۱۰
ذکر ولایة السلطان صلاح الدین علی مصر ----- ۱۱
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۷] ----- ۳۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۸] ----- ۳۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۹] ----- ۳۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۰] ----- ۳۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۱] ----- ۴۰
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۲] ----- ۴۱
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۳] ----- ۴۲
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۴] ----- ۴۳
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۵] ----- ۴۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۶] ----- ۴۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۷] ----- ۴۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۸] ----- ۴۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۹] ----- ۴۸
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۰] ----- ۴۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۱] ----- ۴۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۲] ----- ۵۱
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۳] ----- ۵۲

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۴] ۵۳
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۵] ۵۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۶] ۵۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۷] ۵۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۸] ۵۸
اشارة ۵۸
ذکر ولایة الملک العزیز عثمان علی مصر ۵۹
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۹] ۶۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۰] ۶۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۱] ۶۶
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۲] ۶۷
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۳] ۶۸
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۴] ۶۹
اشارة ۶۹
ذکر ولایة الملک المنصور محمد علی مصر ۷۰
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۵] ۷۲
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۶] ۷۳
اشارة ۷۳
ذکر ولایة الملک العادل علی مصر ۷۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۷] ۸۱
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۸] ۸۳
[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۹] ۸۴
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۰] ۸۵
[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۱] ۸۶

[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۲] ۸۷
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۳] ۸۸
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۴] ۸۹
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۵] ۹۰
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۶] ۹۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۷] ۹۲
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۸] ۹۳
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۰۹] ۹۴
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۰] ۹۵
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۱] ۹۶
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۲] ۹۷
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۳] ۹۸
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۴] ۱۰۰
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۵] ۱۰۱
اشارة ۱۰۱
ذکر سلطنة الملک الکامل علی مصر ۱۰۳
ذکر أخذ دمیاط ۱۰۷
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۶] ۱۱۰
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۷] ۱۱۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۸] ۱۱۳
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۱۹] ۱۱۳
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۰] ۱۱۴
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۱] ۱۱۵
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۲] ۱۱۶

[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۳] ۱۱۸
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۴] ۱۱۹
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۵] ۱۲۰
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۶] ۱۲۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۷] ۱۲۲
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۸] ۱۲۳
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۲۹] ۱۲۴
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۰] ۱۲۵
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۱] ۱۲۶
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۲] ۱۲۸
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۳] ۱۳۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۴] ۱۳۲
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۵] ۱۳۴
اشارة ۱۳۴
ذکر سلطنة الملک العادل الصغیر علی مصر ۱۳۵
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۶] ۱۳۹
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۷] ۱۴۰
اشارة ۱۴۰
ذکر سلطنة الملک الصالح نجم الدین أیّوب علی مصر ۱۴۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۸] ۱۵۰
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۳۹] ۱۵۱
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۰] ۱۵۲
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۱] ۱۵۳
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۲] ۱۵۵

[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۳] ----- ۱۵۶
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۴] ----- ۱۵۷
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۵] ----- ۱۵۸
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۶] ----- ۱۵۹
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۷] ----- ۱۵۹
[اما وقع من الحوادث سنة ۶۴۸] ----- ۱۶۰
ذکر سلطنة الملک المعظّم توران شاه علی مصر ----- ۱۶۱
ذکر ولایة الملکة شجرة الدّر علی مصر ----- ۱۶۴
استدراکات ----- ۱۶۷
اشارة ----- ۱۶۷
منبوبة ----- ۱۶۷
خلیج القاهرة ----- ۱۶۷
قنطرة السدّ ----- ۱۶۷
برکة الحبش ----- ۱۶۸
قوص ----- ۱۶۸
منیة ابن خصیب ----- ۱۶۹
فهرس الولاة الذین تولوا مصر من سنة ۵۶۷ ه الی سنة ۶۴۸ ه ----- ۱۶۹
تعریف مرکز القائمیة باصفهان للتحریات الکمبیوتریة ----- ۱۷۰

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة المجلد ۶

اشارة

سرشناسه : ابن تغری بردی، یوسف بن تغری بردی، ۸۱۳-۸۷۴ق.

عنوان و نام پدیدآور : النجوم الزاهره فی ملوک مصر والقاهره/ تالیف جمال‌الدین ابی‌المحاسن یوسف‌بن تغری بردی الاتابکی.

وضعیت ویراست : [ویراست ؟].

مشخصات نشر : قاهره: وزاره الثقافه والارشادالقومی، الموسسه المصریه العامه، ۱۳۴۲.

سال چاپ: ۱۳۹۲ ه. ق

نوبت چاپ: اول

موضوع: شرح حال

زبان: عربی

تعداد جلد: ۱۶

مشخصات ظاهری : ۱۶ج. (درسه مجلد).

یادداشت : عربی.

یادداشت : جلد سیزدهم تاجلد شانزدهم توسط فهیم محمد شلتوت، جمال‌الدین شیال و ابراهیم علی طرخان تصحیح‌شده توسط الهیئه‌المصریه‌العامه للتالیف و النشر منتشر گردیده است.

یادداشت : ج.۱، ۲، ۳، ۴، ۷ ، ۸ ، ۱۱ و ۱۲ (چاپ ؟: ۱۳).

یادداشت : ج. ۱۵ (چاپ؟: ۱۳۹۱ق. = ۱۹۷۱م. = ۱۳۵۰).

یادداشت : ج.۱۶ (چاپ؟ = ۱۳۹۲ق. = ۱۹۷۲م. = ۱۳۵۱).

یادداشت : بالای عنوان: تراثنا.

یادداشت : کتابنامه.

عنوان دیگر : تراثنا.

موضوع : مصر -- شاهان و فرمانروایان

موضوع : مصر -- تاریخ -- ۱۹ - ۸۹۷ق.-- سالشمار.

شناسه افزوده : شلتوت، فهیم محمد، مصحح

شناسه افزوده : شیال، جمال‌الدین، مصحح

شناسه افزوده : طرخان، ابراهیم علی، مصحح

رده بندی کنگره : DT۹۵/الف۲ن۳ ۱۳۴۲

رده بندی دیویی : ۹۶۲/۰۲

شماره کتابشناسی ملی : م۷۵-۵۵۴۷

[تتمة ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۶]

اشارة

بسم اللّه الرّحمن الرّحيم و صلى اللّه على سيدنا محمد و آله و صحابته و المسلمين الجزء السادس من النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة

ذكر ولاية السلطان صلاح الدين على مصر

هو السلطان الملك الناصر أبو المظفّر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان، و يقال: إنّ مروان من أولاد خلفاء بنى أميّة، و قال ابن القادسى: كان شادى مملوك بهروز الخادم. قال صاحب مرآة الزمان:

«و هذا من غلطات ابن القادسى، ما كان شادى مملوكا قطّ، و لا جرى على أحد من بنى أيّوب رقّ، و إنّما شادى خدم بهروز الخادم، فاستنابه بقلعة تكريت». انتهى.

قلت: كان بداية أمر بنى أيّوب أنّ نجم الدين أيّوب والد صلاح الدين هذا، و أخاه أسد الدين شيركوه- و نجم الدين هو الأكبر- كان أصلهم من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴

دوين: بلدة صغيرة فى العجم، و قيل: هو من الأكراد الرّواديّة، و هو الأصحّ.

فقدم نجم الدين أيّوب و أخوه أسد الدين شيركوه إلى العراق و خدما مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة بغداد، فرأى بهروز من نجم الدين رأيا و عقلا، فولّاه دزدارا بتكريت، و كانت تكريت لبهروز، أعطاها له السلطان مسعود بن غياث الدين محمد ابن ملكشاه- المقدّم ذكره- السّلجوقىّ. و بهروز كان يلقّب مجاهد الدين.

و كان خادما روميّا أبيض، ولّاه السلطان مسعود شحنة العراق. و بهروز (بكسر الباء الموحدة و سكون الهاء و ضم الراء و سكون الواو و بعدها زاى)، و هو لفظ عجمىّ معناه: يوم جيّد. فأقام نجم الدين بتكريت و معه أخوه أسد الدين إلى أن انهزم الأتابك زنكى بن آق سنقر من الخليفة المسترشد فى سنة ستّ و عشرين و خمسمائة، و وصل إلى تكريت و به نجم الدين أيّوب، فأقام له المعابر فعبر زنكى بن آق سنقر [دجلة] من هناك، و بالغ نجم الدين فى إكرامه؛ فرأى له زنكى ذلك. و أقام نجم الدين بعد ذلك بتكريت إلى أن خرج منها بغير إذن بهروز. و سببه أنّ نجم الدين كان يرمى يوما بالنشاب فوقعت نشّابة فى مملوك بهروز فقتلته من غير قصد، فاستحى نجم الدين من بهروز فخرج هو و أخوه إلى الموصل. و قيل غير ذلك: إنّ بهروز أخرجهما لمعنى من المعانى، و قيل فى خروجهما غير ذلك أيضا.

و لمّا خرجا من تكريت قصدا الأتابك زنكى بن آق سنقر- المقدّم ذكره- و هو والد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشّهيد، فأحسن إليهما زنكى و أقطعهما إقطاعات كثيرة، و صارا من جملة أجناده إلى أن فتح زنكى مدينة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵

بعلبكّ، و ولّى نجم الدين أيّوب دزدارا بقلعتها، و الدّزدار (بضمّ الدال المهملة و سكون الزاى و فتح الدال المهملة و بعدها ألف وراء مهملة) و معناها بالعجمى: ماسك القلعة. و دام نجم الدين ببعلبكّ إلى أن قتل زنكى على قلعة جعبر. و توجّه صاحب دمشق [يومئذ مجير الدين] و حصر نجم الدين المذكور فى بعلبكّ و ضايقه، فكتب نجم الدين إلى نور الدين الشهيد بن زنكى و سيف الدين غازى يطلب منهما نجدة، فاشتغلا عنه بملك جديد؛ و اشتدّ الحصار على بعلبكّ، فخاف نجم الدين من فتحها عنوة و تسليم أهلها، فصالح مجير الدّين صاحب دمشق على مال؛ و انتقل هو و أخوه أسد الدين شيركوه إلى دمشق و صارا من كبار أمرائها. و لا زال بها أسد الدين شيركوه حتّى اتّصل بخدمة الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى [صاحب حلب] و صار من أكابر دولته. فرأى منه محمود نجابة و شجاعة فأعطاه حمص و الرّحبة، و جعله مقدّم عساكره. فلمّا صرف نور الدين همّته لأخذ دمشق أمر أسد الدين أن

يكاتب أخاه نجم الدين أيّوب على المساعدة على فتحها، فكتب أسد الدين إلى أخيه، و قال له: هذا يجب عليك؛ فإنّ مجير الدين قد أعطى الفرنج بانياس و ربما سلّم إليهم دمشق بعد ذلك؛ فأجابه نجم الدين، و طلبا من نور الدين إقطاعا و أملاكا فأعطاهما، و حلف لهما و وفّى بيمينه. و أمّا مجير الدين المذكور صاحب دمشق، فكان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶

اسمه ابق بن محمد بن بورى بن الأتابك ظهير الدين طغتكين. و طغتكين مولى تتش ابن ألب أرسلان أخى ملكشاه السّلجوقىّ.

و لمّا ملك نور الدين محمود دمشق وفّى لهما بما وعدهما، و صارا من أكابر أمرائه خصوصا نجم الدين؛ فإنّ جميع الأمراء كانوا إذا دخلوا على نور الدين لا يقعد أحد حتّى يأمره نور الدين بالقعود إلّا نجم الدين هذا، فإنّه كان إذا دخل قعد من غير إذن. و داما عند نور الدين فى أعلى المنازل إلى أن وقع من أمر شاور وزير مصر ما وقع- و قد حكيناه فى ترجمة العاضد العبيدىّ- و دخول أسد الدين شيركوه إلى الديار المصريّة ثلاث مرّات، و معه ابن أخيه صلاح الدين يوسف هذا، حتّى ملك أسد الدين الديار المصريّة فى الثالثة، و قتل شاور؛ و ولى أسد الدين وزارة مصر، و لقّب بالمنصور، و مات بعد شهرين؛ فولّى العاضد الخليفة صلاح الدين هذا الوزارة، و لقّبه الملك الناصر؛ و ذلك فى العشر الأخير من جمادى الآخرة سنة أربع و ستين و خمسمائة. و استولى على الديار المصريّة و مهّد أمورها. و صار يدعى للعاضد، ثمّ من بعده للملك العادل نور الدين محمود، ثمّ من بعدهما لصلاح الدين هذا. و نذكر ولايته إن شاء اللّه بأوسع من هذا من كلام ابن خلّكان، بعد أن نذكر نبذة من أموره.

و استمرّ صلاح الدين بمصر و أرسل يطلب أباه نجم الدين أيّوب من الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، فأرسله إليه معظّما مبجّلا؛ و كان وصوله (أعنى نجم الدين) إلى القاهرة فى شهر رجب سنة خمس و ستين و خمسمائة؛ فلمّا قرب نجم الدين إلى الديار المصريّة خرج ابنه السلطان صلاح الدين بجميع أمراء مصر إلى ملاقاته، و ترجّل صلاح الدين و جميع الأمراء و مشوا فى ركابه؛ ثمّ قال له ابنه صلاح الدين: هذا الأمر لك (يعنى الوزارة) و هى السلطنة الآن، و تدبير ملك مصر، و نحن بين يديك؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷

فقال له نجم الدين: يا بنىّ، ما اختارك اللّه لهذا الأمر إلّا و أنت أهل له، و أبى نجم الدين عن قبول السلطنة، غير أنّه حكّمه ابنه صلاح الدين فى الخزائن، فكان يطلق منها ما يختار من غير مراجعة صلاح الدين. و كانت الفرنج تولّت على دمياط فى ثالث صفر من السنة المذكورة و جدّوا فى قتالها، و أقاموا عليها نحو الشهرين يحاصرونها بالمجانيق و يزحفون عليها ليلا و نهارا، و صلاح الدين يوجّه إليها العساكر مع خاله شهاب الدين و تقىّ الدين، و طلب من العاضد مالا فبعث إليه شيئا كثيرا، حتّى قال صلاح الدين: ما رأيت أكرم من العاضد! جهّز إلىّ فى حصار الفرنج لدمياط ألف ألف دينار سوى الثياب و غيرها.

و لمّا سمع نور الدين بما وقع لدمياط أخذ فى غزو الفرنج بالغارات عليهم.

ثم وقع فيهم الوباء و الفناء فرحلوا عن دمياط بعد أن مات منهم خلق كثير. كلّ ذلك فى حياة العاضد فى أوائل أمر صلاح الدين، ثمّ أخذ السلطان صلاح الدين فى إصلاح أحوال مصر و عمارة البلاد و بينا هو فى ذلك ورد عليه كتاب الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى من دمشق، فأمره فيه بقطع خطبة العاضد و إقامتها لبنى العبّاس خلفاء بغداد، فخاف صلاح الدين من أهل مصر ألّا يجيبوه إلى ذلك، و ربّما وقعت فتنة؛ فعاد الجواب لنور الدين يخبره بذلك، فلم يسمع له نور الدين؛ و أرسل إليه و خشّن له فى القول، و ألزمه بذلك إلزاما كلّيّا إلى أن وقع ذلك؛ و قطعت خطبة العاضد فى أوّل المحرّم سنة سبع و ستين و خمسمائة. و كان العاضد مريضا فأخفى عنه أهله ذلك حتّى مات يوم عاشوراء، فندم صلاح الدين على قطع خطبته، و قال:

ليتنى صبرت حتّى مات. و قد ذكرنا ذلك كلّه مفصّلا فى ترجمة العاضد السابقة لهذه الترجمة. و من هنا نذكر- إن شاء اللّه تعالى- أقوال المؤرّخين فى أحوال السلطان صلاح الدين هذا و غزواته و أموره، كلّ مؤرّخ على حدته. و من يوم مات العاضد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸

عظم أمر صلاح الدين و استولى على خزائن مصر و استبدّ بأمورها من غير منازع.

غير أنّه كان من تحت أوامر الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى المعروف بالشهيد صاحب دمشق على ما سنّبينه فى هذا المحلّ. و كان يدعو له الخطيب بمصر و أعمالها بعد نور الدين المذكور و يدعو لنور الدين بعد الخليفة.

و كان مولد صلاح الدين بتكريت فى سنة اثنتين و ثلاثين و خمسمائة، و نشأ فى حجر أبيه نجم الدين أيّوب فى الدولة النّوريّة، و ترقّى فيها؛ و كان ولّاه نور الدين قبل خروجه مع عمّه أسد الدين شيركوه الثالثة إلى ديار مصر، شحنجية دمشق، فخرج عنها غضبا على ما سنذكره إن شاء اللّه.

قال العلّامة أبو المظفّر شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان:

«كان السلطان صلاح الدين شجاعا شهما مجاهدا فى سبيل اللّه، و كان مغرما بالإنفاق فى سبيل اللّه، و حسب ما أطلقه و وهبه مدّة مقامه على عكّا مرابطا للفرنج، من شهر رجب سنة خمس و ثمانين، إلى يوم انفصاله عنها فى شعبان سنة ثمان و ثمانين، فكان اثنى عشر ألف رأس من الخيل العراب و الأكاديش الجياد للحاضرين معه للجهاد، غير ما أطلقه من الأموال. قال العماد الكاتب: لم يكن له فرس يركب إلّا و هو موهوب، و لا جاءه قود إلّا و هو مطلوب؛ و ما كان يلبس إلّا ما يحلّ لبسه، كالكتّان و القطن و الصوف؛ و كانت مجالسه منزّهة عن الهزء و الهزل؛ و محافله حافلة بأهل العلم و الفضل؛ و يؤثر سماع الحديث و كان من جالسه لا يعلم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹

أنه جالس سلطانا لتواضعه. قال: و رأى معى يوما دواة محلّاة بفضّة فأنكر علىّ و قال: ما هذا! فلم أكتب بها عنده بعدها. و كان محافظا على الصلوات فى أوقاتها لا يصلّى إلّا فى جماعة، و كان لا يلتفت إلى قول منجّم، و إذا عزم على أمر توكّل على اللّه. انتهى كلام العماد باختصار.

و ذكره القاضى ابن شدّاد فى السّيرة فقال: كان حسن العقيدة، كثير الذكر للّه تعالى؛ و إذا جاء وقت صلاة و هو راكب نزل فصلّى، و ما قطعها إلّا فى مرضه الذى مات فيه ثلاثة أيّام اختلط ذهنه فيها. و كان قد قرأ عقيدة القطب النّيسابورىّ.

و علّمها أولاده الصغار لترسخ فى أذهانهم، و كان يأخذها عليهم. و أمّا الزكاة فإنّه مات و لم تجب عليه قطّ. و أمّا صدقة النوافل فاستنفدت أمواله كلّها فيها. و كان يحبّ سماع القرآن؛ و اجتاز يوما على صبىّ صغير بين يدى أبيه و هو يقرأ القرآن فاستحسن قراءته، فوقف عليه و على أبيه مزرعة. و كان شديد الحياء خاشع الطّرف، رقيق القلب، سريع الدمعة، شديد الرغبة فى سماع الحديث. و إذا بلغه عن شيخ رواية عالية و كان ممّن يحضر عنده، استحضره و سمع عليه و أسمع أولاده و مماليكه، و يأمرهم بالقعود عند سماع الحديث إجلالا له، و إن لم يكن ممن يحضر عنده، و لا يطرق أبواب الملوك سعى إليه. و كان مبغضا لكتب الفلاسفة و أرباب المنطق و من يعاند الشريعة. و لمّا بلغه عن السّهروردىّ ما بلغه أمر ولده الملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰

الظاهر بقتله. و كان محبّا للعدل يجلس فى كلّ يوم اثنين و خميس [فى] مجلس عام يحضره القضاة و الفقهاء، و يصل إليه الكبير و الصغير و الشيخ و العجوز، و ما استغاث إليه أحد إلّا أجابه و كشف ظلامته؛ و استغاث اليه ابن زهير الدّمشقىّ على تقىّ الدين عمر [ابن أخيه] و قال: ما يحضر معى مجلس الشرع، فأمر تقىّ الدين بالحضور معه.

و ادّعى رجل على السلطان صلاح الدين المذكور بأنّ سنقر الخلاطىّ مملوكه و مات على ملكه. قال ابن شدّاد: فأخبرته فأحضر الرجل، و قد خرج عن طرّاحته و ساواه فى الجلوس، فادّعى الرجل؛ فرفع السلطان رأسه إلى جماعة الأمراء و الشيوخ الأخيار، و هم وقوف على رأسه، فقال: أ تعرفون سنقر الخلاطىّ؟ قالوا: نشهد أنّه مملوكك، و أنّه مات على ملكك. و لم يكن للرجل المدّعىّ بيّنة، فأسقط فى يده.

فقلت: يا مولانا، رجل غريب، و قد جاء من خلاط فى طمع، و نفدت نفقته، و ما يحسن أن يرجع خائبا؛ فقال: يا قاضى، هذا إنّما

يكون على غير هذا الوجه، و وهب له نفقة و خلعة و بغلة و أحسن إليه.

قال: و فتح آمد، و وهبها لابن قرا أرسلان. و اجتمع عنده و فود بالقدس و لم يكن عنده مال، فباع ضيعة و فرّق ثمنها فيهم. قال ابن شدّاد: و سألت باليان بن بارزان يوم انعقاد الصلح عن عدّة الفرنج الذين كانوا على عكّا، و هو جالس بين يدى السلطان، فقال للتّركمان: قل له كانوا من خمسمائة ألف إلى ستّمائة ألف، قتل منهم أكثر من مائة ألف و غرق معظمهم. قال: و كان يوم المضاف يدور على الأطلاب و يقول: و هل أنا إلا واحد منكم! و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱

فى الشتاء يعطى العساكر دستورا و هو نازل على برج عكّا، و يقيم طول الشتاء فى نفر يسير. و كان على الرّملة فجاءه كتاب بوفاة تقىّ الدين [ابن أخيه]، فقال و قد خنقته العبرة: مات تقىّ الدين! اكتموا خبره مخافة العدوّ. قال: و لقد واجهه الجناح على يافا بذلك الكلام القبيح، فما قال له كلمة، و استدعاه فأيقن بالهلاك؛ و ارتقب الناس أن يضرب رقبته فأطعمه فاكهة قدمت من دمشق و سقاه ماء و ثلجا. قال: و كان للمسلمين لصوص يدخلون خيام الفرنج بالليل و يسرقونهم، فسرقوا ليلة صبيّا رضيعا فباتت أمّه تبكى طول الليل، فقال لها الفرنج: إنّ سلطانهم رحيم القلب فاذهبى إليه، فجاءته و هو على تلّ الخرّوبة راكب، فعفرت وجهها و بكت، فسأل عنها فأخبر بقصّتها، فرقّ لها و دمعت عيناه، و تقدّم إلى مقدّم اللصوص بإحضار الطفل، و لم يزل واقفا حتّى أحضروه؛ فلمّا رأته بكت و شهقت و أخذته و أرضعته ساعة و ضمّته إليها، و أشارت إلى ناحية الفرنج؛ فأمر أن تحمل على فرس و تلحق بالفرنج ففعلوا. قال ابن شدّاد: و كان حسن العشرة طيّب الخلق حافظا لأنساب العرب، عارفا بخيولهم، طاهر اللسان و القلم، فما شتم أحدا قطّ و لا كتب بيده ما فيه أذى مسلم. و ما حضر بين يديه يتيم إلّا و ترحّم على من خلّفه، و جبر قلبه و أعطاه ما يكفيه؛ فإن كان له كافل [سلّمه إليه] و إلّا كفله. و سرق يوما من خزائنه ألفا دينار و جعل فى الكيس فلوس فما قال شيئا. انتهى كلام ابن شدّاد باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲

قال أبو المظفّر: و حكى لى المبارز سنقر الحلبىّ- رحمه اللّه تعالى- قال: كان الحجّاب يزدحمون على طرّاحته فجاء سنقر الخلاطىّ و معه قصص فقدّم إليه قصّة، و كان السلطان مدّ يده اليمنى على الأرض ليستريح، فداسها سنقر الخلاطىّ و لم يعلم؛ و قال له: علّم عليها، فلم يجبه، فكرّر عليه القول؛ فقال له: يا طواشى، أعلّم بيدى أم برجلى! فنظر سنقر فرأى يد السلطان تحت رجله فخجل، و تعجّب الحاضرون من هذا الحلم؛ ثم قال السلطان: هات القصّة فعلّم عليها».

و قال القاضى شمس الدين أحمد بن محمد بن خلّكان- رحمه اللّه- فى تاريخه:

«و صلاح الدين كان واسطة العقد، و شهرته أكبر من أن يحتاج إلى التنبيه عليه.

اتّفق أهل التاريخ على أنّ أباه و أهله من دوين (بضم الدال المهملة و كسر الواو و سكون الياء المثناة من تحتها و بعدها نون)، و هى بلدة فى آخر عمل أذربيجان من جهة أرّان و بلاد الكرج، و أنّهم أكراد رواديّة (بفتح الراء و الواو و بعد الألف دال مهملة [مكسورة] ثم ياء مثّناة من تحتها مشدّدة ثم هاء). و الرّواديّة: بطن من الهذانيّة (بفتح الهاء و الذال المعجمة و بعد الألف نون مكسورة ثم ياء مثّناة مشدّدة من تحتها و بعدها هاء) و هى قبيلة كبيرة من الأكراد. و قال لى رجل عارف بما يقول، و هو من أهل دوين: إنّ على باب دوين قرية يقال لها:

أجدانقان (بفتح الهمزة و سكون الجيم و فتح الدال المهملة و بعد الألف نون مفتوحة ثم قاف و بعد الألف الثانية نون أخرى) و جميع أهلها أكراد رواديّة؛ و مولد أيّوب والد صلاح الدين بها، و شادى أخذ ولديه، [منها]: أسد الدين شيركوه،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳

و نجم الدين أيّوب، و خرج بهما إلى بغداد؛ و من هناك إلى تكريت. و مات شادى بها، و على قبره قبة داخل البلد. و لقد تتبّعت نسبهم كثيرا فلم أجد أحدا [ذكر] بعد شادى أبا آخر، حتّى إنى وقفت على كتب كثيرة بأوقاف و أملاك باسم شيركوه و أيّوب فلم

أر فيها سوى شيركوه بن شادى [و أيّوب] بن شادى لا- غير. و قال لى بعض أعوانهم: هو شادى بن مروان، و قد ذكرته فى ترجمة أيوب و شيركوه.

قال: و رأيت مدرجا رتّبه الحسن بن غريب بن عمران الحرسى يتضمّن أن أيّوب ابن شادى بن مروان بن [أبى] على بن عنترة بن الحسن بن علىّ بن أحمد ابن علىّ بن عبد العزيز بن هدبة بن الحصين بن الحارث بن سنان بن عمرو بن مرة بن عوف بن أسامة بن بيهس بن الحارث صاحب الحمالة ابن عوف بن أبى حارثة بن مرّة بن نشبة بن غيظ بن مرّة بن عوف بن سعد بن ذبيان بن بغيض ابن ريث بن غطفان [بن سعد] بن قيس بن عيلان بن الياس بن مضر بن نزار ابن معدّ بن عدنان، ثم رفع هذا النسب إلى أن انتهى إلى آدم عليه السلام. ثم ذكر بعد ذلك أن علىّ بن أحمد بن أبى علىّ فقال: هو ممدوح المتنبّى، و يعرف بالخراسانىّ.

و فيه يقول من جملة قصيدة:

شرق الجوّ بالغبار إذا سا ر علىّ بن أحمد القمقام

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴

و أمّا الحارث بن عوف بن أبى حارثة صاحب الحمالة فهو الذى حمل الدماء بين عبس و ذبيان، و شاركه فى الحمالة خارجة بن سنان أخو هرم بن سنان.

و فيهما قال زهير بن أبى سلمى المزنىّ قصائد كثيرة، منها قوله:

و هل ينبت الخطّىّ إلّا و شيجه و تغرس إلّا فى منابتها النخل

هذا آخر ما ذكره فى المدرّج و كان قد قدّمه إلى الملك المعظّم شرف الدين عيسى بن الملك العادل صاحب دمشق، و سمعه عليه هو و ولده الملك الناصر صلاح الدين أبو المفاخر داود بن الملك المعظّم، و كتب لهما بسماعهما عليه فى آخر رجب سنة تسع عشرة و ستمائة. و اللّه أعلم. انتهى ما ذكرته من المدرّج. ثم قال:

«و أقول ذكر المؤرّخون أنّ أسد الدين شيركوه لمّا مات استقرّت الأمور بعده لصلاح الدين يوسف بن أيّوب و تمهّدت القواعد، و مشى الحال على أحسن الأوضاع، و بذل الأموال و ملك قلوب الرجال، و شكر نعمة اللّه تعالى عليه، فتاب عن الخمر و أعرض عن أسباب اللهو، و تقمّص بقميص الجدّ و الاجتهاد، و لا زال على قدم الخير و ما يقرّبه إلى اللّه تعالى إلى أن مات». قال: «و قال شيخنا ابن شدّاد- رحمه اللّه-: [سمعته] يقول قال صلاح الدين- رحمه اللّه-: لمّا يسّر اللّه تعالى بملك الديار المصرية علمت أنّ اللّه أراد فتح الساحل لأنه أوقع ذلك فى نفسى. قال:

و من حين استقام له الأمر ما زال صلاح الدين يشنّ الغارات على الفرنج إلى أن ملك الكرك و الشّوبك و غيرهما من البلاد، و غشى الناس من سحائب الإفضال و الإنعام [ما لم يؤرّخ غير تلك الأيام. و] هذا كلّه و هو وزير متابع للقوم، و لكنّه يقول

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵

بمذهب أهل السّنة؛ [مارس فى البلاد أهل الفقه و العلم و التصوّف و الدين، و الناس يهرعون إليه من كلّ صوب و يفدون عليه من كل جانب و هو لا يخيّب قاصدا، و لا يعدم وافدا] إلى سنة خمس و ستين و خمسمائة. فلمّا عرف نور الدين استقرار أمر صلاح الدين بمصر أخذ حمص من نوّاب أسد الدين شيركوه، و ذلك فى رجب سنة أربع و ستين. و لمّا علم الفرنج ما جرى من المسلمين و عساكرهم، و ما تمّ للسلطان من استقامة الأمر له بالبلاد المصرية علموا أنه يملك بلادهم، و يخرّب ديارهم، و يقطع آثارهم؛ فاجتمع الفرنج و الروم جميعا و قصدوا الديار المصريّة، و نزلوا دمياط و معهم آلات الحصار و ما يحتاج إليه».

قلت: و هذه الواقعة التى ذكرناها فى أوّل هذه الترجمة. غير أنّنا نذكرها أيضا من قول ابن خلّكان لزيادات تأتى فيها.

قال: «و لمّا سمع فرنج الشام ذلك اشتدّ أمرهم، فسرقوا حصن عكّا من المسلمين و أسروا صاحبها، و كان مملوكا لنور الدين محمود، يقال له: «خطلخ العلم دار».

و ذلك فى شهر ربيع الآخر سنة خمس و ستّين. و لمّا رأى نور الدين ظهور الفرنج و نزولهم على دمياط قصد شغل قلوبهم، فنزل على الكرك فحاصرها فى شعبان من السنة المذكورة، فقصده فرنج الساحل فرحل عنها، و قصد لقاءهم فلم يقووا له. ثم بلغه وفاة مجد الدين بن الدّاية، و كانت وفاته بحلب فى [شهر] رمضان سنة خمس و ستين، فاشتغل قلبه، فإنّه كان صاحب أمره. و عاد يطلب الشام فبلغه أمر الزلازل بحلب التى أخربت البلاد، و كانت فى ثانى عشر شوّال فسار يطلب حلب، فبلغه موت أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶

قطب الدين مودود بالموصل، و بلغه خبر موته و هو بتلّ باشر، فسار من ليلته طالبا لبلاد الموصل. و دام صلاح الدين فى قتال الفرنج بدمياط إلى ان رحلوا عنها خائبين».

قال ابن خلّكان: «و الذى ذكره شيخنا عزّ الدين بن الأثير: [أمّا] كيفيّة ولاية صلاح الدين فإنّ جماعة من الأمراء النّوريّة الذين كانوا بمصر طلبوا التقدّم على العساكر و [ولاية] الوزارة (يعنى بعد موت أسد الدين شيركوه): منهم الأمير عين الدولة الياروقى؛ و قطب الدين خسرو بن تليل، و هو ابن أخى أبى الهيجاء الهدبانىّ الذى كان صاحب إربل. قلت: [و هو] صاحب المدرسة القطبيّة بالقاهرة؛ و منهم سيف الدين علىّ بن أحمد الهكّارىّ، و جدّه كان صاحب القلاع الهكاريّة. قلت: هو المعروف بالمشطوب- و لوالده أحمد ترجمة فى تاريخنا «المنهل الصافى و المستوفى بعد الوافى» - و منهم شهاب الدين محمود الحارمىّ، و هو خال صلاح الدين؛ و كلّ واحد من هؤلاء قد خطبها لنفسه؛ فأرسل العاضد صاحب مصر إلى صلاح الدين يأمره بالحضور إلى قصره ليخلع عليه خلعة الوزارة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷

و يولّيه الأمر بعد عمّه. و كان الذى حمل العاضد على تولية صلاح الدين ضعف صلاح الدين، فإنّه ظنّ أنّه إذا ولّى صلاح الدين، و ليس له عسكر و لا رجال، كان فى ولايته مستضعفا، يحكم عليه و لا يقدر على المخالفة، و أنّه يضع على العسكر الشامىّ من يستميلهم، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين، و تعود البلاد إليه؛ و عنده من العساكر الكتاميّة من يحميها من الفرنج و نور الدين. و القصّة مشهورة «أردت عمرا و أراد اللّه خارجة». فامتنع صلاح الدين و ضعفت نفسه عن هذا المقام، فألزمه العاضد و أخذ كارها؛ إنّ اللّه ليعجب من قوم يقادون إلى الجنّة بالسلاسل.

فلمّا حضر فى القصر خلع عليه خلعة الوزارة: الجبّة و العمامة و غيرهما، و لقّب بالملك الناصر، و عاد إلى دار عمّه أسد الدين شيركوه و أقام بها، و لم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم و لا خدموه. و كان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكّارىّ معه، فسعى مع سيف الدين علىّ بن أحمد حتّى أماله إليه، و قال له:

إنّ هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة و الحارمىّ و ابن تليل، فمال إلى صلاح الدين. ثم قصد شهاب الدين الحارمىّ، و قال له: إنّ هذا صلاح الدين هو ابن أختك و ملكه لك، و قد استقام له الأمر فلا تكن أوّل من يسعى فى إخراجه عنه [و لا يصل إليك]، و لم يزل به حتى أحضره أيضا عنده و حلّفه له.

ثم عدل إلى قطب الدين و قال له: إنّ صلاح الدين قد أطاعه الناس و لم يبق غيرك و غير الياروقىّ، و على كلّ حال فيجمع بينك و بين صلاح الدين أنّ أصله من الأكراد، و وعده و زاد فى إقطاعه فأطاع صلاح الدين. ثم عدل إلى عين الدولة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸

الياروقىّ، و كان أكبر الجماعة و أكثرهم جمعا، فاجتمع به فلم ينفع فيه رقاه و لا نفذ فيه سحره، و قال: أنا لا أخدم يوسف أبدا! و عاد إلى نور الدين محمود و معه غيره.

فأنكر عليهم نور الدين فراقه، و قد فات الأمر، ليقضى اللّه أمرا كان مفعولا.

و ثبتت قدم صلاح الدين و رسخ ملكه، و هو نائب عن الملك العادل نور الدين، و الخطبة لنور الدين فى البلاد كلّها، و لا يتصرّفون إلّا عن أمره. و كان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الإسفهسالار، و يكتب علامته فى الكتب تعظيما أن يكتب اسمه، و كان لا

يفرده بمكاتبة، بل يكتب الأمير الإسفهسالار صلاح الدين، و كافّة الأمراء بالديار المصريّة يفعلون كذا و كذا. و استمال صلاح الدين قلوب الناس و بذل الأموال ممّا كان أسد الدين قد جمعه، فمال الناس إليه و أحبّوه، و قويت نفسه على القيام بهذا الأمر و الثبات فيه؛ و ضعف أمر العاضد، و كان العاضد كالباحث عن حتفه بظلفه».

قال ابن الأثير فى تاريخه الكبير: قد اعتبرت التواريخ فرأيت كثيرا من التواريخ الإسلاميّة، و رأيت كثيرا ممّن يبتدئ الملك تنتقل الدولة عن صلبه إلى بعض أهله و أقاربه: منهم فى أوّل الإسلام معاوية بن أبى سفيان، أوّل من ملك من أهل بيته، تنقّل الملك عن أعقابه إلى بنى مروان من بنى عمّه. ثم من بعده السفّاح أوّل من ملك من ملوك بنى العبّاس، انتقل الملك عن أعقابه إلى أخيه أبى جعفر المنصور. ثم السامانيّة أوّل من ملك منهم نصر بن أحمد فانتقل الملك عنه إلى أخيه إسماعيل بن أحمد و أعقابه. ثم يعقوب الصّفّار أوّل من ملك من أهل بيته فانتقل الملك عنه إلى أخيه عمرو و أعقابه. ثم عماد الدولة بن بويه أوّل من ملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹

من أهل بيته ثم انتقل الملك عنه إلى أخويه: ركن الدولة و معزّ الدولة. ثم السّلجوقيّة أوّل من ملك منهم طغرلبك. ثم انتقل الملك إلى أولاد أخيه داود. ثم هذا شيركوه كما ذكرنا انتقل الملك عنه إلى ولد أخيه نجم الدين أيّوب. و لو لا خوف الإطالة لذكرنا أكثر من هذا. و الذى أظنّه السبب فى ذلك أن الذى يكوّن أوّل دولة يكثر القتل، فيأخذ الملك و قلوب من كان فيه متعلّقة به؛ فلهذا يحرم اللّه تعالى أعقابه و يفعل ذلك لأجلهم عقوبة [له]. انتهى.

قلت: و ما ذكره ابن الأثير من انتقال الملك من عقب من يلى الملك أوّلا إلى أقاربه، هو بعكس ما وقع لخلفاء مصر بنى عبيد، فإنّه لم يل الخلافة منهم أحد بعد أخيه من أوّلهم المعزّ إلى آخرهم العاضد. قلت: و نادرة أخرى وقعت لخليفة زماننا هذا، فإنّه خامس أخ ولى الخلافة بعد إخوته، و هو أمير المؤمنين المستنجد باللّه يوسف، و هم خمسة إخوة من أولاد المتوكّل، كلّ منهم ولى الخلافة: و أوّلهم المستعين باللّه العباسىّ، الذى تسلطن بعد خلع الملك الناصر فرج بن برقوق، فى سنة خمس عشرة [و ثمانمائة]؛ ثم من بعده المعتضد داود؛ ثمّ من بعده المستكفى سليمان؛ ثم من بعده القائم حمزة؛ ثم يوسف هذا خليفة زماننا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰

و أكثر من ولى من بنى أميّة أربعة من أولاد عبد الملك بن مروان: و هم الوليد و سليمان و يزيد و هشام؛ قيل: إنّ عبد الملك رأى فى نومه أنّه بال فى محراب النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم أربع بولات، فأوّله المعبّرون بأنّه يلى الخلافة من ولده لصلبه أربعة، فكان كذلك. و أمّا ثلاثة الإخوة: فالأمين محمد و المأمون عبد اللّه و المعتصم محمد أولاد الرشيد هارون. ثم وقع ذلك أيضا لبنى العبّاس فى أولاد المتوكّل جعفر، ولى من أولاده ثلاثة: المنتصر و المعتزّ و المعتمد. ثمّ وقع ذلك أيضا للمعتضد ولى من أولاده ثلاثة: و هم المكتفى علىّ و المقتدر جعفر و القاهر محمد. ثم وقع ذلك للمقتدر جعفر ولى من أولاده ثلاثة: الراضى و المتّقى و المطيع. و نادرة أخرى، قيل: إنّ المستنجد بن المقتفى رأى فى حياة والده فى منامه كأنّ ملكا نزل من السماء فكتب فى كفه أربع خاءات معجمات، فعبّروه أنّه يلى الخلافة سنة خمس و خمسين و خمسمائة فكان كذلك. و قد خرجنا عن المقصود، و نعود إلى ذكر صلاح الدين.

ثم ذكر ابن الأثير شيئا عن أحوال صلاح الدين إلى أن قال: و توفّى العاضد و جلس صلاح الدين للعزاء، و استولى على قصره و جميع ما فيه؛ فكان قد رتّب فيه قبل وفاة العاضد بهاء الدين قراقوش، و هو خصىّ يحفظه، فحفظ ما فيه حتّى تسلّمه صلاح الدين، و نقل صلاح الدين أهله إلى مكان منفرد، و وكّل بهم من يحفظهم، و جعل أولاده و عمومته و أبناءه فى إيوان بالقصر، و أخرج من كان فيه من العبيد و الإماء، فأعتق البعض و وهب البعض و أخلى القصر من سكّانه و أهله. فسبحان؟؟؟

من لا يزول ملكه! قال: و لمّا استولى صلاح الدين على القصر و أمواله و ذخائره اختار منه ما أراد، و وهب أهله و أمراءه، و باع منه كثيرا، و كان فيه من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱

الجواهر النفيسة ما لم يكن عند ملك من الملوك. قال ابن الأثير: و لمّا وصل الخبر إلى الإمام المستضىء بأمر اللّه أبى محمد الحسن بن الإمام المستنجد، و هو والد الإمام الناصر لدين اللّه، بما تجدّد من أمر مصر، و عود الخطبة و السكّة بها باسمه بعد انقطاعها بمصر هذه المدّة الطويلة عمل أبو الفتح محمد سبط [ابن] التعاويذىّ قصيدة طنّانة مدح بها المستضىء، و ذكر هذا الفتوح المتجدّد له، و فتوح بلاد ايمن، و هلاك الخارجىّ بها الذى سمّى نفسه المهدىّ. نذكر فى آخر ترجمته أمر القصيدة التى نظمها ابن التّعاويذىّ من كلام ابن خلّكان و غيرها إن شاء اللّه تعالى. و كان صلاح الدين قد أرسل له من ذخائر مصر و أسلاب المصريّين شيئا كثيرا.

ثم ذكر ابن الأثير فصلا فى سنة سبع و ستين و خمسمائة يتضمّن حصول الوحشة بين نور الدين الشهيد و بين صلاح الدين باطنا؛ فقال: «فى هذه السنة جرت أمور أوجبت تأثّر نور الدين من صلاح الدين، و لم يظهر ذلك. و كان سببه أنّ صلاح الدين سار [عن مصر] فى صفر منها إلى بلاد الفرنج، و نازل حصن الشّوبك، و بينه و بين الكرك يوم، و حصره و ضيّق على من به من الفرنج، و أدام القتال؛ فطلبوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲

الأمان و استمهلوه عشرة أيّام، فأجابهم إلى ذلك. فلمّا سمع نور الدين ما فعله صلاح الدين سار من دمشق قاصدا بلاد الفرنج ليدخل إليها من جهة أخرى، فقيل لصلاح الدين: إن دخل نور الدين إلى بلاد الفرنج و هم على هذه الحال- أنت من جانب و نور الدين من جانب- ملكها، و متى زال ملك الفرنج عن الطريق لم يبق لك بديار مصر مقام مع نور الدين؛ و متى جاء نور الدين إليك و أنت هاهنا فلا بدّ لك من الاجتماع به؛ و حينئذ يكون هو المتحكّم فيك، إن شاء تركك و إن شاء عزلك، و لا تقدر على الامتناع عليه؛ و حينئذ المصلحة الرجوع إلى مصر.

فرحل عن الشّوبك عائدا إلى مصر [و لم يأخذه من الفرنج]. و كتب إلى نور الدين يعتذر باختلال الديار المصريّة لأمور بلغته عن بعض شيعة العلويّين، و أنّهم عازمون على الوثوب بها، و أنّه يخاف عليها من البعد عنها أن يقوم أهلها على من تخلّف بها.

فلم يقبل نور الدين هذا الاعتذار منه و تغيّر عليه، و عزم على الدخول إلى مصر و إخراجه عنها. و ظهر ذلك لصلاح الدين فجمع أهله و فيهم أبوه نجم الدين أيّوب، و خاله شهاب الدين الحارمىّ و سائر الأمراء، و أعلمهم بما بلغه من عزم نور الدين و حركته إليه، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بكلمة؛ فقام تقىّ الدين عمر ابن أخيه و قال: إذا جاء قاتلناه و منعناه عن البلاد، و وافقه غيره من أهله؛ فشتمهم نجم الدين أيّوب و أنكر ذلك و استعظمه، و قال لصلاح الدين: أنا أبوك و هذا شهاب الدين خالك، و نحن أكثر محبّة لك من جميع من ترى، و اللّه لو رأيت أنا و خالك نور الدين لم يمكّنا إلّا أن نقبّل الأرض بين يديه، و لو أمرنا أن نضرب عنقك لفعلنا، فإذا كنّا نحن هكذا فما ظنّك بغيرنا! و كلّ من ترى من الأمراء لو رأى نور الدين وحده لم يتجاسروا من الثبات على سروجهم.

ثم قال: و هذه البلاد له، و نحن مماليكه و نوّابه فيها،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳

فإن اراد غير ذلك سمعنا و أطعنا؛ و الرأى أن تكتب إليه و تقول: بلغنى أنّك تريد الحركة لأجل البلاد، فأىّ حاجة إلى هذا! يرسل المولى نجّابا يضع فى رقبتى منديلا و يأخذنى إليك، فما هاهنا من يمتنع عليك؛ و قام الأمراء و تفرّقوا. فلمّا خلا نجم الدين أيّوب بابنه صلاح الدين قال له: يا بنىّ، بأىّ عقل قلت هذا! أمّا علمت أنّ نور الدين متى سمع عزمنا على منعه و محاربته جعلنا أهمّ الوجوه عنده؛ و حينئذ لا نقوى به؛ و إذا بلغه طاعتنا له تركنا و اشتغل بغيرنا، و الأقدار تعمل عملها؛ و اللّه لو أراد نور الدين قصبة من قصب السّكّر لقاتلته أنا عليها حتى أمنعه أو أقتل.

ففعل صلاح الدين ما أشار به والده عليه؛ فترك نور الدين قصده و اشتغل بغيره؛ فكان الأمر كما ظنّه أيّوب. و توفّى نور الدين و لم يقصده. و ملك صلاح الدين البلاد، و كان هذا من أصوب الآراء و أحسنها». انتهى كلام ابن الأثير باختصار.

قال ابن شدّاد: «و لم يزل صلاح الدين فى نشر الإحسان و إفاضة النعم على الناس إلى سنة ثمان و ستّين و خمسمائة، فعند ذلك خرج

بالعسكر يريد بلاد الكرك و الشّوبك، و إنّما بدأ بها لأنّها كانت أقرب إليه، و كانت على الطريق تمنع من يقصد الديار المصريّة، و كان لا يمكن أن تعبر قافلة حتّى يخرج هو بنفسه يعبرها، فأراد توسيع الطريق و تسهيلها، فحاصرها فى هذه السنة، و جرى بينه و بين الفرنج وقعات، و عاد إلى مصر و لم يظفر منها بشىء. و لمّا عاد بلغه خبر وفاة والده نجم الدين قبل وصوله إليه. قال: و لمّا كانت سنة تسع و ستين رأى قوّة عسكره و كثرة عدده، و كان بلغه أنّ باليمن إنسانا استولى عليها و ملك حصونها، و كان يسمّى عبد النّبىّ ابن مهدىّ، فأرسل أخاه توران شاه فقتله و أخذ البلاد منه. ثم مات الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق فى سنة تسع و ستين و خمسمائة. على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴

ما سيأتى ذكره فى الوفيات. ثم بلغ صلاح الدين أنّ إنسانا جمع بأسوان خلقا كثيرا من السودان، و زعم أنّه يعيد الدولة العبيديّة المصريّة. و كان أهل مصر يؤثرون عودهم و انضافوا إليه، فسيّر صلاح الدين إليه جيشا كثيفا و جعل مقدّمه أخاه الملك العادل، فساروا و التقوا به، و كسروه فى السابع من صفر سنة سبعين و خمسمائة.

ثم بعد ذلك استقرّت له قواعد الملك. و كان نور الدين محمود قد خلّف ولده الملك الصالح إسماعيل، و كان بدمشق عند وفاة أبيه. و كان بحلب شمس الدين علىّ بن الدّاية، و كان ابن الداية حدّث نفسه بأمور، فسار الملك الصالح من دمشق إلى حلب، فوصل إلى ظاهرها فى المحرّم سنة سبعين و معه سابق الدّين، فخرج بدر الدين حسن بن الدّاية فقبض على سابق الدين. و لمّا دخل الملك الصالح قلعة حلب قبض على شمس الدين علىّ بن الداية، و على أخيه بدر الدين حسن المذكور، و أودع الثلاثة السجن. و فى ذلك اليوم قتل أبو الفضل بن الخشّاب لفتنة جرت [بحلب]، و قيل: بل قتل قبل القبض على أولاد الدّاية.

ثم إنّ صلاح الدين بعد وفاة نور الدين علم أنّ ولده الملك الصالح صبىّ لا يستقلّ بالأمر، و لا ينهض بأعباء الملك، و اختلفت الأحوال بالشام. و كاتب شمس الدين [محمد بن عبد الملك] بن المقدّم صلاح الدين، فتجهّز صلاح الدين من مصر فى جيش كثيف، و ترك بالقاهرة من يحفظها، و قصد دمشق مظهرا أنّه يتولى مصالح الملك الصالح؛ فدخلها بالتسليم فى يوم الثلاثاء سلخ شهر ربيع الآخر سنة سبعين و خمسمائة، و تسلّم قلعتها و اجتمع الناس إليه و فرحوا به، و أنفق فى ذلك اليوم مالا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵

جزيلا، و أظهر السرور بالدّمشقيين و صعد القلعة؛ ثم سار إلى حلب و نازل حمص و أخذ مدينتها فى أوّل جمادى الأولى، و لم يشتغل بقلعتها و توجّه إلى حلب، و نازلها فى يوم الجمعة سلخ جمادى الأولى من السنة، و هى الوقعة الأولى.

ثم إنّ سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن زنكى صاحب الموصل لمّا أحسّ بما جرى علم أنّ الرجل قد استفحل أمره و عظم شأنه، فخاف إن غفل عنه استحوذ على البلاد و استقرّت قدمه فى الملك و تعدّى الأمر إليه، فأرسل عسكرا وافرا، و جيشا عظيما، و قدّم عليه أخاه عزّ الدين مسعود بن قطب الدين مودود، و ساروا يريدون لقاء صلاح الدين نجدة لابن عمّه الملك الصالح ابن نور الدين، ليردّوا صلاح الدين عن البلاد. فلمّا علم صلاح الدين ذلك رحل من حلب فى مستهلّ رجب من السنة عائدا إلى حماة، ثم رجع إلى حمص و أخذ قلعتها. و وصل عزّ الدين مسعود إلى حلب و أخذ معه عسكر ابن عمّه الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين محمود، و هو صاحب حلب يومئذ، و خرجوا فى جمع عظيم؛ و ما علم صلاح الدين بخروجهم حتّى وافاهم على قرون حماة، فراسلهم و راسلوه، و اجتهد صلاح الدين على أن يصالحوه فلم يصالحوه؛ و رأى أن ضرب المصافّ معهم ربّما نالوا به غرضهم، و القضاء يجرى إلى أموره و هم لا يشعرون، فتلاقوا فقضى اللّه تعالى أنهم انكسروا بين يديه، و أسر جماعة منهم فمنّ عليهم و أطلقهم، و ذلك فى تاسع عشر شهر رمضان من السنة عند قرون حماة. ثم سار صلاح الدين عقيب انكسارهم و نزل على حلب، و هى الدفعة الثانية فصالحوه على المعرّة و كفر طاب و بارين. و لمّا جرت هذه الواقعة كان سيف الدين غازى محاصرا أخاه عماد الدين زنكى صاحب سنجار، و عزم على أخذها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶

منه، لأنّه كان قد انتمى إلى صلاح الدين؛ و كان قد قارب أخذها، فلمّا بلغه خبر هذه الواقعة، و أنّ عسكره انكسر من صلاح الدين على قرون حماة خاف أن يبلغ أخاه عماد الدين الخبر فيشتدّ أمره و يقوى جأشه، فراسله و صالحه. ثم سار غازى من وقته إلى نصيبين و اهتمّ بجمع العساكر و الإنفاق فيها، و سار إلى الفرات و عبر البيرة و خيّم على الجانب الشامىّ، و راسل ابن عمّه الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين صاحب حلب حتّى تستقرّ له قاعدة يصل إليها. ثم إنّه وصل إلى حلب و خرج ابن عمّه الملك الصالح صاحب حلب إلى لقائه، و أقام غازى على حلب مدّة، و صعد قلعتها جريدة؛ ثم نزل و سار إلى تلّ السلطان، و هى منزلة بين حلب و حماة و معه جمع كبير. و أرسل صلاح الدين إلى مصر و طلب عسكرها، فوصل إليه منها جمع كبير؛ فسار بهم صلاح الدين حتّى نزل قرون حماة ثانيا، و تصافّوا بكرة يوم الخميس العاشر من شوّال سنة إحدى و سبعين و خمسمائة، و جرى قتال عظيم، و انكسرت ميسرة صلاح الدين من مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل؛ فإنّه كان على ميمنة سيف الدين غازى، فحمل صلاح الدين بنفسه على عسكر سيف الدين غازى حملة شديدة فانكسر القوم، و أسر منهم جماعة من كبار الأمراء، فمنّ عليهم صلاح الدين و أطلقهم. و عاد سيف الدّين غازى إلى حلب فأخذ منها خزائنه و سار حتّى عبر الفرات، و ترك ابن عمّه الملك الصالح صاحب حلب بها و عاد إلى بلاده. و منع صلاح الدين من تتبّع القوم، و نزل فى بقيّة اليوم فى خيامهم، فإنّهم تركوا أثقالهم و انهزموا؛ و فرّق صلاح الدين الأطلاب و وهب الخزائن و أعطى خيمة سيف الدين غازى لابن أخيه عزّ الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب أخى تقىّ الدين عمر صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷

حماة، و كان فرخشاه صاحب بعلبكّ. ثم سار صلاح الدين إلى منبج فتسلّمها، ثم سار إلى قلعة عزاز و حاصرها فى رابع ذى القعدة سنة إحدى و سبعين و خمسمائة.

و بينما صلاح الدين بها وثب عليه جماعة من الإسماعيليّة (أعنى الفداوية) فنجّاه اللّه منهم و ظفر بهم. و أقام عليها حتّى أخذها فى رابع عشر ذى الحجّة من السنة. ثم سار فنزل على حلب فى سادس عشر ذى الحجّة و أقام عليها مدّة. ثم رحل عنها بعد أن أخرجوا له ابنة صغيرة لنور الدين محمود فسألته عزاز فوهبها لها. ثم عاد صلاح الدين إلى مصر ليتفقّد أحوالها، و كان مسيره إليها فى شهر ربيع الأوّل سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة؛ و كان أخوه شمس الدولة توران شاه بن أيّوب قد وصل إليه من اليمن فاستخلفه بدمشق. ثم بعد ذلك تأهّب صلاح الدين للغزاة و خرج يطلب الساحل حتى وافى الفرنج على الرّملة، و ذلك فى أوائل جمادى الأولى سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة، و كانت الكسرة على المسلمين فى ذلك الوقت، و لمّا انهزموا لم يكن لهم حصن قريب يأوون إليه، فطلبوا جهة الديار المصريّة و ضلّوا فى الطريق و تبدّدوا، و أسر منهم جماعة: منهم الفقيه عيسى الهكّارىّ، و كان ذلك و هنا عظيما، جبره اللّه تعالى بوقعة حطّين المشهورة.

و وصل صلاح الدين إلى مصر و لمّ شعثه و شعث أصحابه من أثر كسرة الرّملة ثم بلغه تخبّط الشام فعاد إليه و اهتم بالغزاة، فوصله رسول صاحب الروم يلتمس الصلح و يتضرّر من الأرمن، يقصد بلاد ابن لاون (يعنى بلادسيس الفاصلة بين حلب و الروم من جهة الساحل)؛ فتوجّه صلاح الدين إليه، و استدعى عسكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸

حلب، لأنّه كان فى الصلح متى استدعاه حضر إليه؛ (يعنى صلح صلاح الدين مع الملك الصالح صاحب حلب). ثم دخل صلاح الدين بلاد ابن لاون و أخذ فى طريقه حصنا و أخربه، و رغبوا إليه فى الصلح فصالحهم و رجع عنهم. ثم سأله قليج أرسلان [صاحب الروم] فى صلح الشرقيين أسرهم (يعنى سيف الدين غازى و إخوته) فأجاب ذلك صلاح الدين و حلف فى عاشر جمادى الأولى سنة ستّ و سبعين و خمسمائة، و دخل فى الصلح قليج أرسلان و المواصلة. ثم عاد صلاح الدين بعد تمام الصلح إلى دمشق؛ ثم منها إلى

مصر. فورد عليه الخبر بموت الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين محمود الشهيد بعد أن استحلف أمراء حلب و أجنادها قبل موته لابن عمّه عز الدين مسعود صاحب الموصل، و هو ابن عم قطب الدين مودود. و لمّا بلغ عزّ الدين مسعودا خبر موت ابن عمّه الملك الصالح المذكور، و أنّه أوصى له بحلب بادر إلى التوجّه إليها خوفا أن يسبقه صلاح الدين إليها فأخذها. و كان أوّل قادم إليها مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، و كان إذ ذاك صاحب حرّان، و هو مضاف إلى الموصل، و وصلها مظفّر الدين المذكور فى ثالث شعبان من سنة سبع و سبعين.

و فى العشرين منه وصلها عزّ الدين مسعود و طلع إلى القلعة و استولى على ما فيها من الحواصل، و تزوّج بأم الملك الصالح فى الخامس من شوّال من السنة. قال:

و حاصل الأمر أنّ عزّ الدين مسعودا قايض عماد الدين زنكى صاحب سنجار عن حلب بسنجار، و خرج عزّ الدين من حلب و دخلها عماد الدين زنكى، فلمّا بلغ صلاح الدين ذلك توجّه إليه و حاصره فلم يقدر عماد الدين على حفظ حلب، و كان نزول صلاح الدين على حلب فى السادس و العشرين من المحرّم سنة سبع و سبعين و خمسمائة. فتحدّث عماد الدين زنكى مع الأمير حسام الدين طمان بن غازى فى السرّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹

بما يفعله، فأشار عليه أن يطلب من صلاح الدين بلادا و ينزل له عن حلب، بشرط أن يكون له جميع ما فى القلعة من الأموال؛ فقال له عماد الدين: و هذا كان فى نفسى.

ثم اجتمع حسام الدين طمان بن غازى مع صلاح الدين فى السرّ على تقرير القاعدة لذلك، فأجابه صلاح الدين إلى ما طلب و وقّع له بسنجار و خابور و نصيبين و سروج، و وقّع لطمان المذكور بالرّقّة لسفارته بينهما، و حلف صلاح الدين على ذلك فى سابع صفر من السنة؛ و كان صلاح الدين قد نزل قبل تاريخه على سنجار و أخذها فى ثانى شهر رمضان من سنة ثمان و سبعين و أعطاها لابن أخيه تقىّ الدين عمر؛ فلمّا جرى الصلح على هذا أخذها من عمر و أعطاها لعماد الدين المذكور. و تسلّم صلاح الدين قلعة حلب و صعد إليها فى يوم الاثنين السابع و العشرين من صفر [سنة تسع و سبعين و خمسمائة]، و أقام بها حتّى رتّب أمورها ثم رحل عنها فى الثانى و العشرين من شهر ربيع الآخر من السنة، و جعل فيها ولده الملك الظاهر و كان صبيّا، و ولّى القلعة لسيف الدين يازكوج الأسدىّ و جعله يرتّب مصالح ولده.

ثم سار صلاح الدين إلى دمشق و توجّه من دمشق لقصد محاصرة الكرك فى الثالث من رجب من السنة، و سيّر إلى أخيه الملك العادل و هو بمصر، يستدعيه ليجتمع به على الكرك، فسار إليه الملك العادل أبو بكر بجمع عظيم و جيش كبير، و اجتمع به على الكرك فى رابع شعبان. فلمّا بلغ الفرنج نزوله على الكرك حشدوا خلقا عظيما و جاءوا إلى الكرك ليكونوا من خارج قبالة عسكر المسلمين، فخاف صلاح الدين على الديار المصريّة، فسيّر اليها ابن أخيه تقىّ الدين عمر، ثم تزحزح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰

صلاح الدين عن الكرك فى سادس عشر شعبان من السنة (و استصحب أخاه الملك العادل معه و دخل دمشق فى الرابع و العشرين من شعبان من السنة، و أعطى أخاه العادل حلب، فتوجّه إليها العادل و دخلها يوم الجمعة الثانى و العشرين من شهر رمضان من السنة. و خرج الملك الظاهر و يازكوج من حلب و دخلا دمشق يوم الاثنين الثامن و العشرين من شوّال من السنة. و كان الملك الظاهر أحب أولاد أبيه إليه لما فيه من الخلال الحميدة، و لم يأخذ منه حلب إلّا لمصلحة رآها أبوه صلاح الدين فى ذلك الوقت. و قيل: إنّ الملك العادل أعطاه على أخذ حلب ثلثمائة ألف دينار يستعين بها على الجهاد. ثم إنّ صلاح الدين رأى أنّ عود الملك العادل إلى مصر، و عود الملك الظاهر إلى حلب أصلح. قيل: إنّ علم الدين سليمان بن جندر كان هو السبب لذلك، فإنّه قال لصلاح الدين، و كانت بينهما مؤانسة قبل أن يتملّك البلاد، و قد سايره يوما، و كان من أمراء حلب، و الملك العادل لا ينصفه، و قدّم عليه غيره؛ و

كان صلاح الدين قد مرض على حصار الموصل! و عمل الى حرّان و أشفى على الهلاك، و لمّا عوفى و رجع إلى الشام و اجتمعا فى المسير، قال له: و كان صلاح الدين قد أوصى لكلّ واحد من أولاده بشيء من البلاد-: بأىّ رأى كنت تظنّ أنّ وصيّتك تنفذ! كأنّك كنت خارجا إلى الصيد ثم تعود فلا يخالفونك! أما تستحى [أن] يكون الطائر أهدى منك إلى المصلحة! قال صلاح الدين: و كيف ذلك؟ و هو يضحك؛ قال: إذا أراد الطائر أن يعمل عشّا لفراخه قصد أعالى الشجر ليحمى فراخه، و أنت سلّمت الحصون إلى أهلك و جعلت أولادك على الأرض؛ هذه حلب- و هى أمّ البلاد- بيد أخيك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱

و حماة بيد ابن أخيك، و حمص بيد ابن عمك أسد الدين؛ و ابنك الأفضل مع تقىّ الدين بمصر يخرجه متى شاء، و ابنك الآخر مع أخيك فى خيمة يفعل به ما أراد؛ فقال له صلاح الدين: صدقت، فاكتم هذا الأمر؛ ثم أخذ حلب من أخيه العادل و أعادها إلى ابنه الملك الظاهر، و أعطى العادل بعد ذلك حرّان و الرّها و ميّافارقين ليخرجه من الشام. و فرق الشام على أولاده، فكان ما كان. و زوّج السلطان صلاح الدين ولده الملك الظاهر بغازية خاتون ابنة أخيه الملك العادل المذكور.

ثم كانت وقعة حطّين المباركة على المسلمين، و كانت فى يوم السبت رابع عشر شهر ربيع الآخر سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة فى وسط نهار الجمعة. و كان صلاح الدين كثيرا ما يقصد لقاء العدوّ فى يوم الجمعة عند الصلاة تبرّكا بدعاء المسلمين و الخطباء على المنابر، فسار فى ذلك الوقت و اجتمع له من العساكر الإسلاميّة عدد يفوت الحصر، و كان قد بلغه أنّ العدوّ اجتمع فى عدّة كثيرة بمرج صفّورية بأرض عكّا عند ما بلغهم اجتماع العساكر الإسلامية، فسار صلاح الدين و نزل على طبريّة على سطح الجبل ينظر قصد الفرنج، فلمّا بلغهم نزوله فى الموضع المذكور لم يتحرّكوا و لا خرجوا من منزلتهم، و كان نزولهم فى الموضع المذكور يوم الأربعاء الحادى و العشرين من شهر ربيع الآخر؛ فلمّا رآهم لا يتحرّكون ترك جريدة على طبريّة، و ترك الأطلاب على حالها قبالة العدوّ، و نزل طبريّة و هجمها و أخذها فى ساعة واحدة، و انتهب الناس ما فيها، و أخذوا فى القتل و السّبى و الحريق؛ و بقيت القلعة ممتنعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲

بمن فيها. و لمّا بلغ العدوّ ما جرى فى طبريّة قلقوا لذلك و رحلوا نحوها، فبلغ السلطان صلاح الدين ذلك فترك على طبريّة من يحاصرها و لحق بالعسكر، و التقى بالعدوّ على سطح جبل طبريّة الغربىّ منها، و ذلك فى يوم الخمس الثانى و العشرين من شهر ربيع الآخر، فحال الليل بين العسكرين، فناما على المصافّ إلى بكرة يوم الجمعة الثالث و العشرين منه، فركب العسكران و تصادما و التحم القتال و اشتدّ الأمر؛ و دام القتال حتّى لم يبق إلّا الظّفر، فحال الليل بينهم، و ناما على المصافّ، و تحقّق المسلمون أنّ من ورائهم الأردنّ، و من بين أيديهم بلاد العدوّ، و أنّهم لا ينجيهم إلّا القتال و الجهاد، و أصبحوا من الغد فحملت أطلاب المسلمين من جميع الجوانب، و حمل القلب و صاحوا صيحة رجل واحد: [اللّه أكبر] و ألقى اللّه الرّعب فى قلوب الكافرين، و كان حقّا عليه نصر المؤمنين.

و لما أحسّ الملك القومص بالخذلان هرب فى أوائل الأمر، فتبعه جماعة من المسلمين، فنجا منهم، و أحاط المسلمون بالكافرين من كلّ جانب، و أطلقوا عليهم السهام، و حملوا عليهم بالسيوف، و سقوهم كأس الحمام، و انهزمت طائفة منهم فتبعهم المسلمون يقتلونهم؛ و اعتصمت طائفة منهم بتلّ يقال [له]: تلّ حطّين، و هى قرية عندها قبر النّبىّ شعيب عليه السلام، فضايقهم المسلمون و أشعلوا حولهم النيران، و اشتدّ بهم العطش فاستسلموا [للأسر خوفا من] القتل، فأسر مقدّمتهم، و قتل الباقون، و كان ممّن أسر من مقدميهم الملك جفرى و أخوه الملك، [و البرنس أرناط] صاحب الكرك و الشوبك، و ابن الهنفرى و ابن صاحب طبريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳

قال ابن شدّاد: لقد حكى لى من أثق به أنّه رأى بحوران شخصا واحدا و معه نيّف و ثلاثون أسيرا ربطهم بطنب خيمة، لما وقع عليهم من الخذلان؛ ثم إنّ الملك القومص الذى هرب فى أوّل الوقعة وصل إلى طرابلس، و أصابه ذات الجنب فهلك. و أمّا مقدّم الأسبتار

و الدّيويّة فإنّه قتلهما السلطان صلاح الدين، و قتل من بقى من أصحابهما حيّا، و أمّا البرنس أرناط فإنّ السلطان كان نذر أنّه إن ظفر به قتله، و ذلك أنّه كان عبر إليه بالشّوبك قوم من الديار المصريّة فى حال الصلح فغدر بهم و قتلهم، فناشدوه الصلح الذى بينه و بين السلطان، فقال: ما يتضمّن الاستخفاف بالنبىّ صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و بلغ ذلك السلطان، فحملته حميّة دينه على أن أهدر دمه.

و لمّا فتح اللّه عليه بالنصر جلس بالدّهليز (يعنى الخيمة) فإنّها لم تكن نصبت بعد لشغل السلطان بالجهاد، و عرضت عليه الأسارى، و صار الناس يتقرّبون إليه بما فى أيديهم منهم، و هو فرح بما فتح اللّه عليه؛ و استحضر الملك جفرى و أخاه، و البرنس أرناط، و ناول السلطان الملك جفرى شربة من جلّاب و ثلج فشرب منها، و كان على أشدّ حال من العطش ثم ناولها للبرنس، ثم قال السلطان للتّرجمان:

قل للملك أنت الذى سقيته و إلّا أنا فما سقيته، فإنّه كان من جميل عادة العرب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴

و كريم أخلاقهم أنّ الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمن؛ فلذا قال السلطان للتّرجمان: أنت الذى سقيته. ثمّ أمر السلطان بمسيرهم إلى موضع عيّنه لهم فأكلوا شيئا، ثم عادوا بهم و لم يبق عند السلطان سوى بعض الخدم؛ فآستحضرهم و أقعد الملك فى دهليز الخيمة، فطلب البرنس أرناط و أوقفه بين يديه، و قال [له]: هأنا أنتصر لمخمد منك، ثم عرض عليه الإسلام فلم يفعل، فسلّ النّيمجاه فضربه بها فحلّ كتفه، و تمّم قتله من حضر، و أخرجت جثّته و رميت على باب الخيمة؛ فلما رآها الملك جفرى لم يشكّ أنه يلحقه به، فاستحضره السلطان و طيّب قلبه، و قال له: لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك إلّا أنّ هذا تجاوز الحدّ و تجرّأ على الأنبياء صلوات اللّه عليهم، ثم أمره بالانصراف. و بات الناس تلك الليلة على أتمّ سرور. و فى هذه الواقعة يقول العماد الكاتب قصيدة طنّانة منها:

حططت على حطّين قدر ملوكهم و لم تبق من أجناس كفرهم جنسا

بطون ذئاب الأرض صارت قبورهم و لم ترض أرض أن تكون لهم رمسا

و قد طاب ريّانا على طبريّة فياطيبها ريّا و يا حسنها مرسى

و قال ابن السّاعاتىّ قصيدة أخرى عظيمة فى هذا الفتح، أوّلها:

جلت عزماتك الفتح المبينا فقد قرّت عيون المؤمنينا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵

ثمّ رحل السلطان بعد أن تسلم طبريّة و نزل على عكّا فى يوم الأربعاء سلخ شهر ربيع الآخر، و قاتلها بكرة يوم الخميس مستهلّ جمادى الأولى سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة؛ و أخذها و استنقذ من كان فيها من أسارى المسلمين، و كانوا أكثر من أربعة آلاف أسير، و استولى على ما كان فيها من الأموال و الذخائر و البضائع، لأنّها كانت مظنّة التجّار؛ و تفرّقت العساكر فى بلاد الساحل يأخذون الحصون و القلاع.

ثم سار السلطان من عكّا و نزل على تبنين يوم الأحد حادى عشر جمادى الأولى، و هى قلعة منيعة، فحاصرها حتّى أخذها فى يوم الأحد ثامن عشر جمادى الأولى، المذكور عنوة. ثمّ رحل عنها إلى صيدا فنزل عليها و تسلّمها فى غد يوم نزوله عليها.

ثم رحل عنها و أتى بيروت فنازلها يوم الخميس الثانى و العشرين من جمادى الأولى، حتى أخذها فى يوم الخميس تاسع عشرين جمادى الأولى. و لمّا فرغ باله من هذا رأى قصد عسقلان، و لم ير الاشتغال بصور بعد أن نزل عليها؛ ثم رأى أنّ العسكر قد تفرّق فى الساحل و كانوا قد ضرسوا من القتال؛ و كان قد اجتمع بصور من بقى من الفرنج فرأى أنّ قصده عسقلان أولى، لأنّها أيسر من صور؛ فأتى عسقلان و نزل عليها يوم الأحد سادس عشر جمادى الآخرة. و أقام عليها إلى أن تسلّم أصحابه مدينة غزّة و بيت جبريل و الماطرون من غير قتال، و كان بين فتح عسقلان و أخذ الفرنج لها ثانيا من المسلمين خمس و ثلاثون سنة؛ فإنّ أخذها كان فى سنة

ثمان و أربعين و خمسمائة. و لمّا تسلّم السلطان عسقلان و البلاد المحيطة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶

بالقدس شمّر عن ساق الجدّ و الاجتهاد فى قصد القدس المبارك، و اجتمع عليه العساكر التى كانت متفرّقة فى الساحل، فسار بهم نحو القدس معتمدا على اللّه تعالى مفوّضا أمره إليه منتهزا الفرصة فى فتح باب الخير الذى حثّ على انتهازه بقوله صلّى اللّه عليه و سلّم: «من فتح له باب خير فلينتهزه فإنّه لا يعلم متى يغلق دونه».

و كان نزول السلطان على القدس فى يوم الأحد الخامس عشر من شهر رجب سنة ثلاث و ثمانين المذكورة، و نزل بالجانب الغربىّ، و كان مشحونا بالمقاتلة من الخيّالة و الرّجّالة حتّى إنّه حزر أهل الخبرة، ممّن كان مع السلطان، من كان فيه من المقاتلة فكانوا يزيدون على ستين ألفا خارجا عن النساء و الصّبيان؛ ثم انتقل السلطان لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالى فى يوم الجمعة العشرين من رجب و نصب عليها المجانيق و ضايق البلد بالزّحف و القتال حتّى أخذ النّقب فى السور ممّا يلى وادى جهنّم؛ و لمّا رأى العدوّ ما نزل بهم من الأمر الذى لا مدفع لهم عنه، و ظهرت لهم أمارات فتح المدينة و ظهور المسلمين عليهم، و كان قد اشتدّ روعهم لما جرى على أبطالهم ما جرى، فاستكانوا إلى طلب الأمان، و سلّموا المدينة فى يوم الجمعة السابع و العشرين من رجب، و ليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها فى القرآن الكريم. فآنظر إلى هذا الاتفاق العظيم، كيف يسر اللّه تعالى عوده إلى المسلمين فى مثل زمان الإسراء بنبيّهم صلّى اللّه عليه و سلّم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷

قال: و كان فتحا عظيما شهده من العلماء خلق، و من أرباب الحرب و الزّهد عالم كثير، و ارتفعت الأصوات بالضّجيج بالدعاء و التهليل و التكبير، و صلّيت فيه الجمعة يوم فتحه، و نكّس الصليب الذى كان على قبّة الصخرة، و كان الصليب شكلا عظيما، و نصر اللّه الإسلام. و كان الفرنج قد استولوا على القدس- بعد فتحه الأوّل فى زمن عمر- فى يوم الجمعة الثالث و العشرين من شعبان سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة؛ و قيل: فى ثانى شعبان و قيل يوم الجمعة السادس و العشرين من شهر رمضان من السنة (أعنى سنة اثنتين و تسعين)، و ذلك كان فى خلافة المستعلى أبى القاسم أحد خلفاء مصر من بنى عبيد، و كان فى وزراة بدر الجمالى بديار مصر.

و قد حكينا طرفا من ذلك فى ترجمة المستعلى فى هذا الكتاب. قلت: و على هذا الحساب يكون القدس أقام بيد الفرنج نيّفا و تسعين سنة من يوم أخذوه فى خلافة المستعلى إلى أن فتحه السلطان صلاح الدين فى هذه المرّة ثانيا. و للّه الحمد. قال ابن شدّاد: «و كانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم عن كلّ رجل عشرين دينارا، و عن كلّ امرأة خمسة دنانير صوريّة، و عن كلّ صغير ذكر أو أنثى دينارا واحدا، فمن أحضر قطيعته نجا بنفسه و إلّا أخذ أسيرا، و أفرج عمّن كان بالقدس من أسارى المسلمين، و كانوا خلقا عظيما؛ و أقام السلطان بالقدس يجمع الأموال و يفرّقها على الأمراء و الرجال، ثم رسم بإيصال من قام بقطيعته من الفرنج إلى مأمنه، و هى مدينة صور، فلم يرحل السلطان من القدس و معه من المال الذى جى شىء، و كان يقارب مائتى ألف دينار [و عشرين ألف دينار].

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸

و لمّا فتح القدس حسن عنده فتح صور، و علم أنّه متى أخّره عسر عليه فتحه، فسار نحوها حتى أتى عكّا فنزل عليها و نظر فى أمورها؛ ثم رحل عنها متوجّها إلى صور فى يوم الجمعة خامس شهر رمضان من سنة ثلاث و ثمانين المذكورة، فنزل قريبا منها، و أرسل لإحضار آلات القتال حتّى تكاملت عنده، نزل عليها فى ثانى عشر الشهر المذكور، و قاتل أهلها قتالا شديدا و ضايقها، و استدعى أسطول مصر، و كان السلطان يضايقها فى البرّ و البحر؛ و خرج أسطول صور فى الليل فكبس أسطول المسلمين فى البحر، و أخذوا المقدّم و الرئيس و خمس قطع للمسلمين، و قتلوا خلقا كثيرا من الرجال، و ذلك فى السابع و العشرين من شهر شوّال؛ و عظم ذلك على السلطان و ضاق صدره؛ و كان الشتاء قد هجم و تراكمت الأمطار و امتنع الناس من القتال لكثرة الأمطار، فجمع السلطان الأمراء و

استشارهم فيما يفعل، فأشاروا عليه بالرحيل لنستريح الرجال، فرحل عنها فى يوم الأحد ثانى ذى القعدة و تفرّقت العساكر، و أعطى كلّ طائفة منها دستورا؛ فسار كلّ قوم إلى بلادهم، و أقام هو فى جماعة من خواصّه بمدينة عكّا إلى أن دخلت سنة أربع و ثمانين و خمسمائة. فرحل و نزل على كوكب فى أوّل المحرّم، و لم يبق معه من العسكر إلّا القليل؛ و كان كوكب حصنا حصينا فيه الرجال [و الأقوات]، فعلم السلطان أنّه لا يؤخذ إلّا بقتال شديد. فرحل إلى دمشق فدخلها فى سادس عشرين شهر ربيع الأوّل من السنة؛ و أقام بدمشق خمسة أيّام.

و بلغه أنّ الفرنج قصدوا جبلة و اغتالوها، فخرج مسرعا و قد سيّر يستدعى العساكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۹

من جميع البلاد، و سار يطلب جبلة؛ فلمّا علم الفرنج بخروجه كفّوا عن ذلك.

و كان السلطان بلغه وصول عماد الدين صاحب سنجار و مظفّر الدين [بن] زين الدين صاحب إربل و عسكر الموصل إلى حلب قاصدين خدمته و الغزاة معه؛ فسار السلطان نحو حصن الأكراد حتى اجتمع بالمذكورين [و] تقوّى بهم للغاية». انتهى كلام ابن شدّاد.

و قال القاضى شمس الدين بن خلّكان: «و فى يوم الجمعة رابع جمادى الأولى دخل السلطان (يعنى صلاح الدين) بلاد العدوّ على تعبئة حسنة و رتّب الأطلاب، و سارت الميمنة أوّلا و مقدّمها عماد الدين زنكى، و القلب فى الوسط، و الميسرة فى الأخير و مقدّم الميسرة مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، فوصل إلى أنطرطوس يوم الأحد سادس جمادى الأولى، فوقف قبالتها ينظر إليها فإنّ قصده مجبلة، فاستهان أمرها و عزم على قتالها فسيّر من ردّ الميمنة، و أمرها بالنزول إلى جانب البحر، و الميسرة على الجانب الآخر، و نزل هو موضعه و العساكر محدقة بها من البحر إلى البحر، و هى مدينة راكبة على البحر و لها برجان، فركبوا و قاربوا البلد و زحفوا عليها، و اشتدّ القتال فما استتمّ نصب الخيام حتّى صعد المسلمون سورها و أخذوها بالسيف، و غنم المسلمون جميع ما فيها، و أحرق البلد و أقام عليها إلى رابع عشر جمادى الأولى، و سلّم أحد البرجين إلى مظفّر الدين، فما زال يحار به حتىّ أخربه. و حضر إلى السلطان ولده الملك الظاهر بعساكر حلب، لأنّه كان طلبه فجاء بعساكر عظيمة. ثم سار السلطان يريد جبلة فوصلها فى ثانى عشر جمادى الأولى،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۰

و ما استتمّ نزول العسكر عليها حتّى أخذت البلد؛ و كان فيه مسلمون مقيمون وقاض يحكم بينهم، و قوتلت القلعة قتالا شديدا ثم سلّمت بالأمان. ثم سار السلطان عنها إلى اللّاذقيّة فنزل عليها يوم الخميس الرابع و العشرين من جمادى الأولى، و لها قلعتان (يعنى اللّاذقيّة) متّصلتان على تلّ مشرف على البلد، و اشتدّ القتال إلى آخر النهار، فأخذ البلد دون القلعتين، و غنم المسلمون منه غنيمة عظيمة لأنّه كان بلد التجّار؛ ثم جدّوا فى أمر القلعتين بالنّقوب حتّى بلغ طول النّقب ستين ذراعا و عرضه أربع أذرع. فلمّا رأى أهل القلعتين الغلبة لاذوا بطلب الأمان، و ذلك فى عشيّة يوم الجمعة الخامس و العشرين من الشهر، و التمسوا الصلح على سلامة أنفسهم و ذراريهم و نسائهم و أموالهم ما خلا الغلال و الذخائر و السلاح و آلات الحرب، فأجاب السلطان إلى ذلك، و رفع العلم الإسلامىّ عليها فى يوم السبت و أقام عليها إلى يوم الأحد السابع و العشرين من الشهر. ثم رحل عنها و نزل صهيون و قاتلهم أشدّ قتال حتّى أخذ البلد يوم الجمعة ثانى عشر جمادى الآخرة؛ ثم تقدّموا إلى القلعة و صدقوا القتال، فلمّا عاينوا الهلاك طلبوا الأمان فأجابهم إليه بحيث يؤخذ من الرجل عشرة دنانير، و من المرأة خمسة دنانير، و من كل صغير ديناران، الذكر و الأنثى سواء.

و أقام السلطان صلاح الدين بهذه الجهات حتّى أخذ عدّة قلاع منها بلاطنس و غيرها من الحصون المتعلّقة بصهيون. ثم رحل عنها و أتى بكاس، و هى قلعة حصينة على العاصى و لها نهر يخرج من تحتها، و كان النزول عليها فى يوم الثلاثاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۱

سادس جمادى الآخرة، و قاتلوها قتالا شديدا إلى يوم الجمعة تاسع الشهر ففتحها عنوة، فقتل أكثر من بها و أسر الباقون، و غنم

المسلمون جميع ما كان فيها، و لها قلعة تسمّى الشّغر، و هى فى غاية المنعة يعبر إليها بجسر و ليس عليها طريق، فسلّطت المجانيق عليها من جميع الجوانب، فرأوا أن لا ناصر لهم فطلبوا الأمان فى يوم الثلاثاء ثالث عشر الشهر. ثم سار السلطان الى برزيه، و هى أيضا من الحصون المنيعة فى غاية القوّة يضرب بها المثل، و يحيط بها أودية من جميع جوانبها، و علوّها خمسمائة و نيّف و سبعون ذراعا، و كان نزوله عليها يوم السبت الرابع و العشرين من الشهر، فقاتلوها حتّى أخذوها عنوة فى يوم الثلاثاء السابع و العشرين منه. ثم سار السلطان إلى دربساك فنزل عليها يوم الجمعة ثامن رجب، و هى قلعة منيعة فقاتلها قتالا شديدا حتى أخذها و ترقّى العلم الإسلامىّ عليها يوم الجمعة الثانى و العشرين من رجب، و أعطاها للأمير علم الدين سليمان بن جندر، و سار عنها بكرة يوم السبت الثالث و العشرين من رجب و نزل على بغراس، و هى قلعة حصينة بالقرب من أنطاكية، و قاتلها قتالا شديدا حتّى صعد العلم الإسلامى عليها فى ثانى شعبان؛ و راسله أهل أنطاكية فى طلب الصلح فصالحهم لشدّة ضجر العسكر؛ فكان الصلح بينهم على أن يطلقوا كلّ أسير عندهم لا غير، و الصلح إلى سبعة أشهر؛ فإن جاءهم من ينصرهم و إلّا سلّموا البلد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۲

ثم رحل السلطان فسأله ولده الملك الظاهر صاحب حلب أن يجتاز به فأجابه إلى ذلك، فوصل إلى حلب فى حادى عشر شعبان، و أقام بالقلعة ثلاثة أيام، و ولده يقوم بالضّيافة حقّ القيام. ثم سار من حلب فاعترضه تقىّ الدين عمر ابن أخيه، و أصعده إلى قلعة حماة، و صنع له طعاما و أحضر له سماعا من جنس ما يعمل الصّوفيّة، و بات فيها ليلة واحدة، و أعطاه السلطان جبلة و اللّاذقيّة. ثم سار السلطان على طريق بعلبكّ، و دخل دمشق قبل شهر رمضان بأيّام يسيرة. ثم سار فى أوائل شهر رمضان يريد صفد، فنزل عليها و لم يزل القتال عمّالا فى كلّ يوم حتّى تسلّمها بالأمان فى رابع عشر شوّال؛ و فى شهر رمضان المذكور سلّمت الكرك، سلّمها نوّاب صاحبها و خلّصوا صاحبها بذلك، فإنّه كان فى الأسر من نوبة حطّين. ثم نزل السلطان بالغور، و أقام بقيّة الشهر، فأعطى الجماعة دستورا. و سار السلطان مع أخيه العادل يريد زيارة القدس و وداع أخيه العادل المذكور، لأنّ العادل المذكور كان متوجّها إلى مصر، فدخل السلطان القدس فى ثامن ذى الحجّة و صلّى به العيد. و توجّه فى حادى عشر ذى الحجّة إلى عسقلان لينظر فى أمورها، فتوجّه إليها و أخذها من أخيه، و عوّضه عنها الكرك. ثم مرّ على بلاد الساحل يتفقّد أحوالها. ثم سار فدخل عكّا و أقام بها معظم المحرّم من سنة خمس و ثمانين و خمسمائة يصلح أحوالها، و رتّب فيها الأمير بهاء الدين قراقوش، و أمره بعمارتها و عمارة سورها.

و دخل السلطان دمشق فى مستهل صفر من السنة، و أقام بها إلى شهر ربيع الأوّل من السنة. ثم خرج إلى شقيف أرنون، و هو موضع حصين، فخيّم فى مرج عيون

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۳

بالقرب من الشّقيف فى سابع عشر شهر ربيع الأوّل فأقام أيّاما على قتاله، و العسكر تتواصل إليه؛ فلمّا تحقّق صاحب الشّقيف أنّه لا طاقة له به نزل إليه بنفسه، فلم يشعر به إلّا و هو قائم على باب خيمته، فأذن له فى الدخول و أكرمه السلطان و احترمه، و كان من أكبر الفرنج قدرا، و كان يعرف بالعربية، و عنده اطّلاع على بعض التواريخ و الأحاديث، و كان حسن التأتّى؛ لمّا خضر بين يدى السلطان و أكل معه الطعام، ثم خلا به و ذكر أنّه مملوكه و تحت طاعته، و أنّه يسلّم إليه المكان من غير تعب، و اشترط عليه أن يعطى موضعا يسكنه بدمشق، فإنّه بعد ذلك لا يقدر على مساكنة الفرنج، و إقطاعا بدمشق يقوم به و بأهله، و شروطا غير ذلك، فأجابه إلى ذلك. و فى أثناء شهر ربيع الأوّل وصل إلى السلطان [الخبر] بتسليم الشّوبك، و كان قد أقام عليه جمعا يحاصرونه مدّة سنة كاملة إلى أن نفد زاد من كان فيه فسلّموه بالأمان. ثم ظهر للسلطان بعد ذلك أنّ جميع ما قاله صاحب شقيف كان خديعة، فرسم عليه. ثم بلغه أنّ الفرنج قصدوا عكّا و نزلوا عليها فى ثالث عشر شهر رجب من سنة خمس و ثمانين المذكورة. و فى ذلك اليوم سيّر السلطان صاحب الشّقيف إلى دمشق بعد الإهانة الشديدة. ثم سار السلطان و أتى عكّا و دخلها بغتة ليقوّى قلوب من بها، و استدعى العساكر من كلّ ناحية؛ و كان العدوّ مقدار ألفى فارس و ثلاثين ألف راجل، و تكاثر الفرنج و استفحل أمرهم، و أحاطوا بعكّا و منعوا من يدخل إليها

و يخرج، و ذلك فى يوم الخميس سلخ رجب، فضاق صدر السلطان لذلك، ثم اجتهد فى فتح الطريق إليها لتستمرّ السابلة بالميرة و النّجدة، و شاور الأمراء فاتّفقوا على مضايقة العدوّ لفتح الطريق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۴

ففعلوا ذلك و انفتح الطريق و سلكه المسلمون؛ و دخل السلطان عكّا فأشرف على أمورها؛ ثم جرى بين الفريقين مناوشات فى عدّة أيام، و تأخّر الناس إلى تلّ العياضيّة و هو مشرف على عكّا. و فى هذه المنزلة توفّى الأمير حسام الدين طمان المقدّم ذكره، و ذلك فى نصف شعبان من سنة خمس و ثمانين و خمسمائة، و كان من الشّجعان».

قال ابن خلّكان: «قال شيخنا ابن شدّاد: و سمعت السلطان ينشد- و قد قيل له: إنّ الوخم قد عظم بعكّا، و إنّ الموت قد فشا بين الطائفتين-:

اقتلانى و مالكّا و اقتلا مالكّا معى

- قلت: و هذا الشعر له سبب ذكرناه فى ترجمة الأشتر النّخعىّ، اسمه مالك، فى أوائل هذا الكتاب فإنّه ملك مصر، و كان الأشتر من أصحاب علىّ بن أبى طالب- رضى اللّه عنه- و الحكاية مطوّلة تنظر فى ترجمة مالك (أعنى الأشتر النّخعىّ من هذا الكتاب-.

قال ابن شدّاد: ثم إنّ الفرنج جاءهم الإمداد من البحر، و استظهروا على الجماعة الإسلاميّة بعكّا، و كان فيهم الأمير سيف الدين علىّ بن أحمد الهكّارىّ المعروف بالمشطوب، و الأمير بهاء الدين قراقوش الخادم الصّلاحىّ، و ضايقوهم أشدّ مضايقة إلى أن غلبوا عن حفظ البلد. فلمّا كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة [سنة سبع و ثمانين و خمسمائة] خرج من عكّا رجل عوّام فى البحر، و معه كتب إلى السلطان من المسلمين يذكرون حالهم و ما هم فيه، و أنّهم تيقّنوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۵

الهلاك، و متى أخذوا البلد عنوة ضربت رقابهم، و أنّهم صالحوا على أن يسلّموا البلد و جميع ما فيه من الآلات و الأسلحة و المراكب، و مائتى ألف دينار و خمسمائة أسير مجاهيل و مائة أسير معيّنين من جماعتهم، و صليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، و ما معهم من الأموال و الأقمشة المختصّة بهم و ذراريهم و نسائهم، و ضمنوا للمركيس- لأنه كان الواسطة فى هذا الأمر- أربعة آلاف دينار. فلمّا وقف السلطان على الكتب المشار إليها أنكر ذلك إنكارا عظيما، و عظم عليه هذا الأمر، و جمع أهل الرأى من أكابر دولته، و شاورهم فيما يصنع، و اضطربت آراؤه، و تقسّم فكره و تشوّش حاله، و عزم أن تكتب فى تلك الليلة كتب مع الرجل العوّام الذى قدم عليه بهذا الخبر ينكر المصالحة على هذا الوجه، و بينما هو يتردّد فى هذا فلم يشعر إلّا و قد ارتفعت أعلام العدوّ و صلبانه و ناره على سور البلد؛ و ذلك فى يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة؛ و صاح الفرنج صيحة واحدة، و عظمت المصيبة على المسلمين، و اشتدّ حزنهم، و وقع من الصباح و العويل و البكاء ما لا بذكر.

ثم خرجت الفرنج بعد أن ملكوا عكّا قاصدين عسقلان ليأخذوها أيضا من المسلمين، و ساروا على الساحل و السلطان و عساكره قبالتهم إلى أن وصلوا إلى أرسوف، فكان بينهما قتال عظيم، و نال المسلمين و هن شديد. ثم ساروا على تلك الهيئة تتمّة عشر منازل من سيرهم من عكّا، فأتى السلطان الرّملة، فأتاه من أخبر بأنّ القوم على عزم عمارة يافا و تقويتها بالرجال و العدد و الآلات، فأحضر السلطان أرباب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۶

مشورته، و شاورهم فى أمر عسقلان، و هل الصواب خرابها أو بقاؤها؟ فاتّفقت آراؤهم أن يبقى الملك العادل فى قبالة العدوّ، و يتوجّه السلطان بنفسه و يخربها خوفا من أن يصل العدوّ إليها و يستولى عليها و هى عامرة و يأخذ بها القدس، و ينقطع بها طريق مصر، و امتنع العسكر من الدخول و خافوا ممّا جرى على المسلمين بعكّا. فلا قوّة إلّا بالله. و رأوا أنّ حفظ القدس أولى، فتعيّن خرابها من عدّة جهات؛ و كان هذا الاجتماع يوم الثلاثاء سابع عشر شعبان من سنة سبع و ثمانين و خمسمائة، فسار إليها السلطان فى سحر يوم

الأربعاء ثامن عشر شعبان المذكور. قال ابن شدّاد: و تحدّث معى فى معنى خرابها (يعنى عسقلان) بعد أن تحدّث مع ولده الملك الأفضل أيضا فى أمرها، ثم قال السلطان: لأن أفقد ولدى جميعهم أحبّ إلىّ من أهدم منها حجرا واحدا، و لكن إذا قضى اللّه تعالى ذلك، و كان فيه مصلحة للمسلمين، فما الحيلة فى ذلك! فلمّا اتّفق الرأى على خرابها أوقع اللّه ذلك فى نفسه، و أنّ المصلحة فيه لعجز المسلمين عن حفظها. و شرع فى إخرابها فى سحر يوم الخميس التاسع عشر من شعبان من السنة المذكورة، و قسّم السور على الناس و جعل لكلّ أمير و طائفة من العسكر بدنه معلومة و برجا معلوما يخربه، و دخل الناس البلد و وقع فيهم الضّجيج و البكاء لفرقة بلدهم و أوطانهم، و كان بلدا خفيفا على القلب محكم الأسوار عظيم البناء مرغوبا فى سكنه، فلحق الناس على خرابه حزن عظيم. و شرع أهل البلد فى بيع ما لا يقدرون على حمله، فباعوا ما يساوى عشرة دراهم بدرهم واحد، حتّى باعوا اثنى عشر طير دجاج بدرهم، و اختبط أهل البلد و خرجوا بأولادهم و أهليهم إلى الخيم و تشتّتوا، فذهب منهم قوم إلى مصر و قوم إلى الشام، و جرت عليهم أمور عظيمة، و اجتهد السلطان و أولاده فى خراب البلد كى لا يسمع العدوّ فيسرع إليها؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۷

فلا يمكن إخرابه، و كانت الناس على أصعب حال، و اشتد تعب الناس مما قاسوه فى خرابها.

و فى تلك الليلة وصل للملك العادل من حلب من أخبره أنّ الفرنج تحدّثوا معه فى الصلح، و طلبوا جميع البلاد الساحليّة، فرأى السلطان أنّ ذلك مصلحة لما علم من نفوس الناس و العساكر من الضّجر من القتال و كثرة ما عليه من الديون؛ فكتب السلطان إلى أخيه الملك العادل يأذن له فى ذلك، و فوّض الأمر إلى رأيه، و أصبح السلطان يوم الجمعة و هو مصرّ على الخراب، و يستعجل الناس عليه و يحثّهم على العجلة فيه؛ و أباحهم ما فى الهرى الذى كان مدخرا للميرة خوفا من أن يهجم العدوّ و العجز عن نقله. ثمّ أمر السلطان بإحراق البلد فأضرمت النيران فى بيوته، و لم يزل الخراب يعمل فى البلد الى سلخ شعبان المذكور؛ ثم أصبح السلطان يوم الاثنين مستهلّ شهر رمضان، أمر ولده الملك الأفضل أن يباشر خراب البلد بنفسه و خواصّه.

قال ابن شدّاد، و لقد رأيته يحمل الخشب بنفسه (يعنى الملك الأفضل).

و فى يوم الأربعاء ثالث شهر رمضان أتى السلطان الرّملة و أشرف عليها، و أمر أيضا بإحراقها و إخراب قلعتها (يعنى الرملة) فأحرقت و أخربت قلعتها خوفا أيضا من الفرنج.

و فى يوم السبت ثالث عشر رمضان تأخّر السلطان و العسكر إلى جهة الجبل ليتمكّن الناس من تسيير دوابّهم لإحضار ما يحتاجون إليه. ثم شرع السلطان أيضا فى خراب قلعة الماطرون، و كانت قلعة منيعة فشرع الناس فى ذلك. ثم ذكر ابن شدّاد فصلا طويلا يتضمّن الصلح بين الأنكلتير ملك الفرنج و بين السلطان صلاح الدين المذكور إلى أن قال: و حاصل الأمر أنه تمّ الصلح بينهم، و كانت الأيمان يوم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۸

الأربعاء الثانى و العشرين من شعبان سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة؛ و نادى المنادى بانتظام الصلح، و أنّ البلاد الإسلامية و النّصرانية واحدة فى الأمن و المسالمة، فمن شاء من كلّ طائفة أن يتردّد إلى بلاد الطائفة الأخرى من غير خوف و لا محذور.

و كان يوما مشهودا نال الطائفتين فيه من السرور ما لا يعلمه إلّا اللّه تعالى؛ و قد علم اللّه تعالى أنّ الصلح لم يكن عن مرضاة السلطان، لكنّه رأى المصلحة فى الصلح لسآمة العسكر من القتال، و مظاهرتهم للمخالفة. و كان مصلحة فى علم اللّه تعالى، فإنّه اتّفقت وفاته بعد الصلح، فلو اتّفق ذلك فى أثناء وقعاته كان الإسلام على خطر ثم إنّ السلطان أعطى العساكر الوافدة عليه من البلاد البعيدة برسم الغزاة و النّجدة دستورا، فساروا عنه. و عزم السلطان على الحجّ لمّا فرغ باله من هذه الجهة، و أمن الناس و تردّد المسلمون إلى بلاد الفرنج، و جاءوا هم أيضا إلى بلاد المسلمين، و حملت البضائع و المتاجر إلى البلاد؛ و توجّه السلطان إلى القدس ليتفقّد أحواله، و توجّه أخوه الملك العادل إلى الكرك، و ابنه الملك الظاهر إلى حلب، و ابنه الملك الأفضل إلى دمشق. ثم تأهّب السلطان إلى المسير إلى

الديار المصريّة، و لم يزل كذلك إلى أن صحّ عنده سير مركب الأنكلتير ملك الفرنج إلى بلاده فى مستهلّ شوّال، فعند ذلك قوى عزمه على أن يدخل الساحل جريدة يتفقّد أحواله و أحوال القلاع البحريّة إلى بانياس. ثم يدخل دمشق فيقيم بها قليلا، ثم يعود إلى القدس و منه إلى الديار المصريّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۴۹

قال ابن شدّاد: و أمرنى بالمقام بالقدس إلى حين عوده إليه لعمارة بيمارستان أنشأه به، و تكميل المدرسة التى أنشأها به، و سار ضحوة نهار الخميس السادس من شوّال سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة. فلمّا فرغ السلطان من افتقاد أحوال القلاع و إزاحة خللها دخل دمشق بكرة يوم الأربعاء سادس عشرين شوّال، و فيها أولاده:

الملك الأفضل، و الملك الظاهر، و الملك الظافر مظفّر الدّين الخضر المعروف بالمشمّر و أولاده الصغار؛ و كان السلطان يحبّ البلد (يعنى دمشق) و يؤثر الإقامة به على سائر البلاد، و جلس للناس فى بكرة يوم الخميس السابع و العشرين منه، و حضروا عنده و بلّوا أشواقهم منه، و أنشده الشعراء، و لم يتخلّف عنه أحد من الخاصّ و العامّ، و أقام ينشر جناح عدله بدمشق إلى أن كان يوم الاثنين مستهلّ ذى القعدة، عمل الملك الأفضل دعوة للملك الظاهر أخيه لأنّه لمّا وصل إلى دمشق و بلغه حركة السلطان أقام بها [حتّى يتملّى بالنظر إليه ثانيا]، و لمّا عمل الأفضل الدعوة أظهر فيها من الهمم العالية ما يليق بهمّته، و كان أراد بذلك مجازاته لما خدمه [به] حين وصوله إلى بلده، و حضر الدعوة المذكورة أرباب الدنيا و الآخرة، و سأل الأفضل والده السلطان فى الحضور فحضر، و كان يوما مشهودا على ما بلغنى. قال: و لمّا أصلح الملك العادل الكرك سار قاصدا الديار الفراتيّة، و أحبّ أن يدخل دمشق،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۰

فوصل إليها و خرج السلطان إلى لقائه، و أقام يتصيّد حول غباغب إلى الكسوة حتّى لقى أخاه الملك العادل و سارا جميعا يتصيّدان، ثم عادا إلى دمشق؛ فكان دخولهما دمشق آخر نهار يوم الأحد حادى عشرين ذى القعدة سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة.

و أقام السلطان بدمشق يتصيّد هو و أخوه الملك العادل و أولاده و يتفرّجون فى أراضى دمشق، و كأنه وجد راحة ممّا كان فيه من ملازمة التعب و النّصب و سهر الليل، فكان ذلك كالوداع لأولاده، و نسى عزمه إلى مصر، و عرضت له أمور أخر و عزمات غير ما تقدّم.

قال ابن شدّاد: و وصلنى كتابه إلى القدس يستدعينى لخدمته، فخرجت من القدس فى يوم الجمعة الثالث و العشرين من المحرّم سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، و كان الوصول إلى دمشق يوم الثلاثاء ثانى عشر صفر من السنة. و ركب السلطان ليتلقى الحاج فى يوم الجمعة خامس عشر صفر، و كان ذلك آخر ركوبه. و لمّا كانت ليلة السبت وجد كسلا عظيما و ما انتصف الليل حتّى غشيته حمّى صفراوية، و كانت فى باطنه أكثر ممّا فى ظاهره، و أصبح يوم السبت متكسّلا، عليه أثر الحمّى، و لم يظهر ذلك للناس، لكن حضرت عنده أنا و القاضى الفاضل، فدخل ولده الملك الأفضل و طال جلوسنا عنده و أخذ يشكو قلقه بالليل، و طاب له الحديث إلى وقت الظهر، ثم انصرفنا و قلوبنا عنده، فتقدّم إلينا بالحضور على الطعام فى خدمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۱

ولده الأفضل، و لم يكن للقاضى الفاضل فى ذلك عادة فآنصرف، و دخلت إلى الإيوان القبلىّ و قد مدّ السّماط، و ابنه الملك الأفضل قد جلس موضعه، فانصرفت و ما كانت لى قوّة للجلوس استيحاشا له، و بكى فى ذلك اليوم جماعة تفاؤلا بجلوس ولده الأفضل موضعه. ثمّ أخذ المرض يتزايد به من حينئذ، و نحن نلازم التردّد له طرفى النهار، و كان مرضه فى رأسه. و كان من أمارات انتهاء العمر غيبة طبيبه الذى كان قد عرف مزاجه سفرا و حضرا، و رأى الأطباء فصده ففصدوه فى الرابع، فاشتدّ مرضه و حلّت رطوبات بدنه، و كان يغلب على مزاجه اليبس، فلم يزل المرض يتزايد به حتّى انتهى إلى غاية الضعف، و اشتدّ مرضه فى السادس و السابع و الثامن، و لم يزل يتزايد و يغيب ذهنه؛ و لمّا كان التاسع حدثت له غشية و امتنع من تناول المشروب، و اشتدّ الخوف فى البلد؛

و خاف الناس و نقلوا أقمشتهم من الأسواق، و علا الناس من الكآبة و الحزن ما لا يمكن حكايته. و لمّا كان اليوم العاشر من مرضه أيس منه الأطبّاء. ثم شرع ولده الملك الأفضل فى تحليف الناس له. ثم إنّه توفّى- إلى رحمة اللّه تعالى- بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع و العشرين من صفر سنة تسع و ثمانين و خمسمائة. و كان يوم موته يوما لم يصب الإسلام و المسلمون بمثله بعد فقد الخلفاء الراشدين- رضى اللّه عنهم- و غشى القلعة و الملك و الدنيا وحشة لا يعلمها إلّا اللّه تعالى. و باللّه لقد كنت أسمع من الناس أنّهم يتمنّون فداء من يعزّ عليهم بنفوسهم، و كنت أتوهّم أنّ هذا على ضرب من التجوّز و الترخّص إلى ذلك اليوم، فإنّى علمت من نفسى و من غيرى أنّه لو قبل الفداء لفدى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۲

بالأنفس. تم جلس ولده الملك الأفضل للعزاء و غسّله أبو القاسم ضياء الدّين عبد الملك بن زيد الدّولعىّ خطيب دمشق، و أخرج تابوت السلطان- رحمه اللّه تعالى- بعد صلاة الظهر مسجّى بثوب فوط، فارتفعت الأصوات عند مشاهدته، و عظم الضّجيج و أخذ الناس فى البكاء و العويل، و صلّوا عليه أرسالا ثم أعيد إلى داره التى فى البستان، و هى التى كان متمرضا بها، و دفن فى الضّفّة الغربيّة منها. و كان نزوله فى حفرته قريبا من صلاة العصر. ثم أطال ابن شدّاد القول فى هذا المعنى إلى أن أنشد فى آخر السيرة بيت أبى تمّام الطائىّ، و هو قوله:

ثمّ انقضت تلك السّنون و أهلها فكأنّها و كأنّهم أحلام

و لقد كان- رحمه اللّه تعالى-. من محاسن الدنيا و غرائبها.

ثم ذكر ابن شدّاد أنّه مات و لم يخلّف فى خزائنه من الذهب و الفضّة إلا سبعة و أربعين درهما ناصريّة و دينارا واحدا ذهبا صوريّا، و لم يخلّف ملكا و لا دارا و لا عقارا و لا بستانا و لا قرية و لا مزرعة. و فى ساعة موته كتب القاضى الفاضل إلى ولده الملك الظاهر صاحب حلب بطاقة مضمونها:

«لقد كان لكم فى رسول اللّه أسوة حسنة. إنّ زلزلة الساعة شىء عظيم.

كتبت إلى مولانا السلطان الملك الظاهر، أحسن اللّه عزاءه و جبر مصابه؛ و جعل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۳

فيه الخلف لمماليك المرحوم و أصحابه، و قد زلزل المسلمون زلزالا شديدا؛ [و قد حفرت الدموع المحاجر، و بلغت القلوب الحناجر؛ و قد ودّعت أباك و مخدومى و داعا لا تلافىّ بعده]؛ و قد قبّلت وجهه عنّى و عنك، و أسلمته إلى اللّه تعالى مغلوب الحيلة، ضعيف القوّة، راضيا عن اللّه، و لا حول و لا قوّة إلّا باللّه؛ و بالباب من الجنود المجنّدة، و الأسلحة المغمدة؛ ما لا يدفع البلاء، و لا يردّ القضاء؛ و تدمع العين و يخشع القلب، و لا نقول إلّا ما يرضى الربّ؛ و إنّا عليك يا يوسف لمحزونون.

و أمّا الوصايا فما يحتاج إليها، و الآراء فقد شغلنى المصاب عنها؛ و أمّا لائح الأمر فإنّه إن وقع اتّفاق فما عدمتم إلا شخصه الكريم، و إن كان غير ذلك فالمصائب المستقبلة أهونها موته، و هو الهول العظيم و السلام». انتهى كلام القاضى الفاضل بما كتبه للملك الظاهر.

قال ابن خلّكان: «و استمرّ السلطان صلاح الدين مدفونا بقلعة دمشق إلى أن بنيت له قبّة شمالىّ الكلّاسة التى هى شمالىّ جامع دمشق، و لها بابان، أحدهما إلى الكلّاسة و الآخر زقاق غير نافذ؛ و هو مجاور المدرسة العزيزيّة. ثم نقل من مدفنه بالقلعة إلى هذه القبّة فى يوم عاشوراء فى يوم الخميس من سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة. ثم إنّ ولده الملك العزيز عثمان لمّا ملك دمشق من أخيه الملك الأفضل بنى إلى جانب هذه القبّة المدرسة العزيزيّة». قلت: فى أيّامه بنى الخصىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۴

بهاء الدين قراقوش قلعة الجبل ثم قلعة المقس ثم سور القاهرة، و ذرع السور المذكور سبعة و عشرون ألف ذراع و ثلثمائة ذراع.

قال ابن خلّكان: «و كان السلطان صلاح لمّا ملك الديار المصرية لم يكن بها شيء من المدارس، فإنّ الدولة المصريّة كان مذهبها مذهب الإماميّة، فلم يكونوا يقولون بهذه الأشياء، فعمّر السلطان صلاح الدين بالقرافة الصغرى المدرسة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۵

المجاورة للإمام الشافعيّ- رضى اللّه عنه- و بنى مدرسة مجاورة للمشهد المنسوب للحسين ابن عليّ- رضى اللّه عنهما- بالقاهرة. و جعل دار سعيد السعداء خادم الخلفاء المصريّين خانقاه، و وقف عليها وقفا هائلا؛ و كذلك وقف على كلّ مدرسة عمّرها وقفا جيّدا، و جعل دار عبّاس الوزير العبيدى مدرسة للحنفيّة، و أوقف عليها وقفا جيّدا أيضا و هى بالقاهرة، و بنى المدرسة التى بمصر المعروفة [بابن] زين التجّار للشافعيّة، و وقف عليها وقفا جيّدا، و بنى بالقصر داخل القاهرة بيمارستانا، و أوقف له وقفا جيدا؛ و له بالقدس مدرسة و خانقاه.

قال ابن خلّكان: «و لقد فكّرت فى نفسى فى أمور هذا الرجل، و قلت: إنه سعيد فى الدنيا و الآخرة، فإنّه فعل فى الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة و غيرها، و رتّب هذه الأوقاف العظيمة، و ليس شيء منسوبا إليه فى الظاهر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۶

فإنّ المدرسة التى بالقرافة ما يسمّونها الناس إلّا بالشافعيّ، و المجاورة للمشهد لا يقولون إلّا المشهد، و الخانقاه لا يقولون إلّا سعيد السعداء، و المدرسة الحنفيّة لا يقولون إلا السيوفيّة، و التى بمصر لا يقولون إلّا مدرسة زين التّجّار، و التى بمصر أيضا مدرسة المالكيّة، و هذه صدقة السّرّ على الحقيقة. و العجب أنّ له بدمشق فى جانب البيمارستان النّوريّ مدرسة أيضا، و يقال لها: الصلاحيّة، و هى منسوبة إليه و ليس لها وقف.

قال: و كان مع هذه المملكة المتّسعة و السلطنة العظيمة كثير التواضع و اللّطف قريبا من الناس رحيم القلب كثير الاحتمال و المداراة، و كان يحبّ العلماء و أهل الخير و يقرّبهم و يحسن إليهم؛ و كان يميل إلى الفضائل، و يستحسن الأشعار الجيّدة و يردّدها فى مجالسه، حتّى قيل: إنّه كان كثيرا ما ينشد قول أبى المنصور محمد بن الحسين بن أحمد بن الحسين بن إسحاق الحميرىّ، و هو قوله:

و زارنى طيف من أهوى على حذر من الوشاة و داعى الصبح قد هتفا

فكدت أوقظ من حولى به فرحا و كاد يهتك سترا لحبّ بى شغفا

ثم انتبهت و آمالى تخيّل لى نيل المنى فاستحالت غبطتى أسفا

و قيل: إنّه كان يعجبه قول نشو الملك أبى الحسن علىّ بن مفرّج المعروف بابن المنجّم المغربىّ الأصل المصرىّ الدار و الوفاة، و هو فى خضاب الشّيب و أجاد:

و ما خضب الناس البياض لفبحه و أقبح منه حين يظهر ناصله

و لكنّه مات الشباب فسوّدت على الرسم من حزن عليه منازله

قالوا: فكان [إذا قال: مات الشباب] يمسك كريمته و ينظر إليها و يقول:

إى و اللّه مات الشباب!. و ذكر العماد الكاتب الأصبهانىّ فى كتابه الخريدة أنّ السلطان صلاح الدين فى أوّل ملكه كتب إلى بعض أصحابه بدمشق:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۵۷

أيّها الغائبون عنّا و إن كن تم لقلبى بذكركم جيرانا

إنّنى مذ فقدتكم لأراكم بعيون الضمير عندى عيانا

قال ابن خلّكان: و أمّا القصيدتان اللتان ذكرت أنّ سبط التّعاويذىّ أنفذهما إليه من بغداد، و أنّ إحداهما و ازن بها قصيدة صرّدرّ الشاعر، و قد ذكرت منها أبياتا فى ترجمة الكندرىّ و أوّلها:

أكذا يجازى ودّ كلّ قرين أم هذه شيم الظّباء العين

ثم ذكر قصيدة سبط [بن] التّعاويذىّ. و هى على هذا الوزن أضربت عن ذكرها لطولها. ثم قال ابن خلّكان: و أمّا القصيدة الثانية (يعنى التى كتبها إليه الخليفة فى أوائل أمر صلاح الدين) قال: فمنها قوله:

حتّام أرضى فى هواك و تغضب و إلى متى تجنى علىّ و تعتب

ما كان لى لو لا ملالك زلّة لمّا مللت زعمت أنّى مذنب

خذ فى أفانين الصدود فإنّ لى قلبا على العلّات لا يتقلّب

أ تظنّنى أضمرت بعدك سلوة هيهات عطفك من سلوّى أقرب

لى فيك نار جوانح ما تنطفى حزنا و ماء مدامع ما ينضب

أنسيت أيّاما لنا و لياليا للّهو فيها و البطالة ملعب

أيام لا الواشى يعدّ ضلالة و لهى عليك و لا العذول يؤنّب

قد كنت تنصفنى المودّة راكبا فى الحبّ من أخطاره ما أركب

و اليوم أقنع أن يمرّ بمضجعى فى النوم طيف خيالك المتأوّب

ما خلت أنّ جديد أيّام الصّبا يبلى و لا ثوب الشّبيبة يسلب

حتّى انجلى ليل الغواية و اهتدى سارى الدجى و انجاب ذاك الغيهب

و تنافر البيض الحسان فأعرضت عنّى سعاد و أنكرتنى زينب

قالت و ريعت من بياض مفارقى و نحول جسمى بان منك الأطيب

إن تنكرى سقمى فخصرك ناحل أو تنكرى شيبى فثغرك أشنب

يا طالبا بعد المشيب غضارة من عيشه ذهب الزمان المذهب

أ تروم بعد الأربعين تعدّها وصل الدّمى هيهات عزّ المطلب

و القصيدة طويلة ذكرها ابن خلّكان، و قد نقلتها من خط عسر. ثم قال ابن خلّكان: و قد مدحه جميع شعراء عصره، فمنهم العلم الشّاتانىّ و اسمه الحسن- رحمه اللّه- مدحه بقصيدة أوّلها:

أرى النصر مقرونا برايتك الصّفرا فسرو املك الدنيا فأنت بها أحرى

و مدحه المهذّب أبو حفص عمر بن محمد بن علىّ بن أبى نصر المعروف بابن الشّحنة الموصلىّ الشاعر المشهور بقصيدته التى أوّلها:

سلام مشوق قد براه التشوّق على جيرة الحىّ الذين تفرّقوا

و عدد أبياتها مائة و ثلاثة عشر بيتا، و فيها البيتان السائران أحدهما:

و إنّى امرؤ أحببتكم لمكارم سمعت بها و الأذن كالعين تعشق

و قد أخذ هذا المعنى من قول بشّار بن برد، و هو:

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة و الأذن تعشق قبل العين أحيانا

و البيت الثانى من قول ابن الشّحنة المذكور.

و قالت لى الآمال إن كنت لا حقا بأبناء أيّوب فأنت الموفّق

قال: و مدحه ابن قلاقس و ابن الذّروىّ و ابن المنجّم و ابن سناء الملك و ابن الساعاتى و الإربلىّ و محمد بن إسماعيل بن حمدان.

انتهى ما أوردته من كلام ابن خلّكان و من كلام ابن شدّاد و ابن الأثير و ابن الجوزىّ و غيرهم باختصار.

و قال العلّامة أبو المظفّر فى تاريخه مرآة الزمان: «و لمّا كان فى سادس عشر صفر وجد السلطان كسلا و حمّ حمّى صفراويّة، ثم ذكر نحوا ممّا ذكره ابن شدّاد إلى أن قال: و أحضر الأفضل (يعنى ولده) الأمراء: سعد الدين مسعودا أخا بدر الدين مودود شحنة دمشق، و ناصر الدّين صاحب صهيون، و سابق الدين عثمان صاحب شيزر ابن الدايه، و ميمونا القصرىّ، و البكى الفارسى، و أيبك فطيس، و حسام الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۰

بشارة، و أسامة الحلبىّ و غيرهم، فاستحلفهم لنفسه. و كان عند السلطان أبو جعفر إمام الكلّاسة يقرأ القرآن، فلمّا انتهى إلى قوله تعالى: هُوَ اللَّهُ الَّذِى لا إِلهَ إِلَّا هُوَ عالِمُ الْغَيْبِ وَ الشَّهادَةِ، و كان قد غاب ذهنه فتح عينيه، و قال: صحيح. ثم قال أبو المظفّر: و غسّله ابن الدّولعىّ، و صلّى عليه القاضى محيى الدّين بن الزّكىّ. و بعث القاضى الفاضل له الأكفان و الحنوط من أجلّ الجهات. ثم قال: «و قال العماد الكاتب: دخلنا عليه ليلة الأحد للعيادة، و مرضه فى زيادة؛ و فى كلّ يوم تضعف القلوب، و تتضاعف الكروب؛ ثم انتقل من دار الفناء، إلى دار البقاء، سحر يوم الأربعاء؛ و مات بموته رجاء الرجال، و أظلم بغروب شمسه فضاء الإفضال. و رثاه الشعراء؛ فمن ذلك قول بعضهم:

شمل الهدى و الملك عمّ شتاته و الدهر ساء و أقلعت حسناته

بالله أين الناصر الملك الذى للّه خالصة صفت نيّاته

أين الذى [مذ] لم يزل مخشيّة مرجوّة رهباته و هباته

أين الذى كانت له طاعاتنا مبذولة و لربّه طاعاته

أين الذى ما زال سلطانا لنا يرجى نداه و تتّقى سطواته

أين الذى شرف الزمان بفضله و سمت على الفضلاء تشريفاته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۱

لا تحسبوه مات شخصا واحدا قد عمّ كلّ العالمين مماته

ملك عن الإسلام كان محاميّا أبدا لماذا أسلمته حماته

قد أظلمت مذ غاب عنّا دوره لمّا خلت من بدره داراته

دفن السماح فليس تنشر بعدما أودى إلى يوم النشور رفاته

الدين بعد أبى المظفّر يوسف أقوت قراه و أقفرت ساحاته

بحر خلا من وارديه و لم تزل محفوفة بوروده حافاته

من لليتامى و الأرامل راحم متعطّف مفضوضة صدقاته

لو كان فى عصر النّبىّ لأنزلت فى ذكره من ذكره آياته

بكت الصوارم و الصواهل إذ خلت من سلّها و ركوبها عزماته

يا وحشة الإسلام حين تمكّنت من كلّ قلب مؤمن روعاته

يا راعيا للدين حين تمكنت منه الذئاب و أسلمته رعاته

ما كان ضرّك لو أقمت مراعيا دينا تولّى مذ رحلت ولاته

فارقت ملكا غير باق متعبا و وصلت ملكا باقيا راحاته

فعلى صلاح الدين يوسف دائما رضوان ربّ العرش بل صلواته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۲

ذكر أولا السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- رحمه اللّه- كانوا ستة عشر ذكرا و ابنة واحدة، أكبرهم الأفضل علىّ، ولد بمصر سنة خمس و ستين يوم عيد الفطر. و أخوه لأبيه و أمّه الملك الظافر خضر، ولد بمصر سنة ثمان و ستين. و أخوهما أيضا لأبيهما و أمّهما قطب الدين موسى، ولد بمصر سنة ثلاث و سبعين. فهؤلاء الثلاثة أشقّاء. ثم الملك العزيز عثمان الذى ملك مصر بعد أبيه، ولد بها سنة سبع و ستين. و أخوه لأبيه و أمّه الأعز يعقوب، ولد بمصر سنة اثنتين و سبعين. و الملك الظاهر غازى صاحب حلب، ولد بمصر سنة ثمان و ستين. و أخوه لأبيه و أمّه الملك الزاهر داود، ولد بمصر سنة ثلاث و سبعين. و الملك المعز إسحاق، ولد سنة سبعين. و الملك المؤيّد مسعود، ولد بدمشق سنة إحدى و سبعين. و الملك الأشرف محمد، ولد بالشام سنة خمس و سبعين. و أخوه أيضا لأبيه و أمّه الملك المحسن أحمد، ولد بمصر سنة سبع و سبعين. و أخوه أيضا لأبيه و أمّه الملك الغالب ملكشاه، ولد بالشام سنة ثمان و سبعين. و أخوهم أيضا لأبيهم و أمّهم أبو بكر النصر، ولد بحرّان بعد وفاة أبيه سنة تسع و ثمانين. و البنت مؤنسة خاتون تزوّجها ابن عمّها الملك الكامل- الآتى ذكره- ابن الملك العادل و ماتت عنده.

و ملك بعد السلطان صلاح الدين مصر ابنه الملك العزيز عثمان الآتى ذكره إن شاء اللّه تعالى و ملك دمشق بعده ابنه الملك الأفضل علىّ، و ملك حلب ابنه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۳

الظاهر غازى كما كانوا أيام أبيهم. ثم وقع بين الملك العزيز و الأفضل أمور نذكرها فيما يأتى إن شاء اللّه تعالى. انتهت ترجمة السلطان صلاح الدين- رحمه اللّه-. و نذكر الآن ما وقع فى أيامه من الحوادث، و من توفّى من الأعيان فى زمانه على سبيل الاختصار على عادة هذا الكتاب. و باللّه المستعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۷]

السنة الأولى من ولاية الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ستين و خمسمائة. (أعنى سلطنته بعد موت العاضد العبيدىّ آخر خلفاء الفاطميّين بمصر). و أمّا وزارته فكانت قبل ذلك بمدّة من يوم مات عمّه الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن أيّوب فى يوم السبت ثانى عشر جمادى الآخرة سنة أربع و ستين و خمسمائة. و قد ذكرنا حوادث وزارته فيما مضى، و نذكر الآن من يوم سلطنته بعد الخليفة العاضد (أعنى حوادث سنة سبع و ستين و خمسمائة).

فيها خطب لبنى العباس بمصر و أبطل الخطبة لبنى عبيد حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة العاضد، و فى ترجمة صلاح الدين أيضا؛ و لمّا وقع ذلك كتب العماد الكاتب عن السلطان صلاح الدين لنور الدين الشهيد يخبره بذلك:

قد خطبنا للمستضىء بمصر نائب المصطفى إمام العصر

و لدينا تضاعفت نعم اللّ ه و جلّت عن كلّ عدّ و حصر

و استنارت عزائم الملك العا دل نور الدين الهمام الأغرّ

و فيها بعث الملك العادل نور الدين محمود المذكور بالبشارة للخليفة المستضىء على يد الشيخ شهاب الدين المطهّر بن شرف الدين بن أبى عصرون، فلمّا وصل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۴

شهاب الدين المذكور للخليفة قال فى المعنى ابن الحرستانىّ الشاعر المشهور قصيدة أوّلها:

جاء البشير فسرّ الناس و ابتهجوا فما على ذى سرور بعدها حرج

و خلع الخليفة على شهاب الدين المذكور. ثم بعث جواب الملك العادل على يد الخادم صندل و على يديه الخلع و التقاليد له، و فى الخلعة الطّوق و فيه ألف دينار و الفرجيّة و العمامة، ثم أرسل مع الخادم المذكور لصلاح الدين صاحب الترجمة خلعا دون خلع نور الدين. و بعث أيضا لنور الدين سيفا قلّده للشام، ثم سيفا آخر قلّده بمصر، و يكون صلاح الدين نائبه بمصر. و زيّنت بغداد و ضربت القباب لذلك.

و فيها وقعت الوحشة بين نور الدين و صلاح الدين. هذا لأمر ذكرناه فى أوائل ترجمة صلاح الدين، ثم سكن ذلك.

و فيها توفّى حسّان بن نمير الكلبىّ أبو النّدى الشاعر المشهور المعروف بعرقلة الدمشقىّ، و يقال له عرقلة من حاضرة دمشق، كان شيخا خليعا أعور مطبوعا لطيفا ظريفا، كان اختصّ بالسلطان صلاح الدين و له فيه مدائح، و له شعر رائق كثير. من ذلك قصيدته المشهورة:

كتم الهوى فوشت عليه دموعه من حرّ نار تحتويه ضلوعه

صبّ تشاغل بالربيع و زهره زمنا و فى وجه الحبيب ربيعه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۵

يا لائمى فيمن تمتّع وصله عن صبّه أحلى الهوى ممنوعه

كيف التخلّص إن تجنّى أو جنى و الحسن شىء ما يردّ شفيعه

شمس و لكن فى فؤادى حرّها بدر و لكن فى القباء طلوعه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۶۵

قال العواذل ما الذى استحسنته منه و ما يسبيك قلت جميعه

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن أحمد بن أحمد العلّامة أبو محمد المعروف بابن الخشّاب النحوىّ اللغوىّ حجّة العرب، برع فى فنون العلوم و انفرد بعلم النحو و العربيّة حتّى فاق أهل عصره.

و فيها توفّى عبد اللّه بن أحمد بن الحسين [بن أحمد بن الحسين] بن إسحاق أبو محمد الحميرىّ و يعرف بابن النّقّار الكاتب. ولد بطرابلس سنة تسع و سبعين و أربعمائة. و لمّا استولى الفرنج على طرابلس انتقل منها إلى دمشق؛ و كان شاعرا ماهرا. و من شعره- رحمه اللّه- القصيدة المشهورة التى أوّلها:

بادر إلى اللّذات فى أزمانها و اركض خيول اللّهو فى ميدانها

و استقبل الدنيا بصدر واسع ما أوسعت لك من رحيب مكانها

و له:

اللّه يعلم أنّنى ما خلته يصبو إلى الهجران حين و صلته

من منصفى من ظالم متعنّت يزداد ظلما كلّما حكّمته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۶

ملّكته روحى ليحفظ ملكه فأضاعنى و أضاع ما ملّكته

لا ذنب لى إلّا هواه لأنّه لمّا دعانى للسّقام أجبته

و فيها توفّى العاضد خليفة مصر، حسب ما ذكرناه فى ترجمته.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ أحمد بن محمد ابن علىّ الرّحبىّ الحرمىّ فى صفر. و أبو محمد عبد اللّه بن منصور بن الموصلىّ.

و أبو محمد عبد اللّه بن أحمد بن أحمد [بن أحمد] بن الخشّاب النحوىّ. و العاضد عبد اللّه بن يوسف بن الحافظ العبيدىّ فى المحرّم، و انقضت دولة الرّفض عن مصر.

و أبو الحسن علىّ بن عبد اللّه بن خلف بن النّعمة الأندلسىّ بسبتة فى رمضان.

و أبو المطهّر القاسم بن الفضل بن عبد الواحد الصّيدلانىّ بأصبهان فى جمادى الأولى، و قد نيّف على التسعين. و أبو المظفّر محمد بن أسعد [بن محمد بن نصر] بن حكيم العراقىّ الواعظ شيخ الحنفيّة بدمشق. و أبو المكارم المبارك بن محمد بن المعمّر البادرايىّ.

و أبو العلاء وجيه بن عبد اللّه السّقطىّ. و أبو بكر يحيى بن سعدون القرطبىّ الأزدىّ و نزيل الموصل يوم الفطر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۸]

السنة الثانية من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ستين و خمسمائة.

فيها سار الملك العادل نور الدين محمود صاحب دمشق إلى الموصل، و صلّى بالجامع الذى بناه وسط الموصل و تصدّق بمال عظيم.

و لمّا علم صلاح الدين صاحب الترجمة بتوجّهه إلى الموصل خرج بعساكره من مصر إلى الشام، و حصر الكرك و الشّوبك و نهب أعمالهما؛ ثم عاد لمّا بلغه عود نور الدين إلى الشام. و هذه أوّل غزوات صلاح الدين.

و فيها توفّى الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان والد صلاح الدين المذكور. كان أميرا عاقلا حازما شجاعا جوادا عاطفا على الفقراء و المساكين محبّا للصالحين، قليل الكلام جدّا لا يتكلّم إلّا لضرورة. و لمّا قدم مصر سأله ولده السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة أن يكون هو السلطان، فقال: أنت أولى. و كان سبب موته أنّه ركب يوما و خرج من باب النّصر يريد الميدان، فشبّ به فرسه فوقع على رأسه، فأقام ثمانية أيام و مات فى ليلة الثلاثاء السابع و العشرين من ذى الحجّة، و دفن إلى جانب أخيه أسد الدين شيركوه بن أيوب فى الدار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۸

السلطانية ثم نقلا بعد سنتين إلى مدينة النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم. و كان ابنه السلطان، صلاح الدين قد عاد من الكرك فبلغه خبر موته فى الطريق، فوجد عليه و تأسّف حيث لم يحضره. و خلّف من الذكور ستة: السلطان صلاح الدين يوسف، و أبا بكر العادل الآتى ذكره فى ملوك مصر، و شمس الدولة توران‌شاه و هو أكبر الجميع، و شاهنشاه، و سيف الإسلام طغتكين، و تاج الملوك بورى و هو الأصغر.

و فيها توفّى الحسن بن أبى الحسن صافى ملك النحاة مولى الحسين بن الأرموىّ التاجر البغدادىّ، قرأ النحو و أصول الدين و الفقه و الخلاف و الحديث و برع فى النحو وفاق أهل زمانه، و سافر البلاد و صنّف الكتب فى فنون العلوم، من ذلك «المقامات» التى من جنس «مقامات الحريرىّ»؛ و كان يقول: مقاماتى جدّ و صدق، و مقامات الحريرىّ هزل و كذب. قلت: و لكن بين ذلك أهوال.

و من مصنّفاته كتاب أربعمائة كراسة، سمّاها «التذكرة السفريّة».

و فيها توفى سعد الدين بن علىّ بن القاسم بن علىّ أبو المعالى الكتبىّ الحظيرىّ الحنفىّ، كان شاعرا فاضلا. و الحظيرة: قرية فوق بغداد و هى (بفتح الحاء المهملة و كسر الظاء المعجمة و سكون الياء المثناة من تحتها و بعدها راء) و إلى هذه القرية ينسب كثير من العلماء. و من شعر الحظيرىّ- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-:

صبح مشيبى بدا و فارقنى ليل شبابى فصحت وا قلقى

و صرت أبكى دما عليه و لا بدّ لصبح المشيب من شفق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۶۹

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى نجم الدين أيّوب بن شادى والد الملوك. و ملك النحاة أبو نزار الحسـن بن صافى البغدادىّ بدمشق.

و أبو جعفر محمد بن الحسن الصّيدلانىّ بأصبهان، و له خمس و تسعون سنة. و صالح ابن إسماعيل أبو طالب ابن بنت معافى المالكىّ مفتى الإسكندريّة- رحمه اللّه-.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۶۹]

السنة الثالثة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و ستّين و خمسمائة.

فيها كتب صـلاح الدين صاحب الترجمة لنور الدين يستأذنه فى إنفاذ جيش إلى اليمن فأذن له، فبعث صلاح الدين أخاه شمس الدولة توران شاه بن أيّوب، فسار إليها، و كان فيها عبـد النّبىّ بن مهدىّ من أصـحاب المصـريّين، و كان ظالما فاتكا، فحصـره شـمس الدولة توران شاه فى قصره بزبيد مدّة، حتّى طلب الأمان فأمّنه؛ فلمّا نزل إليه قيّده و وكّل به، و فتح صنعاء و حصون اليمن و المدائن، يقال: إنّه فتـح ثمانين حصـنا و مدينة و اسـتولى على أموالها و ذخائرها، و قتل عبد النّبىّ المذكور. و ولّى على زبيد سـيف الدولة مبارك بن منقذ، و عزّ الدّين عثمان بن الزّنجيلىّ على باقى البلاد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۰

و فيها قبض صـلاح الدين على جماعة من أعيان الدولة العبيديّة: مثل داعى الدّعاة، و عمارة اليمنىّ و غيرهما، بلغه أنّهم يجتمعون على إثارة الفتن، و اتّفقوا مع السّودان و كاتبوا الفرنج، فقتل داعى الدعاة، و صـلب عمارة اليمنىّ. قال القاضى شمس الدين ابن خلّكان: هو أبو محمد عمارة بن أبى الحسن على بن زيدان ابن أحمد بن محمد الحكمىّ اليمنىّ، الملقّب نجم الدين الشاعر؛ و هو من جبال اليمن من مدينة مرطان، بينها و بين مكّة من جهة الجنوب أحد عشر يوما. و كان فقيها فصيحا، أقام بزبيد مدّة يقرأ عليه مذهب الشافعىّ، و له فى الفرائض مصـنّف مشـهور باليمن، و مدح خلفاء مصر، فقرّبوه و أعطوه الأموال، فكان عندهم بمنزلة الوزير، و كان أيضا معظّما قبل ذلـك فى اليمن؛ ثم ظهرت أمور اقتضت خروجه منها، فقـدم إلى مصـر فى سـنة خمسـين و خمسـمائة. و قيل: إنّ سـبب قتله أنّه مـدح توران شاه، و حرّضه على أخذ اليمن بقصيدة أوّلها:

العلم مذ كان محتاج إلى العلم و شفرة السيف تستغنى عن القلم

إلى أن قال:

هذا ابن تومرت قد كانت بدايته كما يقول الورى لحما على وضم

و كان أوّل هذا الدّين من رجل سعى إلى أن دعوه سيّد الأمم

قال العماد الكاتب: اتّفقت لعمارة اتّفاقات: منها أنّه نسب إليه قول هـذا البيت فكان أحـد أسـباب قتله؛ و أفتى قضاة مصـر بقتله، و قيل: إنّه لمّا أمر صلاح الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۱

بصلبه، مرّوا به على دار القاضى الفاضل، فرمى بنفسه على بابه و طلب الدخول إليه ليستجير به فلم يؤذن له، فقال:

عبد الرحيم قد احتجب إنّ الخلاص من العجب

فصلب و هو صائم فى شهر رمضان.

و فيها توفّى السلطان الملك العادل نور الدين أبو القاسم محمود بن زنكى بن آق سنقر صاحب الشام و مصر المعروف بنور الدين الشهيد. قال ابن عساكر: «ولد سنة إحدى عشرة و خمسمائة، و كان معتدل القامة أسمر اللّون واسع الجبهة حسن الصورة، لحيته شعرات خفيفة فى حنكه، و نشأ على الخير و الصلاح. و كان زنكى يقدّمه على أولاده، و يرى فيه مخايل النّجابة. و فتح فى أيام سلطنته نيّفا و خمسين حصنا».

قلت: و مصر أيضا من جملة فتوحاته، و أيضا ما فتحه صلاح الدين من البلاد و الحصون هو شريكه فى الأجر و الثواب، و لولاه إيش كان صلاح الدين! حتّى ملك مصر من أيدى تلك الرافضة من بنى عبيد خلفاء مصر و قوّة بأسهم!. قلت:

و ترجمة الملك العادل طويلة، يضيق هذا المحلّ عن ذكرها، و أحواله أشهر من أن تذكر. غير أنّنا نذكر مرض موته و وفاته. و كان ابتداء مرضه أنّه ختن ولده الملك الصالح إسماعيل يوم عيد الفطر، فهنّىء بالعيد و الطهور، فقال العماد الكاتب- رحمه اللّه-:

عيدان فطر و طهر فتح قريب و نصر

كلاهما لك فيه حقّا هناء و أجر

فمرض بعد عوده من صلاة العيد بالخوانيق، و ما كان يرى الطبّ؛ على قاعدة الأتراك، فأشير عليه بالفصد فى أوّل مرضه فامتنع؛ و كان مهيبا فما روجع؛ فمات يوم الأربعاء حادى عشر شوّال، و دفن بالقلعة، ثم نقل إلى مدرسته التى أنشأها مجاورة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۲

الخوّاصين بدمشق. و عاش ثمانيا و خمسين سنة. و كانت سلطنته ثمانيا و عشرين سنة و ستة أشهر. و رثاه العماد الكاتب بعدّة مراث؛ من ذلك قوله:

يا ملكا أيّامه لم تزل لفضله فاضلة فاخره

ملكت دنياك و خلّفتها و سرت حتّى تملك الآخره

قال أبو اليسر شاكر بن عبد اللّه [التّنوخىّ المعرّىّ]: تعدّى بعض أمراء صلاح الدين بن أيّوب [على رجل] و أخذ ماله، فجاء إلى صلاح الدين فلم يأخذ له بيد؛ فجاء إلى قبر نور الدين و شقّ ثيابه، و حثا التراب على رأسه، و جعل يستغيث:

يا نور الدين أين أيّامك! و يبكى. فبلغ صلاح الدين فاستدعاه و أعطاه ماله، فازداد بكاؤه؛ فقال له صلاح الدين: ما يبكيك و قد أنصفناك؟ فقال: إنّما أبكى على ملك أنصفت ببركاته و بعد موته، كيف يأكله التراب و يفقده المسلمون!.

و تسلطن بعده ولده الملك الصالح إسماعيل و لم يبلغ الحلم. و قد مرّ من أخباره نبذة كبيرة فى ترجمة صلاح الدين.

الذى ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى النقيب أبو عبد اللّه أحمد [بن علىّ] بن المعمّر العلوىّ ببغداد فى جمادى الأولى. و الحافظ أبو العلاء الحسن بن أحمد الهمذانىّ العطّار المقرئ فى جمادى الأولى، و له إحدى و ثمانون سنة.

و دهبل بن علىّ [بن منصور بن إبراهيم بن عبد اللّه المعروف با] بن كارة الحنبلىّ.

و ناصح الدين سعيد بن المبارك بن الدهّان النحوىّ ببغداد، و له خمس و سبعون سنة.

و أبو تميم سلمان بن علىّ الرّحبىّ الخبّاز بدمشق. و عبد النبى بن المهدىّ صاحب اليمن،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۳

و كان باطنيّا استأصله أخو صلاح الدين. و أبو الحسن علىّ بن أحمد الكنانىّ القرطبىّ بفاس، و له ثلاث و تسعون سنة. و الفقيه عمارة بن علىّ بن زيدان اليمنىّ الشاعر؛ شنق فى جماعة سعوا فى إعادة الدولة العبيديّة. و السلطان نور الدين محمود بن زنكى الأتابكىّ بن آق سنقر التركىّ الملكشاهىّ فى شوّال، و له ثمان و خمسون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ستّ عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۰]

السنة الرابعة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبعين و خمسمائة.

فيها ملك السلطان صلاح الدين دمشق من الملك الصالح ابن الملك العادل نور الدين محمود، حسب ما ذكرناه فى ترجمته. و كان أخذه لدمشق بمكاتبة القاضى كمال الدين الشّهرزوريّ و [صدّيق] بن الجاوليّ و الأعيان، و كان بالقلعة ريحان الخادم، فعزم على قتاله، فجهّز إليه عسكر دمشق، و ركب صلاح الدين من الجسور، فالتقاه أهل دمشق بأسرهم و أحدقوا به، فنثر عليهم الدراهم و الدنانير، و دخل دمشق فلم يغلق فى وجهه باب و لا منعه مانع، فملكها عنايةً لا عنوةً.

و فيها استخدم صلاح الدين العماد الكاتب الأصبهانيّ، و سببه أنه التقى بالقاضى الفاضل و مدحه بأبيات منها:

عاينت طود سكينةً و رأيت شم س فضيلةً و وردت بحر فواضل

و رأيت سحبان البلاغة ساحبا ببيانه ذيل الفخار لوائل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۴

حلف [الحصافة] و الفصاحة و السما حة و الحماسة و التّقى و النّائل

بحر من الفضل الغزير خضمّه طامى العباب و ماله من ساحل

فى كفّه قلم يعجّل جريه ما كان من أجل و رزق آجل

أبصرت قسّا فى الفصاحة معجزا فعرفت أنّى فى فهاهة باقل

فدخل القاضى الفاضل على السلطان صلاح الدين و قال: غدا تأتيك تراجم الأعاجم، و ما يحلّها مثل العماد الكاتب. فقال: [مالى] عنك مندوحة، أنت كاتبى و وزيرى، و قد رأيت على وجهك البركة، فإذا استكبت غيرك تحدّث الناس؛ فقال الفاضل: هذا يحلّ التراجم، و ربّما أغيب أنا و لا أقدر على ملازمتك، فإذا غبت قام العماد الكاتب مقامى، و قد عرفت فضل العماد، و خدمته للدولة النورية، فاستكنبه.

و فيها توفّى السلطان أرسلان شاه بن طغرل [بن محمد] بن ملكشاه بن ألب أرسلان ابن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق السّلجوقيّ. و قام بعده فى الملك ابنه طغرل شاه، و كان صغير السّن، فتولّى تدبير ملكه محمد بن إيلدكز الأتابك و كان يلقّب بالبهلوان.

و فيها توفّى يحيى بن جعفر أبو الفضل زعيم الدّين، صاحب مخزن الخلفاء:

المقتفى و المستنجد و المستضىء، و ناب فى الوزارة، و تقلّب فى الأعمال نيّفا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۵

و عشرين سنة، و كان حافظا للقرآن فاضلا عارفا منصفا، محبّا للعلماء و الصالحين؛ و مات فى شهر ربيع الأوّل، و كانت جنازته مشهودة. قال العماد الكاتب: جلس يوما فى ديوان الوزارة فقام شهاب الدين بن الصّيفىّ فأنشده:

لكلّ زمان من أمائل أهله برامكة يمتارهم كلّ معسر

أبو الفضل يحيى مثل يحيى بن خالد يدا و أبوه جعفر مثل جعفر

ثم قام ثابت الواعظ- رحمه اللّه- فأنشد بديها:

و فى الجانب الشرقىّ يحيى بن جعفر و فى الجانب الغربىّ موسى بن جعفر

فذاك إلى اللّه الكريم شفيعنا و هذا إلى المولى الإمام المطهّر

(يعنى ساكن الجانب الشرقىّ صاحب الترجمة، و بالجانب الغربىّ موسى بن جعفر الصادق).

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى قاضى القضاة أبو طالب روح بن أحمد الحديثىّ، و له ثمان و ستّون سنة. و فخر النساء خديجة بنت أحمد النّهروانيّة فى شهر رمضان. و عبد اللّه [ابن عبد الصمد] بن عبد الرّزاق السّلمىّ العطّار. و أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد الطّوسىّ. و أبو عبد اللّه محمد بن عبد اللّه بن خليل القيسىّ مسند المغرب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۶

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۱]

السنة الخامسة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و سبعين و خمسمائة.

فيها عزل الخليفة المستضىء بالله الحسن صندل الخادم عن الأستاداريّة، و ضيّق على ولده الأمير أبى العبّاس أحمد، لأمر بلغه عنهما، و ولّى [ابن] الصاحب الأستاداريّة عوضا عن صندل المذكور.

و فيها و ثبت الإسماعيليّة على السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب و هو على اعزاز، جاءه ثلاثة فى زىّ الأجناد، فضربه واحد بسكّين فى رأسه فلم يجرحه و خدشت السكّين خدّه و قتل الثلاثة، فرحل صلاح الدين إلى حلب، فلمّا نزل عليها بعث إليه الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل نور الدين محمود أخته خاتون بنت نور الدين فى اللّيل، فدخلت عليه فقام قائما و قبّل الأرض لها و بكى على نور الدين؛ فسألته أن يردّ عليهم اعزاز، فأعطاها إيّاها، و قدّم لها من الجواهر و التّحف شيئا كثيرا؛ و اتّفق مع الملك الصالح أنّ من حماة و ما فتحه إلى مصر له، و باقى البلاد الحلبيّة للصالح.

و فيها قدم شمس الدولة توران شاه بن أيّوب أخو صلاح الدين من اليمن إلى دمشق فى سلخ ذى الحجّة.

و فيها فوّض سيف الدولة غازى أمر الموصل إلى مجاهد الدين قيماز الخادم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۷

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين الحافظ أبو القاسم الدمشقى المعروف بابن عساكر، مولده فى أوّل المحرم سنة تسع و تسعين و أربعمائة. كان أحد أئمة الحديث المشهورين، و العلماء المذكورين، سمع الكثير و سافر، و صنّف تاريخا لدمشق، و صنّف كتبا كثيرة، و كان إماما فى الفنون، فقيها محدّثا حافظا مؤرّخا.

قال العماد الكاتب: أنشدنى لنفسه بالمزّة:

أيا نفس و يحك جاء المشيب فماذا التّصابى و ما ذا الغزل

تولّى شبابى كأن لم يكن و جاء مشيبى كأن لم يزل

[كأنّى بنفسى على غرة و خطب المنون بها قد نزل]

فياليت شعرى ممّن أكون و ما قدّر اللّه لى فى الأزل

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ ثقة الدّين أبو القاسم علىّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عساكر فى رجب، و له ثلاث و سبعون سنة إلا شهرا. و مجد الدين أبو منصور محمد بن أسعد بن [محمد المعروف ب] حفدة الطّوسىّ العطّارىّ الشافعىّ الواعظ. و أبو حنيفة محمد بن عبيد اللّه الأصبهانىّ الخطيبىّ فى صفر. و أبو جعفر هبة اللّه بن يحيى بن البوقىّ الشافعىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و عشر أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۸

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۲]

السنة السادسة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و سبعين و خمسمائة.

فيها تزوّج السلطان صلاح الدين يوسف بالخاتون عصمة الدّين بنت الأمير معين الدين أنر زوجة الملك العادل نور الدين محمود، و كانت بقلعة دمشق.

و فيها كانت فتنة مقدّم السّودان من صعيد مصر، سار من الصعيد إلى مصر فى مائة ألف أسود، ليعيد الدولة المصريّة الفاطميّة، فخرج إليه أخو صلاح الدين الملك العادل أبو بكر، و أبو الهيجاء الهكّارىّ، و عزّ الدين موسك بمن معهم من عساكر مصر؛ و التقوا مع السّودان، فكانت بينهم وقعة هائلة، قتل كبير السودان المذكور و من معه. قال الشيخ شمس الدين يوسف فى مرآة الزمان: «يقال إنهم قتلوا منهم ثمانين ألفا و عادوا إلى القاهرة».

و فيها خرج السلطان صلاح من دمشق إلى مصر، و استناب أخاه شمس الدولة توران شاه على الشام. و جاءت الفرنج إلى داريّا، فأحرقوا و نهبوا و عادوا.

و فيها أمر السلطان صلاح الدين قراقوش الخادم بعمارة سور القاهرة و مصر، و ضيّع فيه أموالا كثيرة و لم ينتفع به أحد.

و فيها أبطل صلاح الدين المكوس التى كانت تؤخذ من الحاج بجدّة، ممّا يحمل فى البحر؛ و عوّض صاحب مكّة عنها فى كلّ سنة ثمانية آلاف اردبّ قمحا تحمل إليه فى البحر، [و يحمل مثلها] فتفرّق فى أهل الحرمين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۷۹

و فيها عمّر صلاح الدين مدرسة الشافعىّ بالقرافة، و تولّى الشيخ نجم الدين الخبوشانىّ عمارتها. و عمّر البيمارستان فى القصر، و وقف عليه الأوقاف.

و فيها حجّ بالناس من الشام قيماز النّجمىّ.

و فيها توفّى علىّ بن منصور أبو الحسن السّيروجىّ الأديب، مؤدّب أولاد الأتابك زنكى بن آق سنقر، كان يأخذ الماء بفيه و يكتب به على الحائط كتابة حسنة كأنّها كتبت بقلم الطومار، و ينقط ما يكتب و يشكله. و من شعره فى فصل الربيع و فضل دمشق، و مدح نور الدين قصيدة طنّانة أوّلها:

فصل الربيع زمان نوره نور أنفاس أشجاره مسك و كافور

و فيها توفّى محمد بن مسعود أبو المعالى، خرج إلى الحجّ فى هذه السنة فتوفّى يفند، كان أديبا فاضلا. و من شعره هجو فى قاض ولى القضاء:

و لمّا [أن] تولّيت القضايا و فاض الجور من كفّيك فيضا

ذبحت بغير سكّين و إنّى لأرجو الذبح بالسّكّين أيضا

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن القاسم أبو الفضل كمال الدين الشهرزورىّ قاضى دمشق. مولده فى سنة اثنتين و تسعين و أربعمائة، كان إماما فاضلا فقيها مفتنّا، كان إليه فى أيّام نور الدين الشهيد مع القضاء أمر المساجد و المدارس و الأوقاف و الحسبة، و الأمور الدينيّة و الشرعيّة. و كان صاحب القلم و السيف، و كانت شحنجية دمشق إليه، ولّى فيها بعض غلمانه؛ ثم ولّاها نور الدين بعد ذلك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۰

لصلاح الدين يوسف بن أيّوب قبل قدومه إلى مصر. و كان مع فضله و دينه له الشعر الجيّد، و كان بينه و بين صلاح الدين يوسف بن

أيّوب، صاحب الترجمة فى أيام نور الدين مضاغنة. و من شعره:

و جاءوا عشاء يهرعون و قد بدا بجسمى من داء الصبابة ألوان

فقالوا و كلّ معظم بعض ما رأى أصابتك عين قلت عين و أجفان

قلت: و هذا شبه قول القائل و لم أدر من السابق:

و لمّا رأونى العاذلون متيّما كئيبا بمن أهوى و عقلى ذاهب

رثوا لى و قالوا كنت بالأمس عاقلا أصابتك عين قلت عين و حاجب

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو [محمد] صالح ابن المبارك بن الرّخلة القزّاز. و المحدّث أبو [محمد] عبد اللّه بن عبد الرحمن الأموىّ الدّيباجىّ الأصبهانىّ العثمانىّ الإسكندرانىّ. و أبو الحسن علىّ بن عساكر. و أبو بكر محمد بن أحمد بن ماه شاده الأصبهانىّ المقرئ، آخر من روى عن سليمان الحافظ.

و قاضى الشام كمال الدين أبو الفضل محمد بن عبد اللّه بن القاسم بن المظفّر الشّهرزورىّ فى المحرّم. و القاضى أبو الفتح نصر بن سيّار بن صاعد الكتّانىّ الهروىّ الحنفىّ مسند خراسان يوم عاشوراء، و له سبع و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۳]

السنة السابعة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة.

فيها توفّى صدقة بن الحسين بن الحسن أبو الفرج الناسخ الحنبلىّ، كان يعرف بابن الحدّد، كان فقيها مفتّنا مناظرا. قال أبو المظفّر: لكنّه قرأ «الشفاء» و كتب الفلاسفة، فتغيّر اعتقاده، و كان يبدو من فلتات لسانه ما يدلّ على ذلك. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

لا توطّنها فليست بمقام و اجتنبها فهى دار الانتقام

أ تراها صنعة من صانع أم تراها رمية من غير رام

و فيها توفّى كمشتكين خادم السلطان نور الدين الشهيد. كان من أكابر خدّامه (أعنى مماليكه)، و كان ولّاه الموصل نيابة عنه. فلمّا مات نور الدين هرب إلى حلب، و خدم شمس الدين ابن الدايه، ثم جاء إلى الملك الصالح ابن نور الدين الشهيد فأعطاه حارم، ثم غضب عليه لأمر و طلب منه قلعة حارم بعد أن قبض عليه، فامتنعوا أصحابه من تسليمها، فعلّقه الملك الصالح منكّسا، و دخّن تحت أنفه حتّى مات.

و فيها توفّى محمد بن عبد اللّه بن هبة اللّه بن المظفّر، الوزير أبو الفرج ابن رئيس الرؤساء، و لقبه عضد الدولة. و كان أبوه أستادار المقتفى و أقرّه المستنجد. فلمّا ولى المستضىء استوزره، فشرع ظهير الدين [بن العطّار] أبو بكر صاحب المخزن فى عداوته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۲

حتّى غيّر قلب الخليفة عليه، فطلب الحجّ فأذن له، فتجهّز جهازا عظيما و اشترى ستّمائة جمل لحمل المنقطعين و زادهم، و حمل معه جماعة من العلماء و الزهّاد، و أخذ معه بيمارستانا فيه جميع ما يحتاج إليه، و سافر بتجمّل زائد. فلمّا وصل إلى باب قطفتا خرج إليه رجل صوفىّ بيده قصّة، فقال: مظلوم! فقال الغلمان: هات قصّتك. فقال: ما أسلّمها إلّا للوزير. فلمّا دنا منه ضربه بسكّين فى خاصرته، فصاح: قتلتنى، و سقط من دابّته، و بقى على قارعة الطريق ملقى، و تفرّق من كان معه إلّا حاجب الباب، فإنّه رمى بنفسه عليه، فضربه الباطنىّ بسكّين فجرحه، و ظهر للباطنىّ رفيقان فقتلوا و أحرقوا. ثم حمل الوزير إلى داره فمات بها. و كان مشكور السّيرة محبّبا إلى

الرعيّة، غير أنّ القاضى الفاضل لمّا بلغه خبر قتله، أنشد:

و أحسن من نيل الوزارة للفتى حياة تريه مصرع الوزراء

و ما ربّك بظلّام للعبيد. كان- عفا اللّه عنه- قد قتل ولدى الوزير ابن هبيرة و خلقا كثيرا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الوزير أبو الفرج محمد بن عبد اللّه ابن رئيس الرؤساء، و ثبت عليه الإسماعيليّة فى ذى القعدة. و هارون ابن العبّاس أبو محمد بن المأمونىّ صاحب التاريخ. و أبو شاكر يحيى بن يوسف السّقلاطونىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۴]

السنة الثامنة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و سبعين و خمسمائة.

فيها جرى بحث فى مجلس ظهير الدين بن العطّار [صاحب المخزن]، فى قتال عائشة لعلىّ. فقال ابن البغدادىّ الحنفىّ: كانت عائشة باغية على علىّ، فصاح عليه ابن العطّار و أقامه من مكانه و أخبر الخليفة، فجمع الفقهاء و سأل: ما يجب عليه؟ فقالوا: يعزّر. فقال ابن الجوزىّ: لا يجب عليه التعزير، لأنّه رجل ليس له علم بالنّقل، و قد سمع أنّه جرى قتال و لم يعلم أنّ السفهاء أثاروه بغير رضا الفريقين، و تأديبه العفو عنه، فأطلق.

و فيها توفّى سعد بن محمد بن سعد أبو الفوارس شهاب الدين [بن] الصّيفىّ التّميمىّ، المعروف بالحيص بيص، كان شاعرا فاضلا، مدح الخلفاء و الوزراء و الأكابر، و له ديوان شعر، و كانت وفاته ببغداد فى شعبان. و سبب تسميته بالحيص بيص أنّه رأى الناس فى يوم حركة فقال: ما للناس فى حيص بيص! فغلب عليه هذا اللّقب. و معنى هاتين الكلمتين: الشدّة و الاختلاط. تقول العرب: وقع الناس فى حيص بيص [أى فى شدّة و اختلاط]. و من شعر الحيص بيص- رحمه اللّه و عفا عنه-:

لم ألق مستكبرا إلّا تحوّل لى عند اللقاء له الكبر الذى فيه

و لا حلا لى من الدنيا و لذّتها إلّا مقابلتى للتّيه بالتّيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۴

و كان الحيص بيص يلبس زىّ العرب، و يتقلّد سيفا، فعمل فيه أبو القاسم ابن الفضل:

كم تنادى و كم تطوّل طرطو رك ما فيك شعرة من تميم

فكل الضّبّ و اقرض الحنظل [اليا بس] و اشرب ما شئت بول الظليم

ليس ذا وجه من يضيف و لا يقرى و لا يدفع الأذى عن حريم

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو أحمد أسعد بن بلدرك الجبريلىّ البوّاب. و الحيص بيص الشاعر شهاب الدين أبو الفوارس سعد ابن محمد بن سعد بن صيفىّ التّميمىّ فى شوّال. و فخر النساء شهدة بنت أحمد ابن الفرج الإبرىّ فى المحرّم، و قد جاوزت التسعين. و أبو رشيد عبد اللّه بن عمر الأصبهانىّ فى شهر ربيع الآخر. و أبو نصر عبد الرحيم بن عبد الخالق اليوسفىّ.

و أبو الخطّاب عمر بن محمد التاجر بدمشق. و أبو عبد اللّه محمد بن نسيم العيشونىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۵]

السنة التاسعة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و سبعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۵

فيها ختن السلطان صلاح الدين ولده الملك العزيز عثمان.

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستضىء بأمر اللّه أبو محمد الحسن بن يوسف المستنجد بن المقتفى محمد العباسىّ الهاشمىّ البغدادىّ. كان أحسن الخلفاء سيرة، كان إماما عادلا شريف النفس حسن السيرة ليس للمال عنده قدر، حليما شفيقا على الرعيّة، أسقط المكوس و الضرائب فى أيّام خلافته، و كانت وفاته ببغداد فى ثانى ذى القعدة عن ستّ و ثلاثين سنة، و كانت خلافته تسع سنين. و هو الذى عادت الخطبة باسمه فى الديار المصريّة و البلاد الشاميّة و الثغور، و اجتمعت الأمّة على خليفة واحد، و انقطع فى أيّامه دولة بنى عبيد الفاطميّين الرافضة من مصر و أعمالها.

و للّه الحمد. و أمّه أمّ ولد مولّدة.

و فيها توفّيت الزاهدة العابدة علم بنت عبد اللّه بن المبارك. كانت تضاهى رابعة العدويّة فى زمانها، مرض ولدها أحمد بن الزّبيدىّ فاحتضر، و جاء وقت الصلاة، فقالت: يا بنى، ادخل فى الصلاة، فدخل و كبر و مات، فخرجت إلى النساء و قالت: هنّيننى! قلن ما ذا؟ قالت: ولدى مات فى الصلاة. فتعجّب الناس من ذلك. و كانت وفاتها ببغداد، و عمرها مائة سنة و ستّ سنين، و لم يتغيّر لها شىء من حواسّها.

و فيها توفّى منصور بن نصر بن الحسين الرئيس ظهير الدين صاحب المخزن للخلفاء، و نائب الوزارة. نال من الوجاهة و الرياسة ما لم ينله غيره من أطباقه، إلى أن قبض عليه الخليفة الناصر لدين اللّه، و على أصحابه و حواشيه، و صادره و أجرى عليه العقوبة إلى أن مات.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۶

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة قال: و فيها توفّى أبو الفتح أحمد بن أبى الوفاء الحنبلىّ بحرّان. و المستضىء بأمر اللّه أبو محمد الحسن بن المستنجد يوسف ابن المقتفى فى شوّال. و أبو الحسين عبد الحقّ بن عبد الخالق اليوسفىّ فى جمادى الأولى. و أبو الفضل عبد الحسن بن تريك الأزجىّ. و أبو الحسن علىّ بن أحمد الزّيدىّ المحدّث الزاهد. و أبو المعالى علىّ بن هبة اللّه [بن علىّ] بن خلدون. و القاضى أبو المحاسن عمر بن علىّ القرشى عمّ كريمة. و أبو هاشم عيسى بن أحمد الهاشمىّ الدّوشابىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و سبع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۶]

السنة العاشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و سبعين و خمسمائة.

فيها قدمت امرأة إلى القاهرة عديمة اليدين، و كانت تكتب برجليها كتابة حسنة، فحصل لها القبول التام، و نالها مال جزيل.

و فيها حجّ من العراق الأمير طاشتكين، و من الشام الأمير سيف الدين علىّ بن المشطوب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۷

و فيها توفّى أحمد بن محمد بن أحمد الحافظ أبو طاهر السّلفىّ الأصبهانىّ، ولد سنة سبعين و أربعمائة، و كان طاف الدنيا و لقى

المشايخ، و كان يمشى حافيا لطلب العلم و الحديث، و قدم دمشق و غيرها، و سمع بعدّة بلاد، ثم دخل مصر و سمع بها، و استوطن الإسكندريّة حتى مات بها فى يوم الجمعة خامس شهر ربيع الآخر، و دفن داخل الإسكندرية و قد جاوز المائة بخمس سنين. و من شعره فى معنى كبر سنّه:

أنا إن بان شبابى و مضى فلربّى الحمد ذهنى حاضر

و لئن خفّت و جفّت أعظمى كبرا غصن علومى ناضر

و فيها توفّى الملك المعظّم فخر الدين شمس الدولة توران شاه بن أيّوب أخو السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة لأبيه. كان أكبر من صلاح الدين فى السنّ، و كان يرى فى نفسه أنّه أحقّ بالملك من صلاح الدين يوسف المذكور، و كان تبدو منه كلمات فى سكره فى حقّ صلاح الدين، و يبلغ صلاح الدين، فأبعده و بعثه إلى اليمن، فسفك الدماء و قتل الأمائل و أخذ الأموال. و لم يطب له اليمن فعاد إلى الشام على مضض من صلاح الدين، فأعطاه بعلبكّ فبلغه عنه أشياء فأبعده إلى الإسكندريّة، فتوجّه إليها و أقام بها معتكفا على اللهو، و لم يحضر حروب أخيه صلاح الدين و لا غزواته؛ و مات بالإسكندريّة، فأرسلت أخته شقيقته ستّ الشام، فحملته فى تابوت إلى دمشق فدفنته فى تربتها التى أنشأتها بدمشق. و كان توران شاه المذكور جوادا ممدّحا حسن الأخلاق؛ إلّا أنّه كان أسوأ بنى أيّوب سيرة و أقبحهم طريقة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۸

و فيها توفّى الملك غازى بن مودود بن زنكى بن آق سنقر التركىّ سيف الدين صاحب الموصل و ابن أخى السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد. كان غازى من أحسن الناس صورة، و كان وقورا عاقلا غيورا، ما يدع خادما بالغا يدخل داره على حرمه، و كان طاهر اللّسان عفيفا عن أموال الناس، قليل السفك للدماء، مع شحّ كان فيه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو طاهر أحمد بن محمد السّلفىّ فى شهر ربيع الآخر، و قد جاوز المائة بيقين. و شمس الدولة توران شاه بن أيّوب بن شادى صاحب اليمن بالإسكندرية فى صفر. و أبو المعالى عبد اللّه بن عبد الرحمن [بن أحمد بن علىّ] بن صابر السلمىّ فى رجب. و أبو المفاخر سعيد بن الحسين المأمونىّ. و أبو الفهم عبد الرحمن بن عبد العزيز بن محمد الأزدىّ ابن أبى العجائز فى جمادى الآخرة. و أبو الحسن علىّ بن عبد الرحيم بن العصّار السّلمىّ البغدادىّ اللغوىّ فى المحرّم. و صاحب الموصل سيف الدين غازى بن مودود ابن اتابك فى صفر، و له ثلاثون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۷]

السنة الحادية عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و سبعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۸۹

فيها عاد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب الترجمة من دمشق إلى القاهرة، و استناب على الشام [ابن] أخيه عزّ الدين فرخشاه.

و فيها أمر السلطان صلاح الدين أخاه سيف الإسلام طغتكين بالمسير إلى اليمن، فأخذ يتجهّز للمسير.

و فيها بعث السلطان صلاح الدين الخادم بهاء الدين قراقوش إلى اليمن، فتوجّه و قبض على سيف الدولة مبارك بن كامل بن منقذ، و طلب منه المال؛ و كان نائب أخيه توران شاه.

و فيها بنيت قلعة الجبل بالقاهرة.

و فيها توفّى الملك الصالح إسماعيل ابن الملك العادل نور الدين محمود بن زنكى ابن آق سنقر صاحب حلب بمرض القولنج، و كان لمّا اشتدّ به مرض القولنج وصف له الحكماء قليل خمر، فقال: لا أفعل حتّى أسأل الفقهاء. فسأل الشافعيّة فأفتوه بالجواز فلم يقبل، و قال: إن اللّه تعالى قرّب أجلى، أ يؤخّره شرب الخمر! قالوا: لا. قال: فو اللّه لا لقيت اللّه و قد فعلت ما حرّم علىّ، فمات و لم يشر به.

و لمّا أشرف على الموت أحضر الأمراء و استحلفهم لابن عمّه عزّ الدين [مسعود ابن مودود] صاحب الموصل؛ فقيل له: لو أوصيت لابن عمك عماد الدين صاحب سنجار! فإنّه صعلوك ليس له غير سنجار، و هو تربية أبيك و زوج أختك،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۰

و شجاع كريم، و عزّ الدين له من الفرات إلى همذان؛ فقال: هذا لم يخف عنىّ، و لكن قد علمتم استيلاء صلاح الدين على الشام، [سوى ما بيدى]، و مصر و اليمن، و عماد الدين لا يثبت له إذا أراد أخذ البلاد؛ و عزّ الدين له العساكر و الأموال فهو أقدر على حفظ حلب و أثبت من عماد الدين، و متى ذهبت حلب ذهب الجميع؛ فاستحسنوا قوله.

قلت: و لم يخطر ببال أحد أخذ صلاح الدين بن أيّوب الشام من الملك الصالح هذا قبل تاريخه، فإنّه كان غرس نعمة أبيه الملك العادل، فلم يلتفت صلاح الدين للأيادى السالفة، و انتهز الفرصة حيث أمكنته، و قاتل الملك الصالح هذا حتّى أخذ منه دمشق، فلهذا صار عند الصالح كمين من صلاح الدين.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن محمد [بن عبيد اللّه] بن أبى سعيد أبو البركات الأنبارىّ النحوىّ، مصنّف كتاب «الأسرار فى علم العربيّة» و كتاب «هداية الذاهب فى معرفة المذاهب». كان إماما فى فنون كثيرة مع الزهد و الورع و العبادة، و كانت وفاته فى شعبان.

و فيها توفّى عمر بن حموّيه عماد الدين والد شيخ الشيوخ صدر الدين و تاج الدين، و هو من ولد حموّيه بن علىّ الحاكم على خراسان إمام السامانيّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة فى كتاب الإشارة، قال: و فيها توفّى الملك الصالح إسماعيل ابن السلطان نور الدين بحلب فى رجب، و له ثمانى عشرة سنة.

و الكمال أبو البركات عبد الرحمن بن محمد الأنبارىّ النحوىّ العبد الصالح. و شيخ الشيوخ أبو الفتوح عمر بن علىّ الجوينىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۸]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و سبعين و خمسمائة.

فيها سار سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح الدين من مصر إلى اليمن إلى أن نزل زبيد، و بها حطّان [بن منقذ الكنانىّ]، فأمره أن يسير إلى الشام، فجمع أمواله و ذخائره و نزل بظاهر زبيد فقبض عليه سيف الإسلام، و أخذ جميع ما كان معه، و قيمته ألف ألف دينار، ثم قتله بعد ذلك. و كان عثمان الزنجبيلىّ بعدن، فلمّا بلغه ذلك سافر إلى الشام بعد أن أثّر باليمن آثارا كبيرة و وقف الأوقاف؛ و له مدرسة أيضا بمكّة، و رباط بالمدينة و غيرها.

و فيها فى خامس المحرّم خرج صلاح الدين من مصر فنزل البركة قاصدا الشام، و خرج أعيان الدولة لوداعه، و أنشده الشعراء أبياتا فى الوداع، فسمع قائلا يقول فى ظاهر المخيّم:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۲

تمتّع من شميم عرار نجد فما بعد العشيّة من عرار

فطلب القائل فلم يجده. فوجم الناس و تطيّر الحاضرون، فكان كما قال.

قلت: و قول من قال، فكان كما قال، ليس بشىء، فإنّ صلاح الدين عاش بعد ذلك نحو العشر سنين، غير أنّه ما دخل مصر بعدها فيما أظنّ، فإنّه اشتغل بفتح الساحل و قتال الفرنج، كما تقدّم ذكره فى ترجمته.

و فيها توفّى أحمد بن علىّ بن أحمد الشيخ أبو العبّاس المعروف بابن الرّفاعىّ، إمام وقته فى الزهد و الصلاح و العلم و العبادة. كان من الأفراد الذين أجمع الناس على علمه و فضله و صلاحه. كان يسكن أمّ عبيدة بالعراق، و كان شيخ البطائحة، و كان له كرامات و مقامات، و أصحابه يركبون السّباع و يلعبون بالحيّات، و يتعلّق أحدهم فى أطول النخل ثم يلقى نفسه إلى الأرض و لا يتألّم، و كان يجتمع عنده كلّ سنة فى المواسم خلق عظيم. قال الشيخ شمس الدين يوسف فى تاريخه مرآة الزمان:

«حكى لى بعض أشياخنا قال: حضرت عنده ليلة نصف شعبان، و عنده نحو من مائة ألف إنسان قال: فقلت له: هذا جمع عظيم، فقال لى: حشرت محشر هامان إن خطر ببالى أنّى مقدّم هذا الجمع. قال: و كان متواضعا سليم الصدر مجرّدا من الدنيا ما ادّخر شيئا قطّ». انتهى.

قلت: و علم الشيخ أحمد بن الرفاعىّ و فضله و ورعه أشهر من أن يذكر، و هو أكثر الفقراء أتباعا شرقا و غربا، و الأعاجم يسمّونه: سيّدى أحمد الكبير، و قيل:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۳

إنّ سبب مرضه الذى مات منه، أنّ عبد الغنىّ بن محمد بن نقطة الزاهد مضى إلى زيارته، فأنشد أبياتا منها:

إذا جنّ ليلى هام قلبى ذكركم أنوح كما ناح الحمام المطوّق

و فوقى سحاب يمطر الهمّ و الأسى و تحتى بحار بالأسى تتدفّق

سلوا أمّ عمرو كيف بات أسيرها تفكّ الأسارى دونه و هو موثق

فلا هو مقتول ففى القتل راحة و لا هو ممنون عليه فيعتق

و كانت وفاة الشيخ أحمد فى يوم الخميس ثانى عشر جمادى الأولى، و قد جاوز سبعين سنة.

و فيها توفّى الأمير فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب أبو سعد عزّ الدين. كان من الأماثل الأفاضل، كان متواضعا سخيّا جوادا شجاعا مقداما، و كان عمّه صلاح الدين قد استنابه بالشام، و كان فصيحا شاعرا. مات بدمشق فى جمادى الأولى. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

أقرضونى زمنا قرّبهم و استعادوا بالنّوى ما أقرضوا

أنا راض بالذى يرضيهم ليت شعرى بالتلاقى هل رضوا؟

و فيها توفّى الأمير يوسف بن عبد المؤمن بن علىّ أبو يعقوب صاحب المغرب، أمير الموحّدين. كان حسن السيرة عادلا ديّنا ملازما للصلوات الخمس، لا بسا للصوف، مجاهدا فى سبيل اللّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۴

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ الكبير أبو العبّاس أحمد بن علىّ بن أحمد الرفاعىّ بالبطائح. و أبو طالب الخضر بن هبة اللّه بن أحمد بن طاوس فى شوّال. و الحافظ أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود بن موسى ابن بشكوال الأنصارىّ القرطبىّ فى شهر رمضان، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو طالب أحمد بن المسلم بن رجاء اللّخمىّ التّنوخىّ فى شهر رمضان بالإسكندريّة. و خطيب الموصل أبو الفضل عبد اللّه بن أحمد بن محمد الطّوسىّ فى شهر رمضان عن اثنتين و تسعين سنة. و عزّ الدين فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب نائب دمشق فى جمادى الأولى. و القطب النّيسابورىّ أبو المعالى مسعود بن محمد بن مسعود شيخ الشافعيّة فى آخر شهر رمضان. و أبو محمد هبة اللّه بن محمد بن هبة اللّه الشّيرازىّ بدمشق فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۷۹]

السنة الثالثة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و سبعين و خمسمائة.

فيها فى يوم الأحد عاشر المحرّم تسلّم السلطان صلاح الدين آمد من ديار بكر، و دخل إليها و جلس فى دار الإمارة، ثم سلّمها و أعمالها إلى نور الدين محمد بن قرا أرسلان صاحب حصن كيفا، و كان قد وعده بها لمّا جاء إلى خدمته. ثم عاد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۵

إلى حلب و حاصرها حتى أخذها من عماد الدين زنكى ابن أخى نور الدين الشهيد، و بذل له عوضها سنجار، و عمل الناس فى ذلك أشعارا كثيرة، منها:

و بعت بسنجار خير القلاع ثكلتك من بائع مشترى

و كان فى أيّام حصار حلب أصاب تاج الملوك بورى بن أيّوب سهم فى عينه فمات بعد أيّام، فحزن أخوه السلطان صلاح الدين عليه حزنا شديدا، و كان يبكى و يقول:

ما وفت حلب بشعرة من أخى تاج الملوك بورى. و خرج عماد الدين من حلب و سار إلى سنجار. و لمّا طلع صلاح الدين إلى قلعة حلب فى سلخ صفر [أنشدنا] القاضى [محيى الدين بن] زكىّ الدين محمد بن علىّ القرشىّ قاضى دمشق أبياتا منها:

و فتحه حلبا بالسيف فى صفر مبشّر بفتوح القدس فى رجب

فكان كما قال، لكن بعد سنين؛ و هو الذى [خطب] بالقدس لمّا فتحه صلاح الدين فى رجب.

و فيها توفّى محمد بن بختيار الأديب، أبو عبد اللّه المولّد المعروف بالأبله البغدادىّ الشاعر المشهور، كان شاعرا ماهرا جمع فى شعره بين الصناعة و الرقّة.

و من شعره:

زار من أحيا بزورته و الدّجى فى لون طرّته

قمر يثنى معاطفه بانة فى ثنى بردته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۶

بتّ أستجلى المدام على غرّة الواشى و غرّته

يا لها من زورة قصرت فأماتت طول جفوته

يا له فى الحسن من صنم كلّنا فى جاهليّته

و له قصيدة طنّانة أولها:

دعنى أكابد لوعتى و أعانى أين الطّليق من الأسير العانى

و فيها توفّى الملك تاج الملوك بورى بن أيّوب بن شادى أبو سعيد أخو السلطان صلاح الدين من سهم أصابه فى حصار حلب كما تقدّم ذكره. كان مولد تاج الملوك فى ذى الحجّة سنة ستّ و خمسين و خمسمائة، و كان قد جمع فيه محاسن الأخلاق: من مكارم و شيم و لطف طباع، مع شجاعة و فضل و فصاحة، و كان شاعرا بليغا. و من شعره:

رمضان بل مرضان إلّا أنّهم غلطوا إذا فى قولهم و أساءوا

مرضان فيه تخالفا فنهاره سلّ و أما ليله استسقاء

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى إسـماعيل بن قاسم الزّيات بمصـر. و تقيّـة بنت [غيث بن] علىّ الأرمنازيّة الشاعرة. و أبو الفتـح عبـد اللّه بن أحمـد الأصـبهانىّ الخرقىّ فى رجب، و له تسع و ثمانون سـنة. و محمـد بن بختيار البغـدادىّ الشاعر المعروف بالأبله. و أبو العلاء محمـد بن جعفر بن عقيل، و له ثلاث و تسـعون سـنة. و أبو طالب محمـد بن علىّ الكتّانىّ المحتسب. و العلّامة رضىّ الدين يونس بن محمد بن منعة فقيه الموصل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۷

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و إحدى و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۰]

السنة الرابعة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمانين و خمسمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق طاشتكين.

و فيهـا توفّى إيلغـازى بن ألبى بن تمرتاش بن إيلغازى بن أرتق قطب الـدين صاحب ماردين، كانت وفاته فى جمادى الآخرة. و خلّف ولدين صغيرين. و كان ملكا شجاعا عادلا منصفا عاقلا.

و فيها توفّى عبد الرحيم بن إسماعيل بن أبى سعد شيخ الشيوخ صدر الدين و ابن شيخ الشيوخ النّيسابورىّ. ولد سنة ثمان و خمسمائة، و كان فاضـلا رسولا بين الخليفـة و صـلاح الـدين، و كان يلبس الثياب الفاخرة، و يتخصّص بالأطعمة الطّيبة، فكان أهل بغداد يعيبون عليه حيث لم يسلك طريق المشايخ فى التعفّف عن الدنيا، و لمّا مات رثاه ابن المنجّم المصرىّ:

يا أخلّائى و حقّكم ما بقى من بعدكم فرح

أىّ صدر فى الزمان لنا بعد صدر الدين ينشرح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۸

و تولّى مشيخة الرّباط بعده الشيخ صفىّ الدين إسماعيل.

و فيها توفّى محمـد بن قرا أرسـلان نور الـدين صاحب حصن كيفا؛ الـذى كان أعطاه السـلطان صـلاح الـدين آمـد. و ترك ابنه ظهير الدين سكمان صغيرا، عمره عشر سنين.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى صدر الدين عبد الرحيم بن إسـماعيل بن أبى سـعد شيخ الشيوخ فى رجب بالرّحبة راجعا فى الرسليّة.

و أبو عبـد اللّه محمـد بن حمزة بن أبى الصّقر القرشـىّ. و أبو الوفا محمود بن أبى القاسم [عمر] الأصـبهانىّ فى شـهر ربيع الآخر، و له إحـدى و سـبعون سـنة. أجاز له طرّاد [الزّينبى النّقيب] و سـمع من أبى الفتـح [أحمـد بن محمـد] البيود رحانىّ. و صاحب المغرب أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن شهيدا على حصار شنترين بالأندلس فى رجب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۱]

السنة الخامسة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ثمانين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۹۹

فيها قطع السلطان صلاح الدين الفرات و نزل على الموصل و افتتح عدّة بلاد.

و فيها توفّى عبد السلام بن يوسف بن محمد الأديب أبو الفتوح الجماهرىّ.

كان فاضلا شاعرا. و من شعره من قصيدة:

على ساكنى بطن العقيق سلام و إن أسهرونى بالفراق و ناموا

حرمتم علىّ النوم و هو محلّل و حلّلتم التعذيب و هو حرام

ألا يا حمامات الأراك إليكم فمالى فى تغريدكنّ مرام

فوجدى و شوقى مسعد و مؤانس و نوحى و دمعى مطرب و مدام

و فيها توفّيت عصمة الدين خاتون بنت معين الدين أنر زوجة السلطان صلاح الدين صاحب الترجمة، تزوّجها بعد زوجها الملك العادل نور الدين الشهيد.

كانت من أعفّ الناس و أكرمهنّ، كان لها صدقات كثيرة و برّ عظيم؛ بنت بدمشق مدرسة للحنفيّة فى حجر الذهب، و رباطا للصوفيّة، و بنت تربة بقاسيون على نهر بردى، و بها دفنت؛ و أوقفت على هذه الأماكن أوقافا كثيرة. و ماتت فى رجب، فبلغ صلاح الدين موتها و هو مريض بحرّان فتزايد مرضه لموتها و لحزنه عليها. ثم مات بعدها أخوها سعد الدين مسعود بن أنر فى هذه السنة، و كان من أكابر الأمراء، زوّجه صلاح الدين أخته ربيعة خاتون. فلمّا توفّى تزوّجها بعده الأمير مظفّر الدين بن زين الدين.

و فيها توفّى محمد ابن الملك المنصور أسد الدين شيركوه بن شادى الأمير ناصر الدين ابن عمّ السلطان صلاح الدين. كان السلطان صلاح الدين يخافه لأنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۰

كان يدّعى أنّه أحقّ بالملك منه. و كان السلطان صلاح الدين يبلغه عنه هذا، و كان زوج أخت السلطان صلاح الدين ستّ الشام بنت أيّوب. و مات بحمص فى يوم عرفة، و تناثر لحمه حتّى قيل إنّه سمّ، و قيل: مات فجأة، فنقلته زوجته ستّ الشام إلى تربتها، و دفنته عند أخيها الملك المعظّم توران شاه بن أيّوب المقدّم ذكره. و لمّا بلغ صلاح الدين موته أبقى على ولده أسد الدين شيركوه بن محمد المذكور ما كان بيد والده: حمص و تدمر و الرّحبة و سلمية، و خلع عليه و كتب منشورا بذلك.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن فتح الدين البغدادىّ الحنفىّ، كان فقيها شاعرا أديبا.

و من شعره فى مليح عليه قباء كمّه مطرّز:

ضممت معذّبى لمّا أتانى و رقم طرازه قد راق عينى

فياطرزيه هل يدنى زمانى ليالى وصلنا بالرّقمتين

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو الطاهر إسماعيل ابن مكّىّ [بن إسماعيل بن عيسى] بن عوف الزّهرىّ شيخ المالكيّة بالثغر فى شعبان.

و صاحب أذربيجان البهلوان [محمد] بن إيلدكز. و الشيخ حياة بن قيس الحرّانىّ العابد فى جمادى الأولى. و أبو اليسر شاكر بن عبد اللّه بن محمد التّنوخىّ كاتب نور الدين. و المهذّب عبد اللّه بن أسعد [بن علىّ] بن الدهّان الموصلىّ الشافعىّ النحوىّ الشاعر فى شعبان بحمص. و الحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن عبد الرحمن الأزدىّ الإشبيلىّ فى شهر ربيع الآخر ببجاية، و له سبعون سنة. و الحافظ أبو زيد عبد الرحمن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۱

ابن عبد اللّه السّهيلىّ المالقىّ الأديب فى شعبان. و عبد الرازق بن نصر بن المسلم النجّار الدمشقىّ. و أبو الفتح [عبيد اللّه بن] عبد اللّه

[ابن محمد بن نجا] بن شاتيل الدبّاس فى رجب، و له تسعون سنة. و أبو الجيوش عساكر بن علىّ المقرئ بمصر. و أبو حفص عمر بن عبد المجيد الميانشىّ بمكّة. و أبو المجد الفضل بن الحسين البانياسىّ فى شوّال.

و صاحب حمص ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه. و الحافظ أبو سعد محمد بن عبد الواحد الصائغ بأصبهان فى ذى القعدة.

و الحافظ العلّامة أبو موسى محمد بن أبى بكر عمر بن أبى عيسى المدينىّ فى جمادى الأولى، و له ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۲]

السنة السادسة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و ثمانين و خمسمائة.

فيها حكم المنجّمون فى الآفاق بخراب العالم فى جمادى الآخرة، و قالوا: تقترن الكواكب السيّارة: الشمس و القمر و زحل و المرّيخ [و الزّهرة] و عطارد و المشترى فى برج الميزان أو السّرطان، فتؤثّر تأثيرا يضمحلّ به العالم، و تهبّ سموم محرقة تحمل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۲

و ملا أحمر، فاستعدّ الناس و حفروا السراديب و جمعوا فيها الزاد. و انقضت المدّة المعيّنة، و ظهر كذب المنجّمين. فقال [أبو الغنائم محمد] بن المعلّم فى أبى الفضل المنجّم قصيدة طنّانة:

قل لأبى الفضل قول معترف مضى جمادى و جاءنا رجب

و ما جرت زعزع كما حكموا و لا بدا كوكب له ذنب

و منها:

مدبّر الأمر واحد ليس للسب عة فى كلّ حادث سبب

لا المشترى سالم و لا زحل باق و لا زهرة و لا قطب

و منها:

فليبطل المدّعون ما وضعوا فى كتبهم و لتحرق الكتب

قلت: و هذا الكذب متداول بين القوم إلى زماننا هذا، حتّى إنّه لا يمضى شهر إلّا و قد أوعدوا الناس بشىء لا حقيقة له. و العجب أنّ الشخص من العامّة إذا كذب مرّة على رجل يستحى و لا يعود إلى مثلها، و هؤلاء القوم لا عرض لهم و لا دين و لا مروءة. و للّه درّ القائل و لم أدر لمن هو:

دع النجوم لصوفىّ يعيش بها و بالعزائم فانهض أيّها الملك

إنّ النّبىّ و أصحاب النبى نهوا عن النجوم و قد أبصرت ما ملكوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۳

و فيها عاد السلطان صلاح الدين إلى الشام و تلقّاه شيركوه بن محمد بن شيركوه و أخته سفرى خاتون أولاد ابن عمّه محمد بن أسد الدين شيركوه و زوجته ستّ الشام، و هى أخت السلطان صلاح الدين؛ فقال السلطان لأخيه العادل أبى بكر بن أيّوب: اقسم التركة بينهم على فرائض اللّه تعالى. و كان محمد قد خلّف أموالا عظيمة، فكان مبلغ التركة ألف ألف دينار.

و فيها دخل سيف الإسلام أخو صلاح الدين إلى مكّة، و منع من الأذان فى الحرم ب «حىّ على خير العمل».

و فيها قسّم السلطان صلاح الدين يوسف البلاد بين أهله و ولده برأى القاضى الفاضل، فأعطى مصر لولده العزيز عثمان؛ و الشام لولده

الأفضل؛ و حلب لولده الظاهر؛ و أعطى أخاه العادل أبا بكر إقطاعات كثيرة بمصر، و جعله أتابك العزيز؛ و أعطى لابن أخيه تقيّ الدين حماة و المعرّة و منبج و أضاف إليه ميّافارقين.

و فيها توفّى الحسن بن علىّ بن بركة أبو محمد المقرئ النحوىّ، كان إماما فاضلا انتفع بعلمه خلائق كثيرة، و كان أديبا بارعا و مات فى شوّال. و من شعره:

و ما شنآن الشّيب من أجل لونه و لكنّه حاد إلى الموت مسرع

إذا ما بدت منه الطّليعة آذنت بأنّ المنايا بعدها تتطلّع

و فيها توفّى عبد اللّه [بن برّىّ] بن عبد الجبّار المعروف بآبن برّىّ النحوىّ بمصر، كان إماما أديبا فاضلا بارعا فى علم النحو و العربيّة، و انتفع به خلق كثير، و مات بمصر فى شوّال. و كان حجّة ثقة. و من شعره- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۴

خدّ و ثغر فجلّ ربّ بمبدع الحسن قد تفرّد

فذا عن الواقدىّ يروى و ذاك يروى عن المبرّد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو محمد عبد اللّه ابن برّى النحوىّ بمصر فى شوّال، و له ثلاث و ثمانون سنة. و أبو محمد عبد اللّه بن محمد بن جرير القرشىّ الناسخ ببغداد. و أبو محمد الحسن بن علىّ [بن بركة] بن عبيدة الكوفىّ النحوىّ المقرئ فى شوّال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۳]

السنة السابعة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و ثمانين و خمسمائة.

فيها فتح السلطان صلاح الدين بيت المقدس و عكّا و حصونا كثيرة بالساحل، بعد أمور و حروب ذكرناها فى ترجمته.

و فيها توفّى علىّ بن أحمد بن علىّ بن محمد قاضى القضاة أبو الحسن بن الدامغانىّ الحنفىّ قاضى قضاة بغداد. قال أبو المظفّر: قاضى ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى ابن قاضى. ولد سنة ثلاث عشرة و خمسمائة، و ولّاه الخليفة المقتفى القضاء بمدينة السلام و سائر البلاد مشرقا و مغربا، و أقرّه المستنجد ثم عزله؛ ثم أعاده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۵

المستضىء سنة سبعين و خمسمائة؛ ثم أقرّه الناصر لدين اللّه تعالى إلى أن توفّى ببغداد فى ذى القعدة و دفن بالشّونيزيّة عند جدّه لأمّه أبى الفتح الشاوى. و كان إماما فقيها عالما نزها عفيفا معدودا من كبار فقهاء السادة الحنفية- رحمه اللّه تعالى-.

و فيها توفّى محمد بن عبد الملك بن المقدّم الأمير شمس الدين، كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين، ثم صلاح الدين يوسف بن أيّوب. و له المواقف المشهودة، و حضر جميع فتوحات السلطان صلاح الدين، ثم إنّه استأذن صلاح الدين فى الحجّ فأذن له على كره من مفارقته؛ فلمّا وصل إلى عرفات أراد أن يرفع علم صلاح الدين و يضرب الطّبل، فمنعه طاشتكين و قال: لا يرفع هنا سوى علم الخليفة.

فقال ابن المقدّم هذا: و السلطان مملوك الخليفة. فمنعه طاشتكين، فأمر ابن المقدّم غلمانه فرفع العلم فنكّسوه، فركب ابن المقدّم و من معه، و ركب طاشتكين له، و اقتتلوا فقتل من الفريقين، و رمى مملوك طاشتكين ابن المقدّم بسهم فوقع فى عينه فخرّ صريعا، و جاء

طاشتكين و حمله إلى خيمته فتوفّى فى يوم الخميس يوم النحر و دفن بالمعلى. ثم أرسل الخليفة يعتذر لصلاح الدين أنّ ابن المقدّم كان الباغى، فلم يقبل صلاح الدين، و قال: أنا الجواب عن الكتاب. و لو لا اشتغاله بالجهاد لكان له و للخليفة شأن.

و فيها توفّى محمد بن عبيد اللّه الأديب أبو الفتح البغدادىّ، المعروف بسبط [ابن] التّعاويذىّ. الشاعر المشهور. و له ديوان شعر كبير، الموجود غالبه فى المديح.

و من شعره- رحمه اللّه- فى غير المديح، فى الزهد:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۶

اجعل همومك واحدا و تخلّ عن كلّ الهموم

فعساك أن تحظى بما يغنيك عن كلّ الهموم

و له:

فكم ليلة قد بتّ أرشف ريقه و جرت على ذاك الشّنيب المنضّد

و بات كما شاء الغرام معانقى و بتّ و إيّاه كحرف مشدّد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى شيخ الفتوى عبد الجبّار بن يوسف ببغداد. و المحدّث أبو العزّ عبد المغيث بن زهير الحربىّ.

و قاضى القضاة أبو الحسن علىّ بن أحمد ابن قاضى القضاة علىّ بن محمد بن الدامغانىّ الحنفىّ. و أبو الفتح محمد بن يحيى بن محمد بن مواهب البردانىّ. و الأمير الكبير شمس الدين محمد [بن عبد الملك] بن المقدّم النّورىّ، قتل بعرفات. و أبو السعادات نصر اللّه بن عبد الرحمن بن محمد [يعرف] بابن زريق القزّاز فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و تسعون سنة. و شيخ الحنابلة ناصح الدين أبو الفتح نصر بن فتيان [بن مطرّف المعروف با] بن المنّى فى رمضان عن إحدى و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۴]

السنة الثامنة عشرة من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و ثمانين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۷

فيها توفّى الأمير أسامة بن مرشد بن علىّ بن المقلّد بن نصر بن منقذ الأمير أبو الحارث مؤيّد الدولة مجد الدين الكنانىّ. مولده بشيزر فى سنة ثمان و ثمانين و أربعمائة، و كانت له اليد الطّولى فى الأدب و الكتابة و الشعر، و كان فارسا شجاعا عاقلا مدبّرا، كان يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب الجاهليّة، و طاف البلاد ثم استوطن حماة فتوفّى فيها فى شهر رمضان، و قد بلغ ستا و تسعين سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۱۰۷

له ديوان شعر مشهور، و كان السلطان صلاح الدين مغرى بشعره. و من شعره فى قلع الضّرس:

و صاحب لا أملّ الدهر صحبته يشقى لنفعى و يسعى سعى مجتهد

لم ألقه مذ تصاحبنا فمذ وقعت عينى عليه افترقنا فرقة الأبد

و قال فى أيّام الملك العادل نور الدين الشهيد:

سلطاننا زاهد و الناس قد زهدوا له فكلّ على الخيرات منكمش

أيّامه مثل شهر الصّوم طاهرة من المعاصى و فيها الجوع و العطش

و فيها توفّى مجاهد الدين خالص بن عبد اللّه الناصرىّ خادم الخليفة الناصر لدين اللّه، كان قريبا من الخليفة سلّم إليه مماليكه الخواص؛ و كان سليم الباطن ديّنا، صلى به إمامه صلاة الفجر فقرأ الإمام فيها: إِنَّ اللَّهَ وَ مَلائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِ فلمّا سمع خالص ذلك رفع صوته و هو فى الصلاة و قال: صلّى اللّه عليك يا رسول اللّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۸

فضحك القوم و قطعوا الصلاة. فقال لهم خالص المذكور: مجانين أنتم! يقول اللّه:

صَلُّوا عَلَيْهِ وَ سَلِّمُوا تَسْلِيماً و أسكت أنا!

و فيها توفّى محمد بن محمد بن عبد اللّه بن القاسم بن المظفّر بن علىّ؛ أبو حامد محيى الدين الشّهرزورىّ الإمام الفقيه؛ ولى القضاء بالموصل، و قدم بغداد رسولا من صاحب الموصل، فأكرمه الخليفة و خلع عليه. ثم عاد فمات فى جمادى الأولى.

و من شعره:

و لمّا شاب رأس الدهر غيظا لما قاساه من فقد الكرام

أقام يميط عنه الشيب عمدا و ينشر ما أماط على الأنام

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الأمير مؤيّد الدولة أبو المظفر أسامة بن مرشد بن علىّ بن مقلّد بن نصر بن منقذ الكنانىّ فى شهر رمضان عن سبع و تسعين سنة. و ظاعن بن محمد الزّبيرىّ الخيّاط. و أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد بن عبد اللّه [بن يوسف بن أبى عيسى القاضى] بن حبيش الأنصارىّ بمرسية، و كان خطيبها و قاضيها و محدّثها و مسندها، توفّى فى صفر. و أبو القبائل ابن علىّ عن مائة سنة و زيادة. و العلّامة شمس الأئمّة عماد الدين عمر بن شمس الأئمّة بكر بن محمد الزّرنجرىّ البخارىّ شيخ الحنفيّة فى شوّال، و له خمس و ستون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۰۹

و أبو عبد اللّه محمد بن علىّ بن محمد بن الحسن بن صدقة الحرّانىّ التاجر، و له سبع و تسعون سنة. و الحافظ أبو بكر محمد بن موسى بن عثمان الحازمىّ الهمذانىّ فى جمادى الأولى شابّا، و له خمس و ثلاثون سنة. و أبو الفرج يحيى بن محمود الثّقفىّ الصّوفىّ فى نواحى همذان غريبا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و اثنتا عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۵]

السنة التاسعة عشرة من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و ثمانين و خمسمائة.

فيها ولّى السلطان صلاح الدين على عكّة حسام الدين بشارة، و ولّى على عمارة سورها الخادم بهاء الدين قراقوش.

و فيها توفّى الأمير طمان بن عبد اللّه النّورىّ صاحب الرّقّة، كان شجاعا جوادا محبّا للخير كثير الصدقات يحبّ الفقهاء و العلماء، بنى مدرسة بحلب للحنفيّة. و كانت وفاته فى ليلة نصف شعبان؛ و حزن السلطان صلاح الدين عليه و المسلمون لحرصه على الجهاد و لمواقفة المشهودة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن محمد بن هبة اللّه بن المطهّر بن علىّ أبو سعد بن أبى السّرىّ التّميمىّ الموصلىّ القاضى شرف الدين بن أبى عصرون. كان إماما فاضلا مصنّفا، و كان خصيصا بالملك العادل نور الدين، ثم اقتضى به السلطان صلاح الدين، و ولى القضاء بعدّة

بلاد و ضرّ قبل وفاته بعشر سنين. و من شعره قوله:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۰

كلّ جمع إلى الشتات يصير أىّ صفو ما شانه التكدير

أنت فى اللّهو و الأمانى مقيم و المنايا فى كلّ وقت تسير

و فيها توفّى الفقيه عيسى الهكّارىّ ضياء الدين، حضر فتح مصر مع أسد الدين شيركوه، و هو الذى مشى بين الأمراء و بين السلطان صلاح الدين لمّا ولى وزارة العاضد بعد موت عمّه أسد الدين شيركوه، حسب ما تقدّم ذكره حتّى تمّ أمره.

ثمّ حضر مع السلطان صلاح الدين فتح القدس و الغزوات، و كان صلاح الدين يميل إليه و يستشيره، و كأنّ اللّه قد أقامه لقضاء حوائج الناس و التفريج عن المكروبين مع الورع و العفّة و الدين- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الأمير موسك بن جكو [ابن] خال صلاح الدين. كان حافظا للقرآن سامعا للحديث، و كان محسنا إلى الناس ملازما للسلطان فى غزواته، و كان ديّنا صالحا جوادا، مرض بمرج عكّا فأمره السلطان أن يمضى إلى دمشق ليتطبّب بها، فتوجّه إلى دمشق و مات بها- رحمه اللّه-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العبّاس التّرك أحمد بن أحمد بن محمد بن ينّال شيخ الصوفيّة بأصبهان و مسندها فى شعبان. و أبو الحسين أحمد بن حمزة الموازينىّ فى المحرّم. و قاضى القضاة شرف الدين أبو سعد عبد اللّه ابن محمد بن أبى عصرون التّميمىّ الموصلىّ فى رمضان. و أبو الفضل عبد المجيد بن [الحصينىّ بن يوسف بن الحسن بن أحمد بن] دليل الإسكندرانىّ المعدّل. و شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۱

الشافعيّة أبو طالب المبارك بن المبارك [بن المبارك] الكرخىّ صاحب ابن الخلّ.

و أبو المعالى [و أبو النجاح] منجب بن عبد اللّه المرشدىّ الخادم فى المحرّم. و الحافظ يوسف بن أحمد الشّيرازىّ ثم البغدادىّ الصوفىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۶]

السنة العشرون من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و ثمانين و خمسمائة.

فيها ملك سيف الإسلام أخو السلطان صلاح الدين صنعاء من بلاد اليمن.

و فيها حجّ بالناس من العراق طاشتكين المذكور فى السنة الماضية.

و فيها توفّى مسعود [بن علىّ] بن عبيد اللّه أبو الفضل بن النادر الصفّار الأديب الشاعر، كان بارعا فى الأدب، و كتب خطّا حسنا نحوا من مائة ربعة. و من شعره قوله:

تولّوا فأولوا الجسم من بعدهم ضنا و حراّ شديدا فى الحشا يتزايد

و زاد بلائى بالذين أحبّهم و للناس فيما يذهبون مقاصد

و فيها توفّى يوسف بن علىّ بن بكتكين الأمير زين الدين صاحب إربل.

كان قدم إلى السلطان صلاح الدين نجدة فمرض و مات، و فرح بموته أخوه مظفّر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۲

الدين، و تولّى إربل مكانه من قبل السلطان صلاح الدين. و كان زين الدين أميرا كبيرا شجاعا مقداما مدبرا.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو المواهب الحسن بن هبـة اللّه بن محفوظ بن صصـرى التّغلبىّ الدمشقىّ، و له تسع و اربعون سنة.

و أبو الطيّب عبد المنعم بن يحيى [بن خلف بن نفيس] بن الخلوف الغرناطىّ المقرئ.

و أبو عبـد اللّه محمد بن سـعيد [بن أحمد بن عبد العزيز بن عبد البرّ بن مجاهد المعروف ب] ابن زرقون الإشبيلىّ المالكىّ المسـند. و أبو بكر محمـد بن عبـد اللّه بن يحيى بن الفرح بن الجـدّ الفهرىّ الحافظ بإشبيليـة. و قاضـى القضاة محيى الـدين أبو حامـد محمد ابن قاضى القضاة كمال الدين بن الشّهرزورىّ، و له اثنتان و ستون سنة. ولى حلب ثم الموصل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۷]

السنة الحادية و العشرون من ولاية السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ثمانين و خمسمائة.

فيها كان استيلاء الفرنج على عكّا، كما تقدّم فى ترجمة السلطان صلاح الدين من هذا الكتاب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۳

و فيها توفّى الموفّق أسـعد بن [إلياس بن جرجس] المطران الطبيب. كان نصـرانيّا فأسـلم على يد السـلطان، و كان غزير المروءة حسـن الأخلاق كريم العشـرة. و كان يصـحبه صبىّ حسن الصورة اسمه عمر. و كان الموفّق يحبّ أهل البيت و يبغض ابن عنين الشاعر لخبث لسانه، و كان يحرّض السلطان صلاح الدين عليه و يقول له:

أليس هذا هو القائل:

سلطاننا أعرج و كاتبه أعمش و الوزير منحدب

فهجاه ابن عنين بقوله:

قالوا الموفّق شيعىّ فقلت لهم هذا خلاف الذى للناس منه ظهر

فكيف يجعل دين الرّفض مذهبه و ما دعاه إلى الإسلام غير عمر

و فيها توفّى سليمان بن جندر. كان من أكابر أمراء حلب، و مشايخ الدولتين:

النّوريّة و الصلاحيّة، شهد مع السلطان صلاح الدين حروبه كلّها، و هو الذى أشار بخراب عسقلان مصلحة للمسلمين. و مات فى أواخر ذى الحجّة.

و فيها توفّى عمر بن شاهنشاه بن أيّوب الملك المظفّر تقىّ الدين. قد ذكرنا من أمره: أنّ عمّه السـلطان صلاح الدين كان أعطاه حماة، و عـدّة بلاـد من حمـاة إلى ديـاربكر، فطمع فى ملكـة الشـرق فنفرت عنه و عن عمّه صـلاح الـدين القلوب لعظم طمعهما. و وقع لتقىّ الدين هذا مع بكتمر [بن عبد اللّه مملوك شاه أرمن] صاحب خلاط وقائع و حروب، فمات تقىّ الدين بتلك البلاد، فكتم محمد ولده موته، و حمله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۴

إلى ميّافارقين، فـدفن بها. و كانت وفاته يوم الجمعـة عاشـر شـهر رمضان، ثم بنيت له مدرسـة بظاهر حماة، فنقل إليها. و كان السـلطان صلاح الدين يكره ابنه محمدا فأخذ منه بلاد أبيه، و أبقى معه حماة لا غير. و لقّب محمد هذا بالملك المنصور. و هو أبو ملوك حماة

من بنى أيّوب الآتى ذكرهم. و كان تقىّ الدين شجاعا مقداما شاعرا فاضلا، عاشر العلماء و الأدباء و تخلّق بأخلاقهم، و له ديوان شعر.

و من شعره:

يا ناظريه ترفّقا ما فى الورى لكما مبارز

هبكم حجبتم أن أرا ه فهل لقلب الصّب حاجز

و فيها توفّى يحيى السّهروردىّ المقتول بحلب، كان يعانى علوم الأوائل و المنطق و السيمياء و أبواب النّيرنجيّات، فاستمال بذلك خلقا كثيرا و تبعوه، و له تصانيف فى هذه العلوم. و اجتمع بالملك الظاهر ابن السلطان صلاح الدين صاحب حلب، فأعجب الظاهر كلامه و مال إليه. فكتب أهل حلب إلى السلطان صلاح الدين:

أدرك ولدك و إلّا تتلف عقيدته؛ فكتب إليه أبوه صلاح الدين بإبعاده فلم يبعده، فكتب بمناظرته، فناظره العلماء فظهر عليهم بعبارته، فقالوا: إنّك قلت فى بعض تصانيفك: إنّ اللّه قادر على أن يخلق نبيّا، و هذا مستحيل. فقال: ما وجه استحالته؟

فإنّ اللّه القادر هو الذى لا يمتنع عليه شىء. فتعصّبوا عليه، فحبسه الظاهر و جرت بسببه خطوب و شناعات. و كان السّهروردىّ ردىء الهيئة، زرىّ الخلقة، دنس الثياب، و سخ البدن، لا يغسل له ثوبا و لا جسما، و لا يقصّ ظفرا و لا شعرا، فكان القمل يتناثر على وجهه، و كان من رآه يهرب منه لسوء منظره، و قبح زيّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۵

و طال أمره إلى أن أمر السلطان بقتله فقتل فى يوم الجمعة منسلخ ذى الحجّة من هذه السنة، أخرج من الحبس ميّتا. و ممّا ينسب إليه من الشعر القصيدة التى أوّلها:

أبدا تحنّ إليكم الأرواح و وصالكم ريحانها و الراح

و قلوب أهل ودادكم تشتاقكم و إلى كمال جمالكم ترتاح

و قال السيف الآمدىّ: اجتمعت بالسّهروردىّ بحلب، فقال لى: لا بدّ أن أملك الأرض. فقلت: من أين لك هذا؟ فقال رأيت فى المنام أنّى شربت ماء البحر؛ فقلت: لعلّ ذلك يكون اشتهار العلم فلم يرجع؛ فرأيته كثير العلم قليل العقل. و يقال: إنّه لمّا تحقّق القتل كان كثيرا ما ينشد:

أرى قدمى أراق دمى و هان دمى فهاندمى

و الأوّل قول أبى الفتح البستى و هو قوله:

إلى حتفى سعى قدمى أرى قدمى أراق دمى

فلا أنفك من ندم و ليس بنافعى ندمى

و فيها توفّى الشيخ نجم الدين الخبوشانىّ. قال صاحب المرآة: «قدم إلى الديار المصريّة و أظهر الناموس و تزهّد، و كان يركب الحمار فيقف على السلطان صلاح الدين و أهله. و أعطاه السلطان مالا فبنى به المدرسة التى بجانب الشافعىّ- رحمة اللّه عليه-. و كان كثير الفتن- منذ دخل مصر إلى أن مات- ما زالت الفتنة قائمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۶

بينه و بين الحنابلة [و] ابن الصابونىّ و زين الدين بن نجيّة، يكفّرونه و يكفرهم؛ و كان طائشا متهوّرا، نبش على ابن الكيزانىّ و أخرج عظامه من عند الشافعىّ، و قد تقدّم ذلك. و كان يصوم و يفطر على خبز الشعير، فلمّا مات وجد له ألوف الدنانير، و بلغ صلاح الدين فقال: يا خيبة المسعى! و مات فى صفر. و تولّى بعده- تدريس مدرسة الشافعىّ التى بناها- شيخ الشيوخ صدر الدين ابن حمّويه».

انتهى كلام صاحب المرآة باختصار بعد أن ثلب الخبوشانىّ المذكور بمساوئ أضربت عن ذكرها- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى الفقيه أبو محمد عبد الرحمن بن علىّ الحرقىّ اللّحمىّ فى ذى القعدة، و له

ثمان و ثمانون سنة. و أبو المعالى عبد المنعم بن عبد اللّه بن محمد الفراوىّ فى شعبان. و صاحب حماة المظفّر عمر بن شاهنشاه بن أيّوب. و نجم الدين محمد بن الموفّق الخبوشانىّ الشافعى الزاهد. و الشهاب السّهروردىّ الفيلسوف. و يعقوب بن يوسف الحربىّ المقرئ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۷

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۸]

اشارة

السنة الثانية و العشرون من ولاية صلاح الدين يوسف بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة.

فيها توفّى سنان بن سليمان، صاحب الدعوة بقلاع الشام. كان أصله من البصرة من حصن ألموت، فرأى منه صاحب الأمر بتلك البلاد نجابة و شهامة و عقلا و تدبيرا، فسيّره إلى حصون الشام، فسار حتّى وصل إلى البلاد الشاميّة، و كان فيه معرفة و سياسة. و جدّ فى إقامة الدعوة و استجلاب القلوب، و كان مجيئه إلى الشام فى أيّام السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. فجرت له معه حروب و خطوب، و استولى سنان هذا على عدّة قلاع و أقام واليا ثلاثين سنة و البعوث ترد عليه فى كلّ قليل من قبل نور الدين. ثم إنّ السلطان نور الدين عزم على قصده فتوفّى. و أقام سنان على ذلك إلى أن توفّى ببلاد الشام فى هذه السنة.

و فيها توفّى علىّ بن أحمد الأمير سيف الدين بن المشطوب ملك الهكّاريّة.

و كان أميرا شجاعا صابرا فى الحروب مطاعا فى قبيلته، دخل مع أسد الدين شيركوه إلى مصر فى مرّاته الثلاث، ثم عاد بعد سلطنة صلاح الدين إلى البلاد الشاميّة، فدام بها إلى أن مات فى آخر شوّال. و قال ابن شدّاد: مات بالقدس و صلّى عليه بالجامع الأقصى.

و فيها توفّى السلطان قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان بن سليمان بن قتلمش بن إسرائيل بن سلجوق، الملك عزّ الدين السلجوقىّ صاحب بلاد الروم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۸

طالت أيّامه و اتّسعت ممالكه. و لمّا أسنّ أصابه الفالج فتعطّلت حركته، و تنافس أولاده فى الملك، و حكم عليه ولده قطب الدين ملكشاه، و قتل كثيرا من خواصّه فى حياة أبيه. و كان قطب الدين مقيما بسيواس و أبوه بقونية. ثم جاء إلى أبيه يقاتله فأخرج إليه العساكر، فالتقاهم قطب الدين و كسرهم و بدّد شمل أصحاب أبيه، ثم ظفر بأبيه فأخذه مكرها و حمله إلى قيساريّة، و وقع له معه أمور أخر. و آخر الأمر أنّه عهد إلى ولده غياث الدين بالملك و لم يعهد لقطب الدين. و كانت وفاته فى نصف شعبان.

و فيها توفّى نصر بن منصور أبو المرهف النّميرىّ الشاعر المشهور، منسوب إلى نمير بن عامر بن صعصعة. ولد برقّة الشام، و أمّه بنت سالم بن مالك صاحب الرّحبة، و ربّى بالشام و عاشر الأدباء و قال الشعر و هو ابن ثلاث عشرة سنة. و قلّ بصره بالجدرىّ و له أربع عشرة سنة. و قدم بغداد ليداوى عينيه فآيسه الأطبّاء، فحفظ القرآن و تفقّه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل- رضى اللّه عنه- و كان طاهر اللسان عفيفا ديّنا. و له مدائح فى صلاح الدين و غيره. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

ترى يتألّف الشمل الصديع و آمن من زمان ما يروع

و تأنس بعد وحشتنا بنجد منازلنا القديمة و الرّبوع

ذكرت بأيمن العلمين عصرا مضى و الشمل ملتئم جميع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۱۹

فلم أملك لدمعى ردّ غرب و عند الشوق تعصيك الدموع

ينازعنى إلى خنساء قلبى و دون لقائها بلد شسوع

و أخوف ما أخاف على فؤادى إذا ما أنجد البرق اللّموع

لقد حملّت من طول التنائى عن الأحباب ما لا أستطيع

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى الفقيه أحمد ابن الحسـين بن علىّ العراقىّ الحنبلىّ بدمشق. و المحدّث أبو الفضل إسـماعيل بن علىّ الجنزوىّ الشّروطىّ بدمشق فى سلخ جمادى الأولى. و أبو ياسر عبد الوهاب [بن هبة اللّه بن عبد الوهاب] بن أبى حبّة الدقاق بحرّان فى شـهر ربيع الأول. و أبو جعفر عبيد اللّه بن أحمد [بن علىّ بن علىّ] بن السّـمين. و الأمير الكبير سـيف الدين علىّ بن أحمد الهكّارىّ المشطوب فى شوّال بالقدس. و صاحب الروم قليج أرسلان بن مسعود السلجوقىّ. و النّسابة أبو علىّ محمد بن أسعد الحسينىّ الجوّانىّ بمصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۰

ذكر ولاية الملك العزيز عثمان على مصر

هو الملك العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان سلطان الديار المصريّة و ابن سلطانها الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الـدين أيّوب بن شـادى ابن مروان الأـيّوبىّ الكردىّ الأصـل المصـرىّ. ولى سـلطنة مصـر فى حياة والـده صورة؛ ثم تسـلطن بعـد وفاته اسـتقلالا باتّفاق الأمراء و أعيان الدولة بديار مصـر، لأنه كان نائبا عن أبيه صـلاح الدين بها لمّا كان أبوه مشتغلا بفتح السواحل بالبلاد الشاميّة و تمّ أمره. و كان مولـده بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سـنة سـبع و ستين و خمسـمائة. و كان الملك العزيز هذا أصـغر من أخيه الملـك الظـاهر غازى صاحب حلب، و أصـغر من أخيه الأفضل صاحب دمشق. و كان الأفضل هو أكبر الإخوة، و هو المشار إليه فى أيّام أبيه صـلاح الـدين و من بعـده، و هو الـذى جلس للعزاء بعـد موت صـلاح الدين، و صار هو السـلطان الأكبر إلى أن ظهر منه أمور، منها: أنّه كان اسـتوزر ضـياء الـدين الجزرىّ، فأساء ضـياء الدين السّـيرة؛ و شـغّف قلوب الجند إلى مصـر، و ساروا إليها فالتقاهم الملك العزيز و أكرمهم، و كانوا معظم الصـلاحيّة. و اشـتغل الأفضل بلهوه. و كان القدس فى يده فعجز عنه و سلّمه إلى نوّاب الملك العزيز هـذا؛ فبان للناس عجز الأفضل. ثم وقعت الوحشـة بين العزيز هـذا و بين أخيه الأفضل المـذكور. و بلغ الفرنج ذلك، فطمعوا فى البلاد و حاصـروا جبلـة، و كان بها جماعة من الأكراد فباعوها للفرنج. و برز الملك العزيز من مصـر يريد قتال الفرنج فى الظاهر، و فى الباطن أخذ دمشق من أخيه الأفضل؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۱

و علم الأفضل بـذلك فكتب إلى عمّه العادل أبى بكر بن أيّوب، و للمشارقة بالنجدة، فأجابوه إلى ما يريد؛ و كان مع العادل عدّة بلاد بالشرق، و كان لمّا توفّى أخوه السلطان الملك الناصر صلاح الدين بالكرك قدم دمشق معزّيا للأفضل و أقام عنده أيّاما؛ ثم رحل إلى محـلّ ولاـيته بـالجزيرة و الرّها و سـميساط و الرّقّة و قلعـة جعبر و ديار بكر و ميّافارقين. و هى البلاد التى كان أعطاها له أخوه صـلاح الدين فى حياته، و كان له أيضا مع ذلك بالبلاد الشاميّة الكرك و الشّوبك.

و المقصود أنّ الملك العزيز هذا لمّا رحل من مصـر إلى نحو دمشق، سار حتى نزل بظاهر دمشق، و قيل بعقبة الشّـحورة؛ و جاء العادل بعسـاكر الشـرق و نزل بمرج عـدواء. فأرسـل إليه العزيز يقول: أريـد الاجتمـاع بالعـادل؛ فاجتمعا على ظهور خيلهما و تفاوضا؛ فقال له

العادل: لا تخرّب البيت و تدخل عليه الآفة! و العدوّ وراءنا من كلّ جانب، و قد أخذوا جبلة؛ فارجع إلى مصر و احفظ عهد أبيك. و أيضا فلا تكسر حرمة دمشق، و تطمع فيها كل أحد! و عاد الملك العادل عنه إلى دمشق، و اقام العزيز فى منزلته. و قدمت العساكر على الأفضل و بعث العادل إلى العزيز يقول له: ارحل إلى مرج الصّفّر؛ فرحل و هو مريض. و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۲

قصد العادل أن يبعده عن البلد. فوصل الملك الظاهر غازى من حلب، و الملك المنصور من حماة، و شيركوه بن محمد بن شيركوه من حمص، و الأمجد من بعلبكّ، و الجميع نجدة للأفضل. فقال لهم العادل: قد تقرّر أنّه يرحل إلى مصر. و اشتدّ مرض العزيز فاحتاج إلى المصالحة، و لو لا المرض ما صالح؛ فأرسل الملك العزيز كبراء دولته فخر الدين ايباز جهاركس و غيره يحلّف الملوك، و طلب مصاهرة عمّه العادل فزوّجه ابنته الخاتون. و رجع كلّ واحد إلى بلده، و ذلك فى شعبان سنة تسع و ثمانين و خمسمائة.

و قال العماد الكاتب الأصفهانىّ: خرج الملوك لتوديع الملك العزيز إلى مرج الصّفّر واحدا بعد واحد. و أوّل من خرج إليه أخوه الملك الظاهر غازى صاحب حلب، فبات عنده ليلة و عاد، فخرج إليه أخوه الأفضل صاحب الواقعة، فقام إليه و اعتنقا و بكيا، و أقام عنده أيضا يوما، و كان قد فارقه منذ تسع سنين، فلمّا عاد كتب إلى العزيز من إنشائه من عدّة أبيات:

نظرتك نظرة من بعد تسع تقضّت بالتفرّق من سنين

و لمّا انفصل العساكر عن دمشق شرع الأفضل على عادته فى اللّهو و اللّعب، فاحتجب عن الرعيّة فسمّى «الملك النوّام» و فوّض الأمر إلى وزيره ضياء الدين الجزرىّ، و حاجبه الجمال محاسن بن العجمىّ، فأفسدا عليه الأحوال، و كانا سببا لزوال دولته. و استمرّ الملك العزيز هذا بمصر و أمره ينمو و يزداد إلى سنة تسعين.

و فيها عاد الاختلاف ثانيا بين العزيز و الأفضل؛ و سببه إغراء الجند و الوسائط.

و كان أكبر المحرّضين للعزيز على أخيه الأفضل أسامة، حتّى قال له: إنّ اللّه يسألك عن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۳

الرعيّة، هذا الرجل قد غرق فى اللهو و شربه، و استولى عليه الجزرىّ و ابن العجمىّ.

ثم قال له القاضى ابن أبى عصرون: لا تسلم يوم القيامة. و بلغ الأفضل قول أسامة و ابن أبى عصرون فأقلع عمّا كان عليه، و تاب و ندم على تفريطه، و عاشر العلماء و الصلحاء، و شرع يكتب مصحفا بخطّه، و كان خطّه فى النهاية، فلم يغن عنه ذلك. و تحرّك العزيز يقصده، فسار الأفضل إلى عمّه العادل يستنجد به، فالتقاه العادل على صفّين، فسار معه بعساكر الشرق إلى دمشق؛ و كان الأفضل لمّا اجتاز بحلب اتّفق مع أخيه الظاهر غازى و تحالفا، و جاء إلى حماة ففعل كذلك مع ابن عمّه المنصور.

و صار العادل يشير عليه بعزل الجزرىّ عن الوزارة، و يقول له: هذا يخرّب بيتك.

فصار لا يلتفت إليه فحنق منه. ثم إنّ العادل سأل الملك الظاهر غازى فى شىء فلم يجبه، فغضب لذلك العادل و انفرد عنهم، و كتب إلى العزيز يخبره أنّه معه، و يستحثّه على القدوم إلى دمشق؛ فخرج العزيز من مصر مسرعا، ثم علم العادل أنّه لا طاقة له بالعزيز و لا بالظاهر؛ فراسل الأسديّة الذين كانوا بمصر، و أوعدهم بالأموال و الإقطاعات. و كان الملك العزيز قد قدّم عليهم الصلاحيّة مماليك أبيه. و الأسديّة هم مماليك عمّه أسد الدين شيركوه و حواشيه الأكراد؛ ثم دسّ العادل للأسديّة الأموال، و كان مقدّم الأكراد الأسديّة أبو الهيجاء السّمين؛ و كان العزيز قد عزله عن ولاية القدس، و تقدّمت الأسديّة بسيف الدين جرديك؛ فركب أبو الهيجاء بجموعه، و معه أزكش فى الليل، و قصدوا دمشق، فأصبح العزيز فلم يرفى الخيام من الأسديّة أحدا، فرجع إلى مصر. و شرع أزكش و أبو الهيجاء و الأسديّة يحرّضون العادل على أخذ مصر؛ و كانت الأسديّة و الأكراد يكرهون العادل، و إنّما دعتهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۴

الضرورة إليه. و اتّفق العادل مع ابن أخيه الأفضل و سارا إلى جهة العزيز نحو مصر.

فلمّا و صلوا إلى القدس ولّوا أبا الهيجاء كما كان، و عزلوا جرديك عنها؛ ثم ساروا حتّى نزلوا بلبيس و بها جماعة من الصلاحيّة. فتوقّف العادل عن القتال و لم ير انتزاع مصر من يد العزيز، و ظهرت منه قرائن تدلّ على أنّه لا يؤثر السلطنة للأفضل، و لا يرى بتقدمته على العزيز. فأرسل العادل إلى العزيز يطلب منه القاضى الفاضل، و كان الفاضل قد اعتزلهم و انقطع إلى داره، فأرسل إليه العزيز يسأله فامتنع، فتضرّع إليه و أقسم عليه، فخرج إلى العادل، فاحترمه العادل و أكرمه و تحدّث معه بما قرّره، و عاد الفاضل إلى العزيز و تحدّث معه، فأرسل العزيز و لديه الصغيرين مع خادم له برسالة ظاهرة، مضمونها: «لا تقاتلوا المسلمين و لا تسفكوا دماءهم، و قد أنفذت ولدىّ يكونان تحت كفالة عمّى العادل، و أنا أنزل لكم عن البلاد و أمضى إلى الغرب».

و كان ذلك بمشهد من الأمراء، فرقّ العادل و بكى من حضر. فقال العادل:

معاذ اللّه! ما وصل الأمر إلى هذا الحدّ.

و كان العادل قد قرّر مع القاضى الفاضل ردّ خير الأسديّة و إقطاعاتهم و أملاكهم، و أن يبقى أبو الهيجاء على ولاية القدس. ثم قال العادل للأفضل:

المصلحة أن تمضى إلى أخيك و تصالحه، ما عذرنا عند اللّه و عند الناس إذا فعلنا بابن أخينا ما لا يليق!. و كان العزيز أرسل يقول للعادل مع الخادم المقدّم ذكره: «البلاد بلادك و أنت السلطان و نحن رعيّتك». ففهم الأفضل أنّ العادل رجع عن يمينه، و أنّه اتّفق مع العزيز على أخذ البلاد منه، لكنّه لم يمكنه الكلام، و مضى إلى أخيه الملك العزيز و اصطلحا، و عاد إلى دمشق. و دخل العزيز و العادل و الأسديّة إلى القاهرة يوم الخميس رابع ذى الحجّة. و سلطن العادل العزيز و مشى بين يديه بالغاشية.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۵

و لو أراد العادل مصر فى هذه المرّة لأخذها؛ و إنّما كان قصده الإصلاح بين الإخوة.

ثم وقع بين العزيز هذا و الأفضل ثالثا، و هو أنّه لمّا عاد الأفضل إلى دمشق ازداد وزيره الجزرىّ من الأفعال القبيحة، و الأفضل يسمع منه و لا يخالفه، فكتب قيماز النّجمىّ و أعيان الدولة إلى العادل يشكونه، فأرسل العادل إلى الأفضل:

«ارفع يد هذا الأحمق السيّئ التدبير القليل التوفيق»، فلم يلتفت. فاتّفق العادل مع ابن أخيه العزيز هذا على التوجّه إلى الشام فسارا. و استشار الأفضل أصحابه، فكلّ أشار عليه بأن يلتقى عمّه العادل و أخاه العزيز و لا يخالفهما إلّا الجزرىّ، فإنّه أشار بالعصيان، فاستعد الأفضل للقتال و الحصار و حلّف الأمراء و المقدّمين، و فرّقهم فى الأبراج و الأسوار، فراسلوا العزيز و العادل و أصلحوا أمرهم فى الباطن؛ و اتّفق العادل مع عزّ الدين الحمصى على فتح الباب الشرقىّ؛ و كان مسلّما إليه، فلمّا كان يوم الأربعاء سادس عشرين شهر رجب ركب العادل و العزيز و جاءا إلى الباب الشرقىّ ففتحه ابن الحمصى فدخلا إلى البلد من غير قتال؛ فنزل العزيز دار عمّته ستّ الشام، و نزل العادل دار العقيقىّ، و نزل الأفضل إليهما و هما بدار العقيقى؛ فدخل عليهما و بكى بكاء شديدا، فأمره العزيز بالانتقال من دمشق إلى صرخد، فأخرج وزيره الجزرىّ فى الليل فى جملة الصناديق خوفا عليه من القتل، فأخذ أموالا عظيمة و هرب إلى بلاده.

و كان العزيز قد قرّر مع عمّه العادل أن يكون نائبه بمصر، و يقيم العزيز بدمشق.

ثم ندم فأرسل إلى أخيه الأفضل رسالة فيها صلاح حاله. ثم وقعت أمور إلى أن سلّم العزيز بصرى إلى العادل، و كان بها الظافر. و أقام العزيز بعد ذلك بدمشق مدّة، و صلّى الجمعة عند قبر والده بالكلّاسة و أمر ببناء القبّة و المدرسة إلى جانبها،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۶

ثم أمر محيى الدين بن الزّكىّ بعمارة المدرسة العزيزيّة، و نقل السلطان صلاح الدين إلى الكلّاسة فى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة. و كان الأفضل قد شرع فى بناء تربة عند مشهد القدم بوصيّة من السلطان صلاح الدين. و كان الملك العزيز إذا جلس فى مجالس لهوه يجلس العادل على بابه، كأنّه برد [ه] داره. فلمّا كان آخر ليلة من مقام العزيز بدمشق، و كانت ليلة الاثنين تاسع شعبان، قال العادل لولده المعظم عيسى:

ادخل إلى العزيز فقبّل يده و اطلب منه دمشق، و كان المعظّم قد راهق الحلم، فدخل إلى ابن عمّه العزيز و قبّل يده و طلب منه دمشق، فدفعها إليه و أعطاه مستحقّه، و قيل: بل استناب العادل فيها، ثم أعطاها للمعظّم فى سنة أربع و تسعين. و كان خروج الملك العزيز من دمشق فى يوم تاسع شعبان المذكور. و سار إلى مصر و مضى الأفضل إلى صرخد، و اجتاز العزيز بالقدس فعزل أبا الهيجاء السمين عن نيابتها، و ولّاها لسنقر الكبير، و مضى أبو الهيجاء إلى بغداد.

و استمرّ الملك العزيز بمصر، و استقامت الأمور فى أيّامه، و عدل فى الرعيّة، و عفّ عن أموالها حتّى قيل: إنّ ابن البيسانىّ أخا القاضى الفاضل بذل على قضاء المحلّة أربعين ألف دينار، فعجّل منها عشرين ألفا، و كان رسوله فى ذلك الملك العادل عمّ العزيز المقدّم ذكره، و بذل له عن ترسّله خمسة آلاف دينار، و للحاجب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۷

أبى بكر ألف دينار، و لجهاركس ألف دينار. فاجتمعوا على العزيز جميعا و خاطبوه فى ذلك، و ألحّ عليه الملك العادل. فقال له العزيز: و اللّه يا عمّ، هذا الرجل بذل لنا هذا البذل [لا] عن محبّة لنا، و اللّه إنّه ليأخذ من أموال الرعيّة أضعاف ذلك، لا ولّيته أبدا! فرجع العادل عن مساعدته، فلمّا آل الأمر إلى العادل صادر ابن البيسانىّ المذكور، و أخذ منه أموالا كثيرة. انتهى.

و قال القاضى شمس الدين بن خلّكان فى ترجمة الملك العزيز هذا بعد أن ذكر اسمه و لقبه قال: «و كان ملكا مباركا كثير الخير واسع الكرم محسنا إلى الناس معتقدا فى أرباب الخير و الصلاح، و سمع بالإسكندرية الحديث من [الحافظ] السّلفىّ، و الفقيه أبى طاهر بن عوف الزّهرىّ، و سمع [بمصر] من العلّامة أبى محمد بن برّىّ النحوىّ و غيرهم. و يقال: إنّ والده لمّا كان بالشام و القاضى الفاضل عبد الرحيم بالقاهرة عند العزيز ولد للعزيز المذكور ولد، فكتب القاضى الفاضل يهنّئ والده السلطان صلاح الدين بولد ولده، فقال: «المملوك يقبّل الأرض بين يدى مولانا الملك الناصر، دام رشده و إرشاده، و زاد سعده و إسعاده، و كثر أولياؤه و عبيده و أحفاده، و اشتدّ بأعضاده فيهم اعتضاده، و أنمى اللّه عدده حتّى يقال هذا آدم الملوك و هذه أولاده؛ و ينهى أنّ اللّه تعالى- و له الحمد- رزق الملك العزيز- عزّ نصره- ولدا مباركا عليّا، ذكرا سريّا، [برّا] زكيّا، نقيّا تقيّا؛ من ورثة كريمة بعضها من بعض، و بيت شريف كادت ملوكه تكون ملائكة فى السماء، و مماليكه ملوكا فى الأرض». انتهى ما كتبه القاضى الفاضل فى التهنئة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۸

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: «و كانت ولادة العزيز بالقاهرة فى ثامن جمادى الأولى سنة سبع و ستين و خمسمائة. و كان قد توجّه إلى الفيّوم، فطرد فرسه وراء، صيد فتقنطر به فرسه، فأصابته الحمّى من ذلك، و حمل إلى القاهرة فتوفّى بها فى الساعة السابعة من ليلة الأربعاء الحادى و العشرين من المحرّم سنة خمس و تسعين و خمسمائة- رحمه اللّه تعالى- قال: و لمّا مات كتب القاضى الفاضل إلى عمّه العادل رسالة يعزّيه، من جملتها:

«فنقول فى توديع النّعمة بالملك العزيز: لا حول و لا قوّة إلا بالله قول الصابرين، و نقول فى استقبالها بالملك العادل؛ الحمد للّه ربّ العالمين قول الشاكرين؛ و قد [كان] من أمر هذه الحادثة ما قطّع كلّ قلب و جلب كلّ كرب و مثّل وقوع هذه الواقعة لكلّ أحد و لا سيما لأمثال المملوك، و مواعظ الموت بليغة، و أبلغها ما كان فى شباب الملوك؛ فرحم اللّه ذلك الوجه و نضّره، ثمّ السبيل إلى الجنة يسّره.

و إذا محاسن أوجه بليت فعفا الثرى عن وجهه الحسن

و المملوك فى حال تسطير هذه الخدمة جامع بين مرضى قلب و جسد، و وجع أطراف و عليل كبد؛ فقد فجع المملوك بهذا المولى، و العهد بوالده غير بعيد، و الأسى فى كلّ يوم جديد؛ و ما كان لينمدل ذلك القرح، حتّى أعقبه هذا الجرح؛ و اللّه تعالى لا يعدم المسلمين بسلطانهم الملك العادل [السلوة، كما لم يعدمهم بنبيّهم صلّى اللّه عليه و سلم الأسوة]- و أخذ فى نعت الملك العادل إلى أن قال-: و دفن بالقرافة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۲۹

الصغرى (يعنى العزيز) فى قبّة الإمام الشافعىّ- رضى اللّه عنه-. و قبره معروف هناك» انتهى كلام ابن خلّكان برمّته، و لم يتعوّض لشىء من أحواله، و لا إلى ما كان فى بداية أمره.

و قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: «و فيها (يعنى سنة خمس و تسعين) توفّى الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر. كان صلاح الدين يحبّه، و كان جوادا شجاعا عادلا منصفا لطيفا كثير الخير رفيقا بالرعيّة حليما. حكى لى المبارز سنقر الحلبىّ- رحمه اللّه- قال: ضاق ما بيده بمصر (يعنى عن العزيز) و لم يبق فى الخزانة درهم و لا دينار، فجاء رجل من أهل الصعيد إلى أزكش سيف الدين، قال: عندى للسلطان عشرة آلاف دينار و لك ألف دينار، و تولينى قضاء الصعيد؛ فدخل أزكش إلى العزيز فأخبره؛ فقال: و اللّه لا بعت دماء المسلمين و أموالهم بملك الأرض! و كتب ورقة لأزكش بألف دينار. و قال: اخرج فاطرد هذا الدبر، و لولاك لأدّبته.

و قد ذكرنا أنّه وهب دمشق [للملك] المعظّم، و كان يطلق عشرة آلاف دينار و عشرين ألفا. و كان سبب وفاته أنّه خرج إلى الفيّوم يتصيّد، فلاح له ظبى فركض الفرس خلفه فكبا به الفرس، فدخل قربوس [السرج] فى فؤاده، فحمل إلى القاهرة فمات فى العشرين من المحرّم، و دفن عند الشافعى- رحمه اللّه- عن سبع و عشرين سنة و شهور؛ و قيل: عن ثمان و عشرين سنة. و لمّا مات نصّ على ولده ناصر الدين محمد، و هو أكبر أولاده، و كان له عشرة أولاد، و لم يذكر عمّه العادل فى الوصيّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۰

و أوصى للأمير أزكش، و كان مقدّم الأسديّة و كبيرهم، و عاش بعد العزيز مدّة طويلة». انتهى كلام أبى المظفّر.

و قال ابن القادسىّ- خلاف ما نقل أبو المظفّر و ابن خلّكان و غيرهما- قال:

«كان قد ركب و تبع غزالة فوقع فاندقّت عنقه، و بقى أربعة أيّام و مات. و نصّ على ولده الأكبر محمد إن أمضى العادل ذلك. و كانت الوصيّة إلى أمير كبير اسمه أزكش فوثبت الأسديّة عليه فقتلته». انتهى.

و قال الشيخ شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه: «و لمّا مات العزيز كان لابنه محمد عشر سنين، و كان مقدّم الصّلاحيّة فخر الدين جهاركس، و أسد الدين سرا سنقر، و زين الدّين قراجا؛ فاتّفقوا على ناصر الدين محمد (يعنى ابن العزيز)، و حلّفوا له الأمراء. و كان سيف الدين أزكش مقدّم الأسدية غائبا بأسوان، فقدم فصوّب رأيهم و ما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغير السّن لا ينهض بأعباء الملك، و لا بدّ من تدبير كبير يحسم الموادّ و يقيم الأمور؛ و العادل مشغول فى الشرق بماردين، و ما ثمّ أقرب من الأفضل نجعله أتابك العساكر. فلم يمكن الصّلاحيّة مخالفته.

و قالوا: افعل، فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه و هو بصرخد، و كتبت الصلاحيّة إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتّفقت الأسديّة على الأفضل، و إن ملكوا حكموا علينا، فامنعوه من المجيء؛ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ و كان الأفضل قد التقى نجّابا من جهاركس إلى من بدمشق بهذا المعنى، و معه كتب فأخذها منه و قال: ارجع فرجع إلى مصر. و لمّا وصل الأفضل إلى مصر التقاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۱

الأسديّة- نحكى ذلك كلّه فى أوّل ترجمة الملك المنصور بن العزيز هذا، إن شاء اللّه-

و كان الملك العزيز قوّيّا ذا بطش و خفّة حركة، كريما محسنا عفيفا لم يردّ سائلا؛ و بلغ من كرمه أنّه لم يبق له خزانة و لا خاصّ و لا ترك و لا فرش. و أمّا عفته فإنّه كان له غلام تركىّ اشتراه بألف دينار يقال له: أبو شامة، فوقف يوما على رأسه فى خلوة ليس معهما ثالث، فنظر العزيز إلى جماله، و أمره أن ينزع ثيابه، و قعد العزيز منه مكان الفاحشة؛ فأدركه التوفيق و نهض مسرعا إلى بعض سراريه فقضى و طره، و خرج إلى الغلام و أمره بالخروج عنه». انتهى.

و يحكى عن عفّته عن الأموال: أنّ عرب المحلّة قتلوا بعض أمرائه، و كان والى المحلة ابن بهرام، فجباهم عشرة آلاف دينار، و جاء بها إلى القاهرة؛ فصادف فى الدّهليز غلاما خارجا من عند السلطان؛ فقال ابن بهرام: ارجع إلى السلطان و استأذنه لى؛ فقال الغلام: دعنى، أنا فى أمر مهمّ للسلطان، قد وهب لشيخ صيّاد دينارين، و قد سيّرنى إلى الجهات كلّها فلم أجد فيها شيئا، و قد تعذّر عليه هذا المبلغ اليسير؛ فقال: ارجع إليه، معى مال عظيم. فلمّا دخل ابن بهرام إلى العزيز فضّ المال بين يديه و قال: هذا دية فلان؛ فقال: أخذتها من القاتل؟ قال: لا، بل من القبيلة؛ فقال العزيز: لا أستجيز أخذه، ردّه على أربابه، فراجعه فاكفهرّ؛ فخرج ابن بهرام بالمال و هو يقول: ما يردّ هذا مع شدّة الحاجة إلّا مجنون!. فرحم اللّه هذه الشّيم.

انتهت ترجمة الملك العزيز من عدّة أقوال. رحمه اللّه تعالى و عفا عنه و عن جميع المسلمين و الحمد للّه رب العالمين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۲

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۸۹]

السنة الأولى من ولاية السلطان العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة تسع و ثمانين و خمسمائة، على أنّ والده السلطان صلاح الدين يوسف حكم منها المحرّم و صفرا.

فيها كانت وفاة السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمته.

و فيها توفّى الأمير بكتمر [ابن عبد اللّه مملوك] شاه أرمن. و عزّ الدين صاحب الموصل كما سيأتى.

و فيها بنى الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ دار الكتب بالمدرسة النظاميّة ببغداد، و نقل إليها عشرة آلاف مجلد، فيها الخطوط المنسوبة و غيرها.

و فيها توفّى أسعد بن نصر بن أسعد النحوىّ، كان إماما فاضلا أديبا شاعرا.

و من شعره قوله:

يجمع المرء ثم يترك ما جمّ ع من كسبه لغير شكور

ليس يحظى إلّا بذكر جميل أو بعلم من بعده مأثور

و فيها توفّى الأمير بكتمر بن عبد اللّه مملوك شاه أرمن بن سكمان صاحب خلاط، مات شاه أرمن و لم يخلّف ولدا، فاتّفق خواصّه على بكتمر فولّى، و ضبط الأمور و أحسن للرعيّة، و صاحب العلماء، و كان حسن السّيرة متصدّقا ديّنا صالحا؛ جاءه أربعة على زىّ الصوفيّة فتقدّم إليه واحد منهم فمنعه الجانداريّة. فقال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۳

دعوه، فتقدّم و بيده قصّة فأخذها منه، فضربه بسكّين فى جوفه فمات فى ساعته.

فأخذوا الأربعة و قرّروا، فقالوا: نحن إسماعيليّة؛ فقتلوا و أحرقوا؛ و ذلك فى جمادى الأولى.

و فيها توفّى السلطان مسعود بن مودود بن زنكى بن آق سنقر عزّ الدّين صاحب الموصل و ابن أخى السلطان الملك العادل نور الدين الشهيد. كان خفيف العارضين أسمر مليح اللّون، عادلا عاقلا محسنا إلى الرعية شجاعا، صبر على حصار السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب له بالموصل ثلاث مرّات، و حفظ البلد و فرّق الأموال العظيمة. و كان ديّنا صالحا، خرج من الموصل لقتال الملك العادل أبى بكر ابن أيّوب، و كان العادل على حرّان بعد موت صلاح الدين. فعاد مريضا و مات فى شهر رمضان، و كانت أيّامه ثلاث عشرة سنة و ستّة أشهر. و أوصى بالملك من بعده لولده الأكبر نور الدين أرسلان شاه، و كان أخوه شرف الدين مودود يروم السلطنة، فصرفت عنه لنور الدين هذا فعزّ ذلك عليه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشيخ سنان بن سليمان البصرىّ زعيم الإسماعيليّة. و أبو منصور عبد اللّه بن محمد [بن علىّ بن هبة اللّه] ابن عبد السلام الكاتب. و القاضى أبو عبد اللّه محمد بن عبد الرحمن الحضرمىّ بالإسكندريّة. و صاحب الموصل عزّ الدين مسعود بن قطب الدين مودود بن زنكى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۴

و المكرم بن هبة اللّه بن المكرم الصّوفىّ. و السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف ابن أيّوب فى صفر بقلعة دمشق، و له سبع و خمسون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ثلاث أصابع.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۰]

السنة الثانية من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى أحمد بن إسماعيل بن يوسف الشيخ الإمام أبو الخير القزوينىّ الشافعىّ.

كان إماما عالما بالتفسير و الفقه، و كان متعبّدا يختم القرآن فى كلّ يوم و ليلة.

و مولده بقزوين فى سنة اثنتى عشرة و خمسمائة. و قدم بغداد و وعظ و مال إلى الأشعرىّ، فوقعت الفتن. و جلس يوم عاشوراء فى النظاميّة فقيل له: العن يزيد بن معاوية؛ فقال: ذاك إمام مجتهد، فجاءه الرّجم حتّى كاد يقتل، و سقط عن المنبر فأدخل إلى بيت فى النظاميّة، و أخذت فتاوى الفقهاء بتعزيره؛ فقال بعضهم يضرب عشرين سوطا: قيل له: من أين لك هذا. فقال: عن عمر ابن عبد العزيز، سمع قائلا يقول: أمير المؤمنين يزيد بن معاوية، فضربه عشرين سوطا. ثم خلّص القزوينىّ بعد ذلك و أخرج من بغداد إلى قزوين.

و فيها توفى السلطان طغرلبك شاه بن أرسلان شاه بن طغرل شاه بن محمد ابن ملكشاه بن ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق السّلجوقىّ آخر ملوك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۵

السّلجوقيّة بالعراق سوى صاحب الروم. و كان مبدأ أمره- عند وفاة والده- سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة، و كان صغير السّنّ فكفله البهلوان إلى أن مات فى سنة اثنتين و ثمانين، فكفله بعده أخو البهلوان لأبيه حتّى أنف من الحجر و خرج عن يده، و انضاف إليه جماعة من الأمراء، و كسر عسكر الخليفة و أسر ابن يونس و هابته الملوك. و كان طغرلبك هذا سفّا كالدماء، قتل وزيره رضىّ الدين الغزنوىّ، و فخر الدين العلوىّ رئيس همذان. ثم وقع له أمور و محن و أخذ و حبس. و قد تقدّم أن طغرلبك هذا آخر ملوك السّلجوقيّة، و عدّتهم نيّف و عشرون ملكا، و مدّة ملكهم مائة و ستون سنة. و أوّل من ملك منهم طغرلبك فى سنة اثنتين و ثلاثين و أربعمائة؛ ثم ألب أرسلان بن داود بن ميكائيل بن سلجوق بن دقماق، و هو ابن أخى طغرلبك؛ ثم بعده ولده ملكشاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم أخوه بركياروق؛ ثم أخوه محمد شاه؛ ثم ولده محمود؛ ثم واحد بعد واحد. حسب ما ذكرناهم فى هذا الكتاب كلّ واحد فى محلّه. و طغر يلبك (بضم الطاء المهملة و سكون الغين المعجمة و كسر الراء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۶

المهملة و بعدها ياء و لام ساكنتان). و هو اسم باللغة التركية لطائر معروف عندهم.

و بك: هو الأمير، واضح لا يحتاج إلى تفسير.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العلّامة رضىّ الدّين أبو الخير أحمد بن إسماعيل الطّالقانىّ القزوينىّ

الشافعيّ الواعظ فى المحرّم، و له ثمان و ثمانون سنة. و طغرلبك شاه السلطان ابن أرسلان بن طغرل بن محمد بن ملكشاه السّلجوقيّ، قتله [فى] المصاف خوارزم شاه تكش. و أبو المظفّر عبد الخالق بن فيروز الجوهريّ. و الإمام أبو محمد القاسم بن فيّره الرّعينيّ الشّاطبيّ المقرئ فى جمادى الآخرة، و له اثنتان و خمسون سنة. و الحافظ محمد بن إبراهيم بن خلف المالقيّ أبو عبد اللّه بن الفخّار بمرّاكش. و الفخر محمد بن عليّ بن شعيب بن الدّهّان الأديب المؤرّخ فجأة بالحلّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و خمس أصابع.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتان و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۱]

السنة الثالثة من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة إحدى و تسعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۷

فيها اقطع الملك العزيز فارس الدين ميمون القصريّ نابلس فى سعمائة فارس من مقاتلة الفرنج.

و فيها كانت وقعة الزّلّاقة بين يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن و بين ألفنش الفرنجيّ ملك طليطلة، و كان قد استولى على جزيرة الأندلس و قهر ولاتها، و يعقوب المذكور مشغول بقتال الخارجين عليه، و بينه و بين الأندلس زقاق سبتة، و عرضه ثلاث فراسخ، فجمع يعقوب العساكر و عرض جنده، و كانوا مائتى ألف [مقاتل: مائة ألف] يأكلون الأرزاق، و مائة ألف مطّوّعة، و عبر الزّقاق إلى مكان يقال له الزّلّاقة؛ و التقوا فجرى بينهم قتال لم يجر فى جاهلية و لا إسلام حتّى أنزل اللّه نصره على المسلمين. فولّى ألفنش هاربا فى نفر يسير إلى طليطلة، و غيم المسلمون ما كان فى عسكره. و كان عدّة من قتل من الفرنج مائة ألف و ستة و أربعين ألفا، و عدّة الأسارى ثلاثين ألفا؛ و من الخيام: مائة ألف خيمة و خمسين ألفا؛ و من الخيل ثمانين ألفا؛ و من البغال و الأموال و الجواهر و الثياب ما لا يحدّ و لا يحصى.

و يبع الأسير من الفرنج بدرهم؛ و السيف بنصف درهم، و الحضان بخمسة دراهم، و الحمار بدرهم. و قسم الملك يعقوب هذه الغنائم بين المسلمين على مقتضى الشريعة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۸

فاستغنوا إلى الأبد. و وصل ألفنش إلى طليطلة على أقبح وجه، فحلق رأسه و لحيته، و نكّس صليبه و آلى أنّه لا ينام على فراش و لا يقرّب النساء و لا يركب فرسا حتّى يأخذ بالثأر.

و فيها اعتنى الخليفة الناصر لدين اللّه العباسيّ بحمام البطاقة اعتناء زائدا، حتى صار يكتب بأنساب الطير المحاضر أنّه من ولد الطير الفلانيّ؛ و قيل: إنّه باع طيرا بألف دينار.

و فيها حجّ بالناس من بغداد سنجر الناصريّ، و من الشام سرا سنقر و أيبك فطيس الصلاحيّان، و من مصر الشريف إسماعيل بن ثعلب الجعفريّ الطالبيّ.

الذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال. و فيها توفّى أبو القاسم ذاكر بن كامل الخفّاف. و الفقيه أبو محمد عبد اللّه الزاهد ابن محمد بن على الأندلسيّ فى المحرّم عن بضع و ثمانين سنة. و أبو الحسن نجبة بن يحيى [بن خلف] بن نجبة الإشبيليّ المقرئ النحويّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ست أذرع و إصبعان. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۲]

السنة الرابعة من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۳۹

فيها بعد خروج الحاجّ من مكّة هبّت ريح سوداء عمّت الدنيا، و وقع على الناس رمل أحمر، و وقع من الركن اليمانىّ قطعة، و تحرّك البيت الحرام مرارا. و هذا شىء لم يعهد منذ بناه عبد اللّه بن الزّبير- رضى اللّه عنهما-.

و فيها أيضا كانت الوقعة الثانية بين السلطان يعقوب و بين ألفنش ملك الفرنج بعد أن حشد ألفنش جمعا كبيرا و التقوا، فكان بينهم قتلة عظيمة؛ و نصر اللّه المسلمين. و هزمه يعقوب و تبعه و حصره على الزّلّاقة و بطليطلة و نصب عليها المجانيق و ضيّق عليها، و لم يبق إلّا أخذها. فخرجت إليه والدة ألفنش و بناته و نساؤه و بكين بين يديه، و سألته إبقاء البلد عليهنّ، فرقّ لهنّ و منّ عليهنّ بها؛ و لو فتح طليطلة لفتح إلى مدينة النّحاس. ثم عاد يعقوب إلى قرطبة فأقام بها شهرا يقسم الغنائم، و جاءته رسل ألفنش أيضا تسأل الصلح، فصالحه على مدّة معيّنة.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن أحمد، الوزير أبو الفضل مؤيّد الدّين بن القصّاب.

أصله من شيراز، و قدم بغداد و استخدم فى الديوان، ثم ترقّى إلى أن ولى الوزارة؛ و قرأ الأدب و النحو. و كان داهية ردىء الاعتقاد إلّا أنّه كان له خبرة بالأمور و الحروب و فتح البلاد، و كان الخليفة الناصر لدين اللّه يثنى عليه و يقول: لو قبلوا من رأيه ما جرى ما جرى، و لقد أتعب الوزراء من بعده.

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن شعيب، الشيخ أبو شجاع الفرضىّ الحاسب البغدادىّ المعروف بابن الدّهان. كان فاضلا عالما و صنّف تاريخا من عشر و خمسمائة إلى سنة اثنتين و تسعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۰

و فيها توفّى محمد بن علىّ بن فارس الشيخ أبو الغنائم [المعروف ب] ابن المعلّم الهرثىّ الشاعر المشهور. و هرث: قرية تحت واسط. كان رقيق الشعر، لطيف المعانى، و له ديوان شعر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

لو قضى من أهل نجد أربه لم يهج نشر الخزامى طربه

علّلوا الصبّ بأنفاس الصّبا إنّها تشفى النفوس الوصبه

فهى إن مرّت عليه نشرت ما انطوى عنه و جلّت كربه

كلفى فيكم قديم عهده ما صباباتى بكم مكتسبه

أين ورق الجزع من لى أن أرى عجمه إن لم أشاهد عربه

و منها:

عن جفونى النوم من بعّده و إلى جسمى الضّنا من قرّبه

وصلوا الطّيف إذا لم تصلوا مستهاما قد قطعتم سببه

و إلى أن تحسنوا صنعابنا قد أساء الحبّ فينا أدبه

و هى أطول من هذا.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أبو الرّضا أحمد بن طارق الكركىّ فى ذى الحجّة ببغداد. و عبد الخالق بن عبد الوهّاب بن محمد المالكىّ الصابونىّ الخفّاف. و أبو الغنائم محمد بن علىّ بن فارس [المعروف ب] ابن المعلّم الواسطىّ شاعر العراق عن إحدى و تسعين سنة. و الوزير مؤيّد الدّين محمد بن علىّ بن القصّاب. و العلّامة مجير الدين محمود بن المبارك البغدادىّ الشافعىّ عن خمس و سبعين سنة. و يوسف بن معالى الكتّانىّ المقرئ بدمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۱

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ست و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۳]

السنة الخامسة من ولاية الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة ثلاث و تسعين و خمسمائة.

فيها قدم حسام الدّين أبو الهيجاء السّمين بغداد و خرج الموكب للقائه، و دخل أبو الهيجاء فى زىّ عظيم [و] رتّب الأطلاب على ترتيب أهل الشام، و كان فى خدمته عدّة من الأمراء؛ و أوّل ما تقدّم من الأمراء طلب ابن أخيه المعروف بكور الغرس ثم أمير أمير؛ و جاء هو بعد الكلّ فى العدّة الكاملة و السلاح التامّ، و خرج أيضا أهل بغداد للقائه، و كان رأسه صغيرا و بطنه كبيرا جدّا، بحيث كان بطنه على رقبة البغلة؛ فرآه رجل كوّاز فعمل فى الساعة كوزا من طين على هيئته، و سبقه فعلّقه فى السوق؛ فلمّا اجتاز به ضحك. ثم عمل بعد ذلك أهل بغداد كيزانا سمّوها:

أبا الهيجاء. و أكرمه الخليفة و أقام له بالضّيافات.

قلت: أبو الهيجاء هذا هو الذى عزله الملك العزيز هذا عن نيابة القدس بجرديك فى أوائل أمره. حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمة العزيز.

و فيها توفّى الأمير طغتكين بن أيّوب أخو السلطان صلاح الدين بن أيوب، و لقبه سيف الإسلام. كان والى اليمن، ملكها من زبيد إلى حضر موت، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۲

شجاعا مقداما شهما. و توفّى بزبيد. و ولى اليمن بعده ولده شمس الملوك إسماعيل و ادّعى الخلافة.

و فيها توفّى عبد اللّه بن منصور بن عمران الشيخ أبو بكر الباقلانىّ. و مولده فى سنة خمسمائة. و انفرد بالرّواية فى القراءات العشر، و كان حسن التلاوة. و قدم بغداد و مات بواسط فى سلخ شهر ربيع الآخر.

و فيها توفّى عبيد اللّه بن يونس بن أحمد الوزير جلال الدين أبو المظفّر الحنبلىّ، ولى حجابة الديوان ثم استوزره الخليفة؛ و كان إماما عالما فى الأصلين و الحساب و الهندسة و الجبر و المقابلة، غير أنّه شان أمره بأمور فعلها، منها: أنّه أخرب بيت الشيخ عبد القادر [الجيلانىّ] و شتّت أولاده، و يقال: إنّه بعث فى الليل من نبش على الشيخ عبد القادر و رمى بعظامه فى اللّجّة، و قال: هذا وقف ما يحلّ أن يدفن فيه أحد.

قلت: و ما فعله هو بعظام الشيخ أقبح من أن يدفن بعض المسلمين فى بعض أوقاف المسلمين، و ما ذاك إلّا الحسد داخله من الشيخ عبد القادر و عظم شهرته حتّى وقع منه ما وقع؛ و لهذا كان موته على أقبح وجه، بعد أن قاسى خطوبا و محنا و حبس سنين، حتى أخرج من الحبس ميّتا؛ و هذا ما وقع له فى الدنيا، و أمّا الأخرى فأمره إلى اللّه تعالى. و بالجملة فإنّه كان من مساوىء الدهر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى سيف الإسلام طغتكين بن أيّوب بن شادى صاحب اليمن فى شوّال، و ولى بعده ابنه إسماعيل.

و مقرئ العراق أبو بكر عبد اللّه بن منصور الرّبعىّ الباقلانىّ بواسط فى شهر ربيع

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۳

الأول عن ثلاث و تسعين سنة. و الوزير جلال الدين عبيد اللّه بن يونس، مات فى المطمورة. و عذراء بنت شاهنشاه بن أيّوب و دفنت بالعذراويّة. و قاضى القضاة أبو طالب علىّ بن علىّ بن أبى البركات البخارىّ الشافعىّ ببغداد. و أبو المعمّر محمد ابن حيدرة بن عمر

بن إبراهيم العلويّ الزّيديّ الرافضيّ. و أبو الفتح الأصبهانيّ ناصر الدين بن محمد الوترح فى ذى الحجّة. و أبو القاسم يحيى بن أسعد بن [يحيى] بن بوش الخبّاز فى ذى القعدة، غصّ بلقمة، و عاش بضعا و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و خمس و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۴]

اشارة

السنة السادسة من ولاية العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف على مصر، و هى سنة أربع و تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى الأمير جرديك بن عبد اللّه النّوريّ. كان من أكابر أمراء الملك العادل نور الدين محمود الشهيد؛ ثم خدم السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب فى جميع غزواته و حروبه من يوم قتل شاور بمصر و ابن الخشّاب بحلب. و كان أميرا شجاعا مهيبا جوادا، ولّاه صلاح الدين نيابة القدس إلى أن أخذها منه الأفضل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۴

و فيها توفى زنكى بن مودود بن زنكى بن آق سنقر عماد الدين صاحب سنجار، و ابن أخى نور الدين الشهيد. كان عاقلا جوادا لم يزل مع السلطان صلاح الدين؛ و كان السلطان صلاح الدين يحترمه مثل ما كان يحترم نور الدين، و يعطيه الأموال و الهدايا، و كانت وفاته بسنجار. و لمّا احتضر أوصى إلى أكبر أولاده قطب الدين محمد، و لقّب بالملك المنصور.

و فيها توفّى قيماز بن عبد اللّه مجاهد الدين الخادم الرومىّ الحاكم على الموصل، و هو الذى بنى الجامع المجاهدىّ و المدرسة و الرّباط و البيمارستان بظاهر الموصل على دجلة و وقف عليها الأوقاف. و كان عليه رواتب بحيث إنّه لم يدع [بالموصل بيت] فقير إلّا أغنى أهله، و كان ديّنا صالحا عابدا عادلا كريما، يتصدّق كلّ يوم خارجا عن الرواتب بمائة دينار. و لمّا مات عزّ الدّين مسعود و ولى ابنه أرسلان شاه حبس قيماز هذا و ضيّق عليه و آذاه إلى أن مات فى حبسه.

و فيها توفّى يحيى بن سعيد بن هبة اللّه العلّامة أبو طالب قوام الدّين الشّيبانيّ المنشئ الكاتب الواسطيّ الأصل، البغداديّ المولد و الدار و الوفاة. مولده فى سنة اثنتين و عشرين و خمسمائة. و اشتغل بالأدب و برع فى الإنشاء و فنون من العلوم كالفقه و علم الكلام و الأصول و الحساب و الشعر، و جالس أبا منصور بن الجواليقىّ و قرأ عليه، و سمع أبا القاسم بن الصائغ و غيره؛ و ولى للخليفة عدّة خدم: حجبة الباب، ثم الأستادارية، ثم كتابة الإنشاء آخر عمره و مات فى ذى الحجّة. و من شعره- و أحسن فيما قال-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۵

باضطراب الزمان ترتفع الأن ذال فيه حتّى يعم البلاء

و كذا الماء ساكنا فإذا حرّك ثارت من قعره الأقذاء

قلت: و فى هذين البيتين شرح حال زماننا هذا لكثرة من ترقّى فيه من الأوباش إلى الرّتب السنيّة من كلّ طائفة، و قد أذكرنى ذلك واقعة جرت فى أوّل سلطنة الملك الأشرف إينال، و هى أنّ بعض أوباش الخاصكيّة ممّن ليس له ذات و لا أدوات وقف إلى السلطان و طلب منه إمرة عشرة، و قال له: يا مولانا السلطان، إمّا أن تنعم علىّ بإمرة عشرة و إلّا وسّطنى هنا؛ و قيل: إنّه تمدّد و نام بين يديه حتّى أخذ إمرة عشرة؛ و هو معروف لا يحتاج إلى تسميته. و من هذه المقولة شىء كثير، و مع ذلك خرج الزمان و للدولة أعيان، فلا قوّة إلّا باللّه.

و فيها توفّى أبو الهيجاء السّمين الأمير حسام الدين الكردىّ المقدّم ذكره فى عدّة أماكن، و ذكرنا أيضا دخوله إلى بغداد، و أنّه صار

من جملة أمراء الخليفة حتى سيّره إلى همذان، فلم يتمّ له أمر، و اختلف أصحابه عليه فاستحيا أن يعود إلى بغداد، فسار إلى الشام و مرض بها و مات بعد أيّام. و كان أميرا شجاعا مقداما عارفا متجمّلا سيوسا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبعان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۶

ذكر ولاية الملك المنصور محمد على مصر

اختلف المؤرّخون فيمن ولى ملك مصر بعد موت الملك العزيز عثمان ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. فمن الناس من قال: أخوه الأفضل نور الدين علىّ بن صلاح الدين يوسف بن أيّوب؛ و منهم من قال: ولده الملك المنصور محمد هذا. و الصواب المقالة الثانية، فإنّه كان ولّاه والده العزيز من بعده، و إليه أوصى العزيز بالملك، و أيضا ممّا يقوّى المقالة الثانية أنّ المنصور كان تحت كنف والده العزيز بمصر، و كان الأفضل بصرخد، و لم يحضر إلى مصر، حتّى تمّ أمر المنصور و تسلطن بعد موت أبيه. و بيان ذلك أيضا يأتى فيما نذكره الآن فى سياق ترجمة الملك المنصور، فيعرف بهذا السياق من كان فى هذه المدّة السلطان بمصر إلى حين ملك الملك العادل أبو بكر بن أيّوب؛ فنقول:

لمّا مات الملك العزيز عثمان بديار مصر فى العشرين من المحرّم أوصى بالملك لأكبر أولاده و هو ناصر الدين محمد المذكور، و نصّ عليه فى الوصيّة؛ و كان للعزيز عشرة أولاد، و لم يذكر فى الوصيّة عمّه العادل؛ و جعل وصيّه الأمير أزكش مقدّم الأسديّة.

قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: «كان لابنه محمد عشر سنين و كان مقدّم الصلاحيّة فخر الدين جهاركس، و أسد الدين سرا سنقر، و زين الدين قراجا؛ فاتّفقوا على ناصر الدين محمد و حلّفوا له الأمراء؛ و كان سيف الدين أزكش مقدّم الأسديّة غائبا بأسوان، فقدم و صوّب رأيهم و ما فعلوه، إلّا أنّه قال: هو صغير السن لا ينهض بأعباء الملك، و لا بدّ من تدبير كبير يحسم الموادّ و يقيم الأمور، و العادل مشغول فى الشرق بماردين، و ما ثمّ أقرب من الأفضل نجعله أتابك العساكر، فلم يمكن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۷

الصلاحيّة مخالفة الأسديّة و قالوا: افعلوا ففعلوا. فكتب أزكش إلى الأفضل يستدعيه و هو بصرخد. و كتبت الصلاحيّة إلى من بدمشق من أصحابهم يقولون: قد اتّفقت الأسديّة على الأفضل، و إن ملك الأفضل الديار المصريّة حكموا علينا، فامنعوا الأفضل من المجىء؛ فركب عسكر دمشق ليمنعوه ففاتهم؛ و كان الأفضل قد التقى النّجّاب المتوجّه إلى دمشق ثانيا من قبل الصلاحيّة، و على يده الكتب التى تتضمّن ما ذكرناه من منع الأفضل من المجىء إلى الديار المصريّة، فأخذ الأفضل النّجّاب و عاد به إلى مصر، و لمّا وصل الأفضل إلى مصر التقاه الأسديّة و الصلاحيّة، و رأى جهاركس النّجّاب الذى أرسله، فقال له: ما أسرع ما عدت! فأخبره الخبر، فساق هو و قراجا بمن معهما من وقتهما إلى القدس و تحصّنا به. فلمّا وقع ذلك أشارت الأسديّة على الأفضل بقصد دمشق، و أنّ العادل مشغول بماردين.

فكتب الأفضل إلى أخيه الملك الظاهر غازى صاحب حلب يستنجده، فأجابه و قال: اقدم حتّى أساعدك. فسار الأفضل بالعساكر المصريّة إلى الشام و استناب بمصر سيف الدين أزكش، و وصل الأفضل إلى دمشق فى شعبان من السنة فأحدق بها. و بلغ هذا الخبر الملك العادل و هو على ماردين، و قد أقام عليها عشرة أشهر، و لم يبق إلّا تسليمها و صعدت أعلامه على القلعة؛ فلمّا سمعوا بوفاة العزيز توقّفوا عن تسليمها؛ فرحل الملك العادل أبو بكر عنها، و ترك على حصارها ولده الكامل محمدا الآتى ذكره فى سلاطين مصر- إن شاء اللّه تعالى- و سار العادل إلى نحو الشام فوصلها و معه جماعة من الأمراء؛ و كان الأفضل نازلا فى الميدان الأخضر فأشار عليه جماعة من الأمراء أن يتأخّر إلى مشهد القدم [حتّى يصل الظاهر و صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۸

حمص و الأمراء]. و دخل العادل و من معه إلى دمشق، و جاء الظاهر بعسكر حلب، و جاء عسكر حماة و حمص، و بشارة من بانياس، و عسكر الحصون، و سعد الدين مسعود صاحب صفد، و ضايقوا دمشق و بها العادل، و كسروا باب السلامة؛ و جاء آخرون إلى باب الفراديس و كان العادل فى القلعة و قد استأمن إليه جماعة من المصريين مثل ابن كهدان و مثقال الخادم و غيرهما. فلمّا بلغه أنّ ابن الحنبلىّ و أخاه شهاب الدين و أصحابهما قد كسروا باب الفراديس ركب من وقته و خرج إليهم و جاء إلى جيرون و المجد أخو الفقيه عيسى قائم على فرسه يشرب الفقّاع، ثم صاح العادل: يا فعلة يا صنعة إلى هاهنا! فلمّا سمعوا كلامه انهزموا و خرجوا؛ فأغلق العادل باب السلامة، و جاء إلى باب الفراديس فوجدهم قد كسروا الأقفال بالمرزبّات؛ فقال من فعل هذا؟ قالوا: الحنابلة؛ فسكت و لم يقل شيئا. و قال أبو المظفّر:

و حكى لى المعظّم عيسى- رحمه اللّه- قال: [لمّا] رجعنا من باب الفراديس [و] وصلنا إلى باب مدرسة الحنابلة رمى على رأس أبى (يعنى العادل) حبّ الزّيت فأخطأه، فوقع فى رقبة الفرس فوقع ميتا، فنزل أبى و ركب غيره و لم ينطق بكلمة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۴۹

و جاء جهاركس و قراجا فى اللّيل من جبل سنير فدخلا دمشق. و أمّا المواصلة فساقوا على الكامل محمد فرحّلوه عن ماردين، فجاء أيضا يقصد دمشق، و جمع النّركمان و غيرهم.

و أمّا أمر دمشق فإنّه لمّا اشتدّ الحصار عليها، و قطعوا أشجارها و مياهها الداخلة إليها، انقطعت عن أهلها الميرة و ضجّوا، فبعث العادل إلى ابن أخيه الظاهر غازى صاحب حلب يقول له: أنا أسلّم إليك دمشق على أن تكون أنت السلطان، و تكون دمشق لك لا للأفضل، فطمع الظاهر و أرسل إلى الأفضل يقول: أنت صاحب مصر فآثرنى بدمشق، فقال الأفضل: دمشق لى من أبى، و إنّما أخذت منّى غصبا. فلا أعطيها لأحد، فوقع الخلف بينهما و وقع التقاعد، و خرجت السّنة على هذا.

ثمّ دخلت السنة السادسة و التسعون، و الحصار على دمشق. و كان أتابك أرسلان شاه صاحب الموصل قد رحّل الكامل من ماردين كما تقدّم ذكره. فقدم الكامل دمشق و معه خلق كثير من التّركمان و عسكر حرّان و الرّها، فتأخّر الأفضل بالعساكر إلى عقبة الشّحورة فى سابع عشر صفر. و وصل الكامل فى تاسع عشره فنزل بجوسق أبيه على الشرف، ثم رحل الأفضل إلى مرج الصّفّر، و رحل الظاهر إلى حلب، و أحرقوا ما عجزوا عن حمله. و سار الأفضل إلى مصر. و أحضر العادل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۰

بنى الحنبلىّ: الناصح و أخاه شهاب الدين و غيرهما، و كان الأفضل قد وعد الناصح بقضاء دمشق، و الشهاب بالحسبة، فقال لهم العادل: ما الذى دعاكم إلى كسر باب الفراديس، و مظاهرة أعدائى علىّ، و سفك دمى؟ فقال له الناصح: أخطأنا و ما ثمّ إلّا عفو السلطان.

- ثم ساق أبو المظفّر كلاما طويلا محصوله العفو عن الحنابلة، إلى أن قال-:

و أمّا الأفضل فإنّه سار إلى مصر، فأرسل العادل وراءه [أبا محمد] نجيب الدين إليه بالزّبدانىّ يقول [له]: ترفّق، فأنا لك مثل الوالد، و عندى كلّ ما تريد. فقال الأفضل: قل له: إن صحّت مقالتك فأبعد عنك أعدائى الصّلاحيّة. و بلغ ذلك الصلاحيّة، فقالوا للعادل: إيش قعودنا هنا؟ قم بنا، و ساروا خلف الأفضل مرحلة مرحلة؛ فنزل الأفضل بلبيس و نزل العادل السائح؛ فرجع الأفضل و ضرب معهم المصافّ، و تقاتلوا فانكسر الأفضل و تفرّق عنه أصحابه؛ و رحل إلى القاهرة و أغلق أبوابها. و جاء العادل فنزل البركة، و دخل سيف الدين أزكش بين العادل و الأفضل، و اتّفقوا أن يعطيه العادل ميّافارقين و جبل جور و ديار بكر، و يأخذ منه مصر؛ فاتّفق الأمر على ذلك.

و رحل الأفضل من مصر فى شهر ربيع الآخر، و دخل العادل إلى القاهرة، و أحسن إلى أزكش، و قال للأفضل: جميع من كان معك كاتبنى إلّا سيف الدين أزكش. ثمّ قدّم العادل أزكش المذكور و حكّمه فى البلاد، و ردّ القضاء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۱

إلى صدر الدين عبد الملك بن درباس الكردىّ، و ولىّ شيخ الشيوخ ابن حمّويه التدريس بالشافعىّ و مشهد الحسين و النّظر فى خانقاه الصّوفيّة، و جلس الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر فى دار السلطنة فى حجرة القاضى الفاضل، و نظر فى الدواوين. و سار الأفضل إلى ميّافارقين. و استدعى العادل ولده الكامل إلى مصر فخرج من دمشق فى ثالث عشرين شعبان و ودّعه أخوه الملك المعظّم عيسى إلى رأس الماء. قال العماد الكاتب: و سرت معه إلى مصر و أنشدته:

دعتك مصر إلى سلطانها فأجب دعاءها فهو حقّ غير مكذوب

قد كان يهضمنى دهرى فأدركنى محمد بن أبى بكر بن أيّوب

و وصل الكامل إلى مصر فى عاشر شهر رمضان، و التقاه أبوه العادل من العبّاسة، و أنزله فى دار الوزارة. و كان قد زوّجه بنت أخيه صلاح الدين فدخل بها.

و لم يقطع العادل الخطبة لولد العزيز.

قلت: و هذا ممّا يدلّ أيضا على أنّ الأفضل كان عند الملك المنصور محمد ابن العزيز عثمان بمنزلة الأتابك. و الظاهر أنّه كان ظنّ الأفضل إذا تمّ أمره مع عمّه العادل هذا استقلّ بالملك، فلم يقع له ذلك؛ و لهذا لم نذكره فى ملوك مصر، و ما ذكرناه هنا إلّا فى ضمن ترجمة المنصور صاحب الترجمة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۲

قال: ثم إنّه جمع الفقهاء (يعنى الملك العادل) و قال لهم: هل يجوز ولاية الصغير على الكبير؟ فقالوا: الصغير مولّى عليه. قال: فهل يجوز للكبير أن ينوب عن الصغير؟ قالوا: لا، لأنّ الولاية من الأصل إذا كانت غير صحيحة فكيف تصحّ النيابة! فعند ذلك قطع خطبة ابن العزيز (يعنى عن المنصور صاحب الترجمة) و خطب لنفسه و لولده الكامل من بعده. و نقص النيل فى هذه السنة و لم يبلغ ثلاث عشرة ذراعا. و وقع الغلاء بديار مصر».

قلت: و على هذا يكون أوّل سلطنة العادل على مصر فى يوم خطب له بمصر؛ و هو يوم الجمعة الحادى و العشرين من شوّال سنة ست و تسعين و خمسمائة.

قال ابن المستوفى فى تاريخ إربل: فتكون أوّل سلطنة الملك العادل من هذا اليوم، و لا عبرة باستيلائه على مصر قبل ذلك. و على هذا أيضا تكون مدّة الملك المنصور محمد صاحب الترجمة على سلطنة مصر سنة واحدة و تسعة أشهر سواء، فإنّ والده العزيز عثمان مات فى عشرين المحرّم من سنة خمس و تسعين و خمسمائة فتسلطن من يوم موت أبيه، و خلع فى العشرين من شوّال سنة ست و تسعين و خمسمائة.

انتهى. و لم أقف على وفاته الآن.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۵]

السنة الأولى من ولاية الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان ابن الملك الناصر يوسف على مصر، و هى سنة خمس و تسعين و خمسمائة، على أنّ الملك العزيز والده حكم منها نحو العشرين يوما من المحرّم كما تقدّم ذكره.

فيها حجّ بالناس من بغداد مظفّر الدين وجه السّبع.

و فيها كانت وفاة الملك العزيز عثمان حسب ما تقدّم ذكره فى ترجمته.

و فيها توفّى يحيى بن علىّ بن الفضل أبو القاسم بن فضلان مدرّس النّظاميّة، كان فقيها بارعا، قدم بغداد و ناظر و أفتى و درّس، و كان مقطوع اليد، وقع من الجمل فعملت عليه يده فحيف عليه فقطعت. و كانت وفاته فى شعبان. و من شعره:

- رحمه اللّه تعالى-:

و إذا أردت منازل الأشراف فعليك بالإسعاف و الإنصاف

و إذا بغى باغ عليك فخلّه و الدهر فهو له مكاف كاف

و فيها توفّى يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملك المنصور أبو يوسف صاحب المغرب. كان ملكا مغازيا مجاهدا، و هو الذى كسر ألفنش ملك الفرنج المقدّم ذكره على الزّلّاقة، و هو أعظم ملوك المغرب و أحسنهم سيرة لما كان جمع من المحاسن: الدّين و الصلاح و الشجاعة و الكرم و الحزم و العزم، و دام فى ملكه إلى أن مات فى شهر ربيع الأوّل بعد أن أوصى بالملك إلى ولده أبى عبد اللّه محمد.

و كانت مدّة أيامه خمس عشرة سنة. و فيه يقول شاعره أبو بكر يحيى بن عبد الجليل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۴

ابن عبد الرحمن بن مجير الأندلسىّ المرسىّ قصيدته المطوّلة، و عدّة أبياتها مائة و سبعة أبيات. أوّلها:

أ تراه يترك الغزلا و عليه شبّ و اكتهلا

و مدحه أيضا إبراهيم بن يعقوب الشاعر المشهور بقصيدة طنّانة أوّلها:

أزال حجابه عنى و عينى تراه من المهابة فى حجاب

و قرّ بنى تفضّله و لكن بعدت مهابة عند اقترابى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى الملك العزيز عثمان ابن صلاح الدين يوسف بن أيّوب صاحب مصر فى المحرّم، و له ثمان و عشرون سنة.

و الحفيد ابن رشد العلّامة أبو الوليد محمد بن أحمد بن أبى الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبىّ المتكلّم. و أبو جعفر محمد بن إسماعيل الطّرسوسىّ بأصبهان فى جمادى الآخرة. و أبو الحسن مسعود بن أبى مسعود الأصبهانىّ الخيّاط الجمّال فى شوّال.

و أبو الفضل منصور بن أبى الحسن الطّبرىّ الصوفىّ الواعظ. و العلّامة جمال الدّين يحيى بن علىّ بن فضلان البغدادىّ الشافعىّ فى شعبان. و صاحب المغرب المنصور أبو يوسف يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن القيسىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۵

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۶]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك المنصور محمد ابن الملك العزيز عثمان على مصر، على أنّه حكم فى آخرها من شهر رمضان إلى آخر السنة عمّ أبيه الملك العادل أبو بكر ابن أيّوب، و هى سنة ستّ و تسعين و خمسمائة.

فيها توفّى تكش بن أرسلان شاه بن أتسز الملك علاء الدّين خوارزم شاه، هو من ولد طاهر بن الحسين. كان شجاعا مقداما جودا، ملك الدنيا من الصّين و الهند و ما وراء النهر إلى خراسان إلى باب بغداد، و كان نوّابه فى حلوان، و كان فى ديوانه مائة ألف مقاتل،

و هو الذى أزال دولة بنى سلجوق، و كان عارفا بعلم الموسيقى؛ و لم يكن فى زمانه أعرف منه بضرب العود، و كان يباشر الحروب بنفسه حتّى ذهبت إحدى عينيه فى الحرب، و كان قد عزم على أخذ بغداد و سار إليها؛ فلمّا وصل إلى دهستان توفّى بها فى شهر رمضان. و وقع له فى مسيره إلى أخذ بغداد فى هذه المرّة طريفة: و هو أنّ الباطنيّة جهّزوا إليه رجلا ليقتله، و كان قوىّ الاحتراس، فجلس تلك الليلة يلعب بالعود، و قد شرّع الخيمة و غنّى بيتا بالعجميّة، و فيه «ببيتم» و معناه بالعجمىّ: أبصرتك؛ و كرّر هذه اللفظة؛ فلمّا سمع الباطنىّ ذلك خاف و ظنّ أنه رآه فهرب، فأخذ و حمل إليه فعزّره و أمر بقتله. فكان ذلك من الطرائف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۶

و فيها توفّى إمام عصره و وحيد دهره، القاضى الفاضل عبد الرحيم ابن القاضى الأشرف أبى المجد علىّ [ابن القاضى السعيد أبى محمد محمد] بن الحسن بن الحسين ابن أحمد [بن المفرّج بن أحمد] اللّخمىّ العسقلانىّ المولد، المصعرىّ [الدار]، المعروف بالقاضى الفاضل الملقّب محيى الدين؛ وزير السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب.

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: [و] تمكّن منه غاية التمكّن (يعنى من صلاح الدين) و برز فى صناعة الإنشاء وفاق المتقدّمين، و له فيه الغرائب مع الإكثار. أخبرنى أحد الفضلاء الثّقات المطّلعين على حقيقة أمره: أنّ مسودات رسائله فى المجلّدات، و التعليقات فى الأوراق إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد، و هو مجيد فى أكثرها.

قال العماد الكاتب الأصبهانىّ فى كتاب الخريدة فى حقّه: «ربّ القلم و البيان، و اللّسن و اللّسان؛ و القريحة الوقّادة، و البصيرة النقّادة؛ و البديهة المعجزة، و البديعة المطرّزة؛ و الفضل الذى ما سمع فى الأوائل ممّن لو عاش فى زمانه لتعلّق فى غباره، أو جرى فى مضماره؛ فهو كالشريعة المحمديّة التى نسخت الشرائع، و رسخت بها الصنائع؛ يخترع الأفكار، و يفترع الأبكار، و يطلع الأنوار، و يبدع الأزهار؛ و هو ضابط الملك بآرائه، و رابط السلك بلألائه؛ إن شاء أنشأ فى اليوم الواحد بل فى الساعة، ما لو دوّن لكان لأهل الصناعة، [خير] بضاعة» انتهى كلام العماد باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۱۵۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۷

و قال غيره: و كان مع فضله كثير العبادة تاليا للقرآن العزيز دينّا خيّرا، و كان السلطان صلاح الدين يقول: لا تظنّوا أنّى ملكت البلاد بسيوفكم، بل بقلم الفاضل. و كان بين الفاضل و بين الملك العادل أبى بكر بن أيّوب وحشة، فلمّا بلغ الفاضل مجىء العادل إلى مصر دعا اللّه على نفسه بالموت، فمات قبل دخوله.

و قيل: إنّ العادل كان داخلا من باب النصر، و جنازة الفاضل خارجة من باب زويلة. انتهى.

قلت: و فضل الفاضل و بلاغته و فصاحته أشهر من أن يذكر. و من شعره:

قوله:

و إذا السعادة لاحظتك عيونها نم فالمخاوف كلّهنّ أمان

و اصطد بها العنقاء فهى حبائل و اقتد بها الجوزاء فهى عنان

و قد استشهد علماء البديع بكثير من شعره فى أنواع كثيرة، فممّا ذكره الشيخ تقىّ الدين أبو بكر [بن علىّ] بن حجّة فى شرح بديعيّته فى نوع «تجاهل العارف» قوله من قصيدة:

أهذى كفّه أم غوث غيث و لا بلغ السحاب و لا كرامه

و هذا بشره أم لمع برق و من للبرق فينا بالإقامه

و هذا الجيش أم صرف اللّيالى و لا سبقت حوادثها زحامه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۸

و هذا الدهر أم عبد لديه يصرّف عن عزيمته زمامه

و هذا نصل غمد أم هلال إذا أمسى كنون أم قلامه

و هذا التّرب أم خدّ لثمنا فآثار الشّفاه عليه شامه

و منها و هو غير تجاهل العارف [و لكنّه من المرقص و المطرب]:

و هذا الدرّ منثور و لكن أرونى غير أقلامى نظامه

و هذى روضة تندى و سطرى بها غصن و قافيتى حمامه

و هذا الكأس روّق من بنانى و ذكرك كان من مسك ختامه

و ذكر أيضا فى «تجاهل العارف» قوله من قصيدة:

أهذه سير فى المجد أم سور و هذه أنجم فى السعد أم غرر

و أنمل أم بحار و السيوف لها موج و إفرندها فى لجّها درر

و أنت فى الأرض أم فوق السماء و فى يمينك البحر أم فى وجهك القمر

و فيها توفّى علىّ بن نصر بن عقيل المعروف بالهمام البغدادىّ العبدىّ الشاعر المشهور، قدم الشام و مدح الملك العادل، و الملك الأمجد صاحب بعلبك. و من شعره:

و ما الناس إلّا كامل الحظّ ناقص و آخر منهم ناقص الحظّ كامل

و إنّى لمثر من حياء و عفّة و إن لم يكن عندى من المال طائل

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر أحمد ابن علىّ القرطبىّ المقرئ إمام الكلّاسة. و إسماعيل بن صالح بن يس بمصر فى ذى الحجّة. و أبو سعيد خليل بن أبى الرجاء الرّارانىّ الصوفىّ فى شهر ربيع الآخر،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۵۹

و له ست و تسعون سنة. و السلطان علاء الدين خوارزم شاه تكش بن خوارزم شاه أرسلان بن أتسز بن محمد فى رمضان بالخوانيق، و تملّك بعده ابنه علاء الدين محمد. و القاضى الفاضل أبو علىّ عبد الرحيم بن علىّ [بن محمد] بن حسن اللّخمىّ البيسانىّ الوزير فى شهر ربيع الآخر، و له سبع و ستون سنة. و أبو الحسن عبد اللطيف بن إسماعيل ابن [أبى] سعد الصّوفىّ فى ذى الحجّة بدمشق. و أبو الفرج عبد المنعم بن عبد الوهاب [بن سعد بن صدقة بن الحضر] بن كليب فى شهر ربيع الأول، و له ست و تسعون سنة و شهر. و الأثير أبو الفضل محمد بن محمد بن بيان الأنبارىّ ثم المصرىّ الكاتب فى شهر ربيع الآخر. و العلّامة شهاب الدين محمد بن محمود الطّوسىّ بمصر.

و أبو جعفر المبارك بن المبارك بن أحمد بن زريق الواسطىّ الحدّاد المقرئ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يذكر لقلّته. و كان مبلغ الزيادة فى هذه السنة اثنتى عشرة ذراعا و إحدى و عشرين إصبعا. و شرقت الأراضى، و عمّ البلاء و الغلاء الديار المصريّة و أعمالها.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۰

ذكر ولاية الملك العادل على مصر

هو السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد ابن الأمير أبى الشكر نجم الدين أيّوب بن شادى بن مروان الدّوينىّ التّكريتىّ ثم الدمشقىّ. و قد تقدّم ذكر نسبه و أصله فى ترجمة أخيه السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب. و قد ذكرنا أيضا من أحوال العادل هذا نبذة كبيرة فى ترجمة أخيه صلاح الدين المذكور، و أيضا فى ترجمة أولاده، ثم فى ترجمة حفيده الملك المنصور محمد ابن

الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف، الذى خلعه العادل هذا و تسلطن مكانه فى العشرين من شوّال سنة ستّ و تسعين و خمسمائة. و قد تقدّم ذلك كلّه فى ترجمة المنصور محمد المخلوع عن السلطنة. و لا بدّ من ذكر شىء من أحوال العادل هنا على حدته، و إيراد قطعة جيّدة من أقوال الناس فى ترجمته- إن شاء اللّه تعالى-.

قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين محمد الذهبىّ فى تاريخه: «ولد ببعلبكّ فى سنة أربع و ثلاثين، و أبوه نائب عليها للأتابك زنكى والد نور الدين محمود، و هو أصغر من أخيه صلاح الدين بسنتين؛ و قيل: ولد فى سنة ثمان و ثلاثين؛ و قيل:

ولد فى أوائل سنة أربعين. قال أبو شامة: توفّىّ الملك العادل سيف الدين أبو بكر محمد، و هو بكنيته أشهر. و مولده ببعلبكّ، و عاش ستّا و سبعين سنة.

و نشأ فى خدمة نور الدين مع أبيه و إخوته؛ [و حضر مع أخيه صلاح الدين فتوحاته و قام أحسن قيام فى الهدنة مع الأنكلتير ملك الفرنج بعد أخذهم عكّا]، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۱

صلاح الدين يعوّل عليه كثيرا، و استنابه بمصر مدّة، ثم أعطاه حلب، ثم أخذها منه و أعطاها لولده الظاهر، و أعطاه الكرك عوضها، ثم حرّان». انتهى كلام الذهبىّ.

و قال الشيخ شمس الدين أحمد بن خلّكان- رحمه اللّه- فى وفيات الأعيان:

«كان الملك العادل قد وصل إلى مصر صحبة أخيه و عمّه أسد الدين شيركوه المقدّم ذكره. و كان يقول: لمّا عزمنا على المسير إلى مصر احتجت الى چرمدان فطلبته من والدى فأعطانى، و قال يا أبا بكر: إذا ملكتم مصر أعطونى ملأه ذهبا.

فلمّا جاء إلى مصر، قال يا أبا بكر: [أين] الجرمدان؟ فرحت و ملأته له من الدّراهم السّود، و جعلت على أعلاها شيئا من الذهب و أحضرته إليه، فلمّا رآه اعتقده ذهبا، فقلبه فظهرت الفضّة السوداء، فقال يا أبا بكر: تعلمت زغل المصريّين! قال: و لمّا ملك السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب مصر كان ينوب عنه فى حال غيبته بالشام، و يستدعى منه الأموال للإنفاق فى الجند و غيرهم. قال:

و رأيت فى بعض رسائل القاضى الفاضل أنّ الحمول تأخّرت مدّة فتقدّم السلطان صلاح الدين إلى العماد الأصبهانىّ أن يكتب إلى أخيه العادل يستحثّه على إنفاذها حتّى قال: يسير [لنا] الحمل من مالنا أو من ماله! فلمّا وصل الكتاب إليه، و وقف على هذا الفصل شقّ عليه، و كتب إلى القاضى الفاضل يشكو من السلطان لأجل ذلك. فكتب القاضى الفاضل جوابه، و فى جملته: «و أمّا ما ذكره المولى من قوله: يسير لنا الحمل من مالنا أو من ماله، فتلك لفظة ما المقصود منها من الملك النّجعة، و إنّما المقصود من الكاتب السّجعة. و كم من لفظة فظّة، و كلمة فيها غلظة؛ حيّرت عيىّ الأقلام، فسدّت خلل الكلام. و على المملوك الضمان فى هذه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۲

النّكتة، و قد فات لسان القلم منها أىّ سكتة». قال: و لمّا ملك السلطان (يعنى صلاح الدين) مدينة حلب فى صفر سنة تسع و سبعين و خمسمائة كما تقدّم ذكره، [أعطاها لولده الملك الظاهر غازى ثم أخذها منه و] أعطاها للملك العادل فانتقل إليها [و قصد قلعتها يوم الجمعة الثانى و العشرين] من شهر رمضان من السنة المذكورة؛ ثم نزل عنها للملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين؛ ثم أعطاه السلطان قلعة الكرك، و تنقّل فى الممالك فى حياة السلطان صلاح الدين و بعد وفاته. و قضاياه مشهورة مع الملك الأفضل و الملك العزيز و الملك المنصور فلا حاجة إلى الإطالة فى شرحها. و آخر الأمر أنّه استقلّ بملكة الديار المصريّة. و كان دخوله إلى القاهرة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر سنة ست و تسعين و خمسمائة، و استقرّت له القواعد. و قال أبو البركات بن المستوفى فى تاريخ إربل: فى ترجمة ضياء الدين أبى الفتح نصر اللّه المعروف بابن الأثير [الوزير] الجزرىّ ما مثاله- و جدت بخطّه-: خطب للملك العادل أبى بكر بن أيّوب بالقاهرة و مصر يوم الجمعة الحادى و العشرين من شوّال سنة ست و تسعين و خمسمائة، و خطب له بحلب يوم الجمعة حادى عشر جمادى الآخرة سنة ثمان و تسعين و خمسمائة- و اللّه أعلم بالصواب- هذا ما ذكره ابن خلّكان و هو بخلاف

ما ذكرناه من أنّه خطب له فى عاشر شهر رمضان من السنة، و يمكن الجمع بين القولين، لأنّنا قلنا فى شهر رمضان تخمينا، لأنّ الاتّفاق كان فى شهر رمضان، و لعلّ الخطبة كانت فى شوّال- انتهى.

قال: «و ملك مع ذلك البلاد الشاميّة و المشرقيّة، و صفت له الدنيا، ثم ملك بلاد اليمن فى سنة اثنتى عشرة و ستمائة [و] سيّر إليها ولد ولده الملك المسعود صلاح الدين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۳

أبا المظفر يوسف ابن الملك الكامل محمد الآتى ذكره. و كان ولده الملك الأوحد نجم الدين أيّوب ينوب عنه فى ميّافارقين و تلك النواحى، فاستولى على مدينة خلاط و [بلاد] أرمينية، و اتّسعت مملكته، و ذلك فى سنة أربع و ستمائة.

و لمّا تمهدت له البلاد قسمها بين أولاده، فأعطى الملك الكامل محمدا الديار المصريّة، و أعطى الملك المعظّم عيسى البلاد الشاميّة، و أعطى الملك الأشرف موسى البلاد الشرقية، و الأوحد فى المواضع التى ذكرناها. و كان ملكا عظيما ذا رأى و معرفة تأمّة قد حنّكته التجارب، حسن السّيرة جميل الطويّة وافر العقل، حازما فى الأمور صالحا محافظا على الصلوات فى أوقاتها، متتبعا لأرباب السّنّة مائلا إلى العلماء.

صنّف له فخر الدين الرازىّ «كتاب تأسيس التقديس»، و ذكر اسمه فى خطبته، و سيره إليه من بلاد خراسان. و بالجملة فإنّه كان رجلا مسعودا، و من سعادته أنّه كان خلّف أولادا لم يخلّف أحد من الملوك أمثالهم؛ فى نجابتهم [و بسالتهم] و معرفتهم و علوّ همّتهم، و دان لهم العباد و ملكوا البلاد. و لمّا مدحه ابن عنين بقصيدته الرائية ذكر منها فى مديح أولاده المذكورين، فقال:

و له البنون بكلّ أرض منهم ملك يقود إلى الأعادى عسكرا

من كلّ وضّاح الجبين تخاله بدرا و إن شهد الوغى فغضنفرا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۴

متقدّم حتّى إذا النّقع انجلى بالبيض عن سبى الحريم تأخّرا

قوم زكوا أصلا و طابوا محتدا و تدفّقوا جودا و راقوا منظرا

قال و من جملة هذه القصيدة فى مدح الملك العادل هذا قوله، و لقد أحسن فيها،

[العادل الملك الذى أسماؤه فى كلّ ناحية تشرّف منبرا]

و بكلّ أرض جنّة من عدله الصّ افى أسال [نداه] فيها كوثرا

عدل يبيت الذئب منه على الطّوى غرثان و هو يرى الغزال الأعفرا

ما فى أبى بكر لمعتقد الهدى شكّ مريب أنّه خير الورى

سيف صقال المتن أخلص متنه و أبان طيب الأصل منه الجوهرا

ما مدحه بالمستعار له و لا آيات سؤدده حديث يفترى

بين الملوك الغابرين و بينه فى الفضل ما بين الثّريّا و الثّرى

نسخت خلائقه الحميدة ما أتى فى الكتب عن كسرى الملوك و قيصرا

ملك إذا خفّت حلوم ذوى النّهى فى الرّوع زاد رصانة و توقّرا

ثبت الجنان تراع من و ثباته و ثباته يوم الوغى أسد الشّرى

يقظ يكاد يقول عمّا فى غد ببديهة أغنته أن يتفكّرا

حلم تخفّ له الحلوم وراءه رأى و عزم يخفر الإسكندرا

يعفو عن الذنب العظيم تكرّما و يصدّ عن قيل الخنا متكبّرا

لا تسمعنّ حديث ملك غيره يروى فكلّ الصّيد فى جوف الفرا

قال: و لمّا قسم البلاد بين أولاده كان يتردّد بينهم، و يتنقّل من مملكة إلى أخرى، و كان يصيف بالشام لأجل الفواكه و المياه الباردة، و يشتّى بالديار المصريّة لاعتدال

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۵

الوقت فيها و قلّة البرودة؛ و عاش فى أرغد عيش. و كان يأكل كثيرا خارجا عن المعتاد، حتّى يقال إنّه كان يأكل وحده خروفا لطيفا مشويّا، و كان له فى النكاح نصيب وافر. و حاصل الأمر أنّه كان ممتّعا فى دنياه. و كانت ولادته بدمشق فى المحرّم سنة أربعين؛ و قيل: ثمان و ثلاثين و خمسمائة.

قلت: وافق الذهبىّ فى مولده فى السنة، مع خلاف ذكره الذهبىّ فيه، و خالفه فى المكان الذى ولد فيه، فإنّ الذهبىّ قال: كانت ولادته ببعلبكّ كما تقدّم ذكره.

قال: و توفّى فى سابع جمادى الآخرة سنة خمس عشرة و ستمائة بعالقين. و نقل إلى دمشق، و دفن بالقلعة ثانى يوم وفاته، ثمّ نقل إلى مدرسته المعروفة به، و دفن بالتّربة التى بها؛ [و قبره] على الطريق يراه المجتاز من الشّبّاك المركّب هناك. و عالقين (بفتح العين المهملة و بعد الألف لام مكسورة و قاف مكسورة أيضا و ياء مثناة من تحتها ساكنة و بعدها نون) و هى قرية بظاهر دمشق». انتهى كلام ابن خلّكان- رحمه اللّه تعالى- بتمامه.

و قال غيره: و لمّا افتتح ولده الكامل إقليم أرمينية فرح العادل فرحا شديدا، و سيّر أستاداره [شمس الدين] إيلدكز و قاضى العسكر نجم الدين خليل إلى الخليفة يطلب التقليد بمصر و الشام و خلاط و بلاد الجزيرة، فأكرمهما الخليفة و أرسل إليه الشيخ شهاب الدين أبا حفص عمر بن محمد السّهروردىّ بالتشريف، و مرّ بحلب و وعظ بها؛ و احترمه الظاهر غازى صاحب حلب، و بعث معه بهاء الدّين ابن شدّاد بثلاثة آلاف دينار لينثرها على عمّه العادل، إذا لبس خلعة الخليفة. و لمّا وصل السّهروردىّ إلى دمشق فرح العادل و تلقّاه من القصير، و كان يوما مشهودا،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۶

ثمّ من الغد أفيضت عليه الخلع؛ و هى: جبّة سوداء بطراز ذهب، و عمامة سوداء بطراز ذهب، و طوق ذهب فيه جوهر، و قلّد سيفا محلّى جميع قرابه بالذهب، و حصان أشهب بمركب ذهب، و علم أسود مكتوب فيه بالبياض ألقاب الناصر لدين اللّه. ثمّ خلع السّهروردىّ على ولدى العادل: المعظّم عيسى و الأشرف موسى، لكلّ واحد عمامة سوداء، و ثوبا أسود واسع الكمّ؛ و خلع على الصاحب ابن شكر كذلك. و نثر الذهب على رأس العادل من رسل صاحب حلب و حماة و حمص و غيرهم.

و ركب الأربعة (أعنى العادل و ولديه و ابن شكر الوزير) بالخلع، ثمّ عادوا إلى القلعة؛ و قرأ ابن شكر التقليد على كرسىّ، و خوطب العادل: بشاهنشاه ملك الملوك خليل أمير المؤمنين. ثمّ قدم السّهروردىّ إلى مصر و خلع على الملك الكامل بن العادل.

و هو يوم ذاك صاحب مصر نيابة عن أبيه العادل كما تقدّم ذكره.

و قال الموفّق عبد اللّطيف فى سيرة الملك العادل: «كان أصغر الإخوة و أطولهم عمرا و أعمقهم فكرا و أبصرهم فى العواقب و أشدّهم إمساكا و أحبّهم للدرهم؛ و كان فيه حلم و أناة و صبر على الشدائد، و كان سعيد الجدّ عالى الكعب مظفّرا بالأعداء من قبل السماء، و كان نهمّا أكولا- يحبّ الطعام و اختلاف ألوانه، و كان أكثر أكله باللّيل كالخيل، و له عند ما ينام رضيع، و يأكل رطلا بالدّمشقىّ خبيص السّكّر، يجعل هذا كالجوارش؛ و كان كثير الصلاة و يصوم الخميس؛ و له صدقات فى كثير من الأوقات، و خاصّة عندما تنزل به الآفات، و كان كريما على الطعام يحب من يؤاكله، و كان قليل الأمراض. قال لى طبيبه بمصر: إنّى آكل خير هذا السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۷

سنين كثيرة و لم يحتج إلىّ سوى يوم واحد، أحضر إليه من البطّيخ أربعون حملا- فكسر الجميع بيده، و بالغ فى الأكل منه و من الفواكه و الأطعمة، فعرض له تخمة فأصبح، فأشرت عليه بشرب الماء الحارّ، و أن يركب طويلا ففعل، و آخر النهار تعشّى و عاد إلى صحّته. و كان نكّاحا يكثر من اقتناء السّراريّ، و كان غيورا لا يدخل فى داره خصىّ إلّا دون البلوغ، و كان يحبّ أن يطبخ لنفسه مع أنّ فى كلّ دار من دور حظاياه مطبخا [دائرا]، و كان عفيف الفرج لا يعرف له نظر إلى غير حلائله.

نجب له أولاد من الذكور و الإناث، سلطن الذكور و زوّج البنات بملوك الأطراف.

و كان العادل قد أوقع اللّه تعالى بغضته فى قلوب رعاياه، و المخامرة عليه فى قلوب جنده؛ و عملوا فى قتله أصنافا من الحيل الدقيقة مرّات كثيرة، و عند ما يقال إنّ الحيلة تمّت تنفسخ و تنكشف و تحسم موادّها، و لو لا أولاده يتولّون بلاده لما ثبت ملكه؛ بخلاف أخيه صلاح الدين فإنّه إنّما حفظ ملكه بالمحبّة له و حسن الطاعة، و لم يكن- رحمه اللّه- بالمنزلة المكروهة؛ و إنّما كان الناس قد ألفوا دولة صلاح الدين و أولاده، فتغيرت عليهم العادة دفعة واحدة. ثم إن وزيره ابن شكر بالغ فى الظّلم. قال: و كان العادل يواظب على خدمة أخيه صلاح الدين، يكون أوّل داخل و آخر خارج، و بهذا جلبه، و كان يشاوره فى أمور الدولة، لما جرّب من نفوذ رأيه. و لمّا تسلطن الأفضل بدمشق و العزيز بمصر قصد العزيز دمشق، و وقع له ما حكيناه إلى أن ملكها. قال: ثم أخذ العادل يدبّر الحيلة حتى يستنيبه العزيز على مصر، و يقيم العزيز بدمشق، ففطن بعض أصحاب العزيز فرمى قلنسوتا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۸

بين يديه، و قال: أ لم يكفك أنّك أعطيته دمشق حتّى تعطيه مصر! فنهض العزيز لوقته على غرّة و لحق بمصر.

قال الموفّق: و مات الملك الظاهر غازى قبله بسنتين فلم يتهنّ العادل بالملك من بعده، و كان كلّ واحد منهما ينتظر موت الآخر، فلم يصف للعادل العيش بعد موته، لأمراض لزمته بعد طول الصّحّة، و الخوف من الفرنج بعد طول الأمن.

و خرجوا (يعنى الفرنج) إلى عكّا و تجمّعوا على الغور، فنزل العادل قبالتهم على بيسان، و خفى عليه أن ينزل على عقبة أفيق، و كانوا قد هدموا قلعة كوكب، و كانت ظهرهم، و لم يقبل من الجواسيس ما أخبروه بما عزم عليه الفرنج من الغارة، فاغترّ بما عوّدته المقادير من طول السلامة، فغشيت الفرنج عسكره على غرّة، و كان قد آوى إليه خلق من البلاد يعتصمون به، فركب مجدّا؛ و ماج الفرنج فى أثره حتّى وصل دمشق على شفا و همّ؛ فدخل إليها فمنعه المعتمد و شجّعه، و قال له: المصلحة أن تقيم بظاهر دمشق. و أمّا الفرنج فاعتقدوا أنّ هزيمته مكيدة فرجعوا من قرب دمشق بعد ما عاثوا فى البلاد قتلا و أسرا و عادوا إلى بلادهم، و قصدوا دمياط فى البحر فنازلوها.

و كان قد عرض له قبل ذلك ضعف و صار يعتريه و رم الأنثيين. فلمّا هزّته الحيل على خلاف العادة و دخله الرّعب، لم يبق إلّا مدّة يسيرة و مات بظاهر دمشق.

و كان مع حرصه يهين المال عند الشدائد غاية الإهانة ببذله. و شرع فى بناء قلعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۶۹

دمشق فقسم أرضها على أمرائه و أولاده، و كان الحفّارون يحفرون الخندق و يقطعون الحجارة، فخرج من تحته خرزة بئر فيها ماء معين. قال: و دعا مرة فقال: اللّهمّ حاسبنى حسابا يسيرا؛ فقال له رجل ماجن من خواصّه: يا مولانا، إنّ اللّه قد يسّر حسابك؛ قال: ويلك! و كيف ذلك؟ قال: إذا حاسبك قل له: المال كلّه فى قلعة جعبر لم أفرّط فيه فى قليل و لا كثير. و كانت خزائنه بالكرك ثمّ نقلها إلى قلعة جعبر و بها ولده الملك الحافظ، فسوّل له بعض أصحابه الطمع فيها، فأتاها الملك العادل و نقل ما فيها إلى قلعة دمشق، فحصلت فى قبضة ولده الملك المعظّم عيسى، فلم ينازعه فيها إخوته؛ و قيل: إنّ الذى سوّل للحافظ الطمع و العصيان هو المعظّم ففعل ذلك الحافظ، و كانت مكيدة من المعظّم حتّى رجع إليه المال». انتهى كلام الموفّق باختصار.

و قال أبو المظفّر شمس الدين يوسف بن قزاوغلى فى تاريخه: «سألته عن مولده فقال: فتوح الرّها (يعنى سنة تسع و ثلاثين و

خمسمائة)- و هذا نقل آخر فى مولده- قال: و قد ذكرنا أحواله فى السنين إلى أن استقرّ له الملك و امتدّ من بلاد الكرخ إلى همذان و الجزيرة و الشام و مصر و الحجاز و مكّة و المدينة و اليمن إلى حضر موت، و كان ثبتا خليقا بالملك حسن التدبير، حليما صفوحا مدبّرا للملك على وجه الرضا، عادلا- مجاهدا دينا عفيفا متصدّقا، آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر، طهّر جميع ولاياته من الخمور و الخواطىء و القمار و المكوس و المظالم. و كان الحاصل من هذه الجهات بدمشق على الخصوص مائة ألف دينار، فأبطل الجميع للّه تعالى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۰

و كان واليه على دمشق المبارز و المعتمد، أعانه المبارز على ذلك، أقام رجالا على عقاب قاسيون و جبل الثّلج و حوالى دمشق بالجامكيّة و الجراية يحرمون أحدا يدخل دمشق بمنكر. بلغنى أنّ بعض المغانى دخلت على العادل فى عرس فقال لها:

أين كنت؟ فقالت: ما قدرت أجىء حتّى وفيت ما علىّ للضامن. فقال:

و أىّ ضامن؟ قالت ضامن القيان، فقامت عليه القيامة، و طلب المعتمد [و عمل به ما لا يليق]، و قال: و اللّه لئن عاد بلغنى مثل هذا لأفعلنّ و لأصنعنّ.

و لقد فعل العادل فى غلاء مصر عقيب موت العزيز ما لم يفعله غيره؛ كان يخرج فى الليل بنفسه و يفرّق الأموال فى ذوى البيوتات و المساكين، و كفّن تلك الأيام من ماله ثلثمائة ألف من الغرباء، و كان إذا مرض أو تشوّش مزاجه خلع جميع ما عليه و باعه حتى فرسه و تصدّق به.

قال أبو المظفّر: و قد ذكرنا وصول شيخ الشيوخ إليه بخبر برج دمياط، و أنّه انزعج و أقام مريضا إلى يوم الجمعة سابع أو ثامن جمادى الآخرة و توفّى بعالقين.

و كان المعظّم قد كسر الفرنج على القيمون يوم الخميس خامس جمادى الآخرة، و قيل يوم الأربعاء. و لمّا توفّى العادل لم يعلم بموته غير كريم الدّين الخلاطىّ، فأرسل الطير إلى نابلس إلى المعظم، فجاء يوم السبت إلى عالقين فاحتاط على الخزائن،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۱

و صبّر العادل و جعله فى محفّة و عنده خادم يروّح عليه و قد رفع طرف سجافها و أظهر أنّه مريض، و دخلوا به دمشق يوم الأحد و الناس يسلّمون على الخادم، و هو يومئ إلى ناحية العادل و يردّ السلام؛ و دخلوا به القلعة و كتموا موته؛ و [من العجائب أنهم] طلبوا له كفنا فلم يقدروا عليه، فأخذوا عمامة الفقيه ابن فارس فكفّنوه بها، و أخرجوا قطنا من مخدّة فلفّوه به، و صلّى عليه [وزيره] ابن فارس و دفنوه فى القلعة.

قال أبو المظفّر: و كنت قاعدا إلى جانب المعظّم عند باب الدار التى فيها الإيوان و هو واجم و لم أعلم بحاله؛ فلمّا دفن أبوه قام قائما و شقّ ثيابه و لطم رأسه و وجهه، و كان يوما عظيما، و عمل له العزاء ثلاثة أيام بالإيوان الشمالى، و عمل له العزاء فى الدنيا كلّها، و نودى ببغداد من أراد الصلاة على الملك العادل الغازى المجاهد فى سبيل اللّه فليحضر إلى جامع القصر، فحضر الناس و لم يتخلّف سوى الخليفة، و صلّوا عليه صلاة الغائب و ترحّموا عليه، و تقدّموا إلى خطباء الجوامع بأسرهم، ففعلوا ذلك بعد صلاة الجمعة. و بقى العادل بالقلعة إلى سنة تسع عشرة و ستمائة، [ثم] نقل إلى تربته التى أنشأها عند دار العقيقىّ و مدرسته.

- قلت: لا أعلم ما كان السبب فى عدم وجود الكفن القطن للملك العادل مع همة ولده الملك المعظّم عيسى و أخذه من عالقين ميتا فى محفّة و لم يفطن به أحد.

و هذا أعظم و أكثر كلفة و أصعب من شراء ثوب بعلبكّىّ، و ما يحتاج إليه الميت من الحنوط و القطن و غيره فلعلّ لها عذرا و أنت تلوم-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۲

قال: و كان له عدّة أولاد: منهم شمس الدين مودود والد الملك الجواد [يونس].

و الكامل محمد. و الأشرف موسى. و المعظّم عيسى. و الأوحد أيّوب. و الفائز إبراهيم [و يلقّب بسابق الدين]. و شهاب الدّين غازى. و العزيز عثمان. و الأمجد حسن.

و الحافظ أرسلان. و الصالح إسماعيل. و المغيث عمر. و مجير الدين يعقوب.

و تقىّ الدين عبّاس. و قطب الدين أحمد. و القاهر إسحاق. و خليل أصغرهم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۳

و كان له عدّة بنات أفضلهنّ صفيّة خاتون صاحبة حلب أم الملك العزيز». انتهت ترجمة الملك العادل- رحمه اللّه تعالى-.

و لمّا مات العادل استقرّ كلّ واحد من أولاده فى مملكته، فإنه كان قسم ممالكه فى أولاده حسب ما تقدّم ذكر ذلك كلّه فى صدر هذه الترجمة، فالذى كان بمصر الملك الكامل محمد، و بالشام المعظّم عيسى، و بالشرق الأشرف شاه أرمن، و باقى أولاده كلّ واحد فى مملكة، أو فى خدمة أخ من إخوته. انتهى.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۷]

السنة الأولى من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و تسعين و خمسمائة.

فيها كان هبوط النيل، و لم يعهد ذلك فى الإسلام إلّا مرّة واحدة فى دولة الفاطميّين، و لم يبق منه إلّا شىء يسير؛ و اشتدّ الغلاء و الوباء بمصر، فهرب الناس إلى المغرب و الحجاز و اليمن و الشام و تفرّقوا و تمزّقوا كلّ ممزّق.

قال أبو المظفّر: «كان الرجل يذبح ولده الصغير و تساعده أمّه على طبخه و شيّه؛ و أحرق السلطان جماعة فعلوا ذلك و لم ينتهوا. و كان الرجل يدعو صديقه و أحبّ الناس إليه إلى منزله ليضيفه فيذبحه و يأكله، و فعلوا بالأطبّاء كذلك، [فكانوا يدعونهم ليبصروا المرضى فيقتلونهم و يأكلونهم] و فقدت الميتات و الجيف [من كثرة ما أكلوها]. و كانوا يختطفون الصّبيان من الشوارع فيأكلونهم. و كفّن السلطان فى مدّة يسيرة مائتى ألف و عشرين ألفا؛ و امتلأت طرقات المغرب و المشرق و الحجاز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۴

و الشام برمم الناس، و صلّى إمام جامع الإسكندريّة فى يوم على سبعمائة جنازة.

و قال العماد الكاتب الأصبهانىّ: «[و] فى سنة سبع و تسعين و خمسمائة: اشتدّ الغلاء، و امتدّ البلاء؛ و تحقّقت المجاعة، و تفرّقت الجماعة؛ و هلك القوىّ فكيف الضعيف! و نحف السمين فكيف العجيف! و خرج الناس حذر الموت من الديار، و تفرّق فريق مصر فى الأمصار؛ و لقد رأيت الأرامل على الرمال، و الجمال باركة تحت الأحمال، و مراكب الفرنج واقفة بساحل البحر على اللّقم، تسترقّ الجياع باللّقم». انتهى.

قال: و جاءت [فى شعبان] زلزلة هائلة من الصّعيد هدمت بنيان مصر، فمات تحت الهدم خلق كثير، ثم امتدّت إلى الشام و الساحل فهدمت مدينة نابلس، فلم تبق فيها جدارا قائما إلّا حارة السّمرة؛ و مات تحت الهدم ثلاثون ألفا، و هدمت عكّا و صور و جميع قلاع الساحل؛ و امتدّت إلى دمشق فرمت بعض المنارة الشرقيّة بجامع دمشق، و أكثر الكلّاسة و البيمارستان النّورىّ، و عامّة دور دمشق إلّا القليل؛ فهرب الناس إلى الميادين، و سقط من الجامع ستّ عشرة شرفة، و تشقّقت قبّة النّسر». انتهى كلام صاحب المرآة باختصار، فإنّه أمعن و ذكر أشياء مهولة من هذا النّموذج.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن علىّ بن محمد بن علىّ بن عبيد اللّه بن عبد اللّه بن حمّادى ابن أحمد بن محمد بن جعفر الجوزىّ بن عبد اللّه بن القاسم بن النضر بن القاسم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۵

ابن محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن بن القاسم بن محمد بن أبى بكر الصديق عبد اللّه ابن أبى قحافة، الشيخ الإمام الحافظ الواعظ المفسّر العلّامة جمال الدين أبو الفرج القرشى التّيمى البكرىّ البغدادىّ الحنبلىّ المعروف بابن الجوزىّ؛ صاحب التصانيف المشهورة فى أنواع العلوم: كالتفسير و الحديث و الفقه و الوعظ و الزّهد و التاريخ و الطبّ و غير ذلك. مولده ببغداد سنة عشر و خمسمائة تقريبا بدرب حبيب. و توفى أبوه و له ثلاث سنين.

قلت: و فضل الشيخ جمال الدين و حفظه و غزير علمه أشهر من أن يذكر هنا، و المقصود أنّ وفاته كانت فى ليلة الجمعة بين العشاءين فى داره بقطفتا و دفن من الغد، و كانت جنازته مشهودة، و كثر أسف الناس عليه، و لم يخلّف بعده مثله.

قال ابن خلّكان: «و بالجملة فكتبه أكثر من أن تعدّ، و كتب بخطّه كثيرا، و الناس يغالون فى ذلك حتّى يقولوا إنّه جمعت الكراريس الّتى كتبها، و حسبت مدّة عمره و قسمت الكراريس على المدّة، فكان ما خصّ كلّ يوم تسع كراريس؛ و هذا شىء عظيم لا يكاد يقبله العقل. و يقال: إنّه جمعت برايـة أقلامه التى كتب بها حديث رسول اللّه صلّى اللّه عليه و سلّم فحصل منها شىء كثير، و أوصى أن يسخّن بها الماء الذى يغسل به بعد موته ففعل ذلك [فكفت]». انتهى كلام ابن خلّكان باختصار.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۶

و من شعره:

يا صاحبى إن كنت لى أو معى فعج إلى وادى الحمى نرتع

وسل عن الوادى و سكّانه و انشد فؤادى فى ربا المجمع

حىّ كثيب الرّمل رمل الحمى وقف و سلّم لى على لعلع

و اسمع حديثا قد روته الصّبا تسنده عن بانة الأجرع

و ابك فما فى العين من فضلة و نب فدتك النفس عن مدمعى

و له:

رأيت خيال الظّلّ أعظم عبرة لمن كان فى أوج الحقيقة راق

شخوص و أشكال تمرّ و تنقضى و تفنى جميعا و المحرّك باق

و فيها توفّى الأمير بهاء الدين قراقوش [بن عبد اللّه] الأسدىّ الخادم الخصىّ المنسوب إليه حارة بهاء الدّين بالقاهرة داخل باب الفتوح، و هو الذى بنى قلعة الجبل بالقاهرة، و السّور [على مصر و القاهرة]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۷

و القنطرة التى عند الأهرام و غير ذلك؛ و كان من أكابر الخدّام، من خدّام القصر، و قيل إنّ أصله من خدّام العاضد، و قيل إنّه من خدّام أسد الدين شيركوه و هو الأصحّ. و اتّصل بخدمة السلطان صلاح الدين، و كان صلاح الدّين يثق به و يعوّل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۸

عليه فى مهمّاته. و لمّا افتتح عكّا من الفرنج سلّمها إليه؛ ثم لمّا استولوا عليها أخذ أسيرا، ففداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار؛ و قيل: بستين ألف دينار.

قال ابن خلّكان: «و الناس ينسبون إليه أحكاما عجيبة فى ولايته نيابة مصر عن صلاح الدين، حتّى إنّ الأسعد بن ممّاتى له فيه كتاب لطيف سماه: «الفاشوش فى أحكام قراقوش». و فيه أشياء يبعد وقوع مثلها منه، و الظاهر أنّها موضوعة؛ فإنّ صلاح الدين كان يعتمد فى أحوال المملكة عليه، و لو لا وثوقه بمعرفته و كفايته ما فوّضها إليه. و كانت وفاته فى مستهلّ رجب».

و فيها توفّى محمد بن محمد بن حامد بن محمد بن عبد اللّه بن علىّ بن محمود بن هبة اللّه أبو عبد اللّه الإمام العلّامة عماد الدّين

الأصبهانىّ المنشئ المعروف بالعماد الكاتب، و بآبن أخى العزيز. ولد بأصبهان سنة تسع عشرة و خمسمائة و بها نشأ.

و قدم بغداد مع أبيه و بها تفقّه، و اشتغل بالأدب و برع فى الإنشاء، و خدم الوزير يحيى [بن محمد] بن هبيرة، و كان أحد كتّابه. ثم قدم دمشق أيّام نور الدين الشهيد و اتّصل به و خدمه. و كان فاضلا حافظا لدواوين العرب، و له عدّة مصنّفات، منها:

«خريدة القصر فى شعراء العصر» و غير ذلك و كان القاضى الفاضل يقول: العماد الكاتب. كالزناد الوقّاد (يعنى أنّ النّار فى باطنه كامنة، و ظاهره فيه فترة). و كانت وفاة العماد بدمشق فى يوم الاثنين غرّة شهر رمضان. و دفن عند مقابر الصوفية

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۷۹

عند المنيبع. و قيل إنّ العماد اجتمع بالقاضى الفاضل يوما فى موكب السلطان فسارا جميعا، و قد انتشر الغبار لكثرة الفرسان ما سدّ الفضاء فتعجّبا من ذلك، فأنشد العماد فى الحال:

أمّا الغبار فإنّه ممّا أثارته السّنابك

و الجوّ منه مظلم لكن أنار به السّنابك

يا دهر لى عبد الرح يم فلست أخشى مسّ نابك

و من شعره:

دار غير اللّبيب إن كنت ذا لبّ و لا طفه حين يأتى بحذق

فأخو السّكر لا يخاطبه الصّا حى إلى أن يفيق إلّا برفق

و فيها توفّى محمد بن المبارك بن محمد الطّهير أبو غالب المصرىّ، كان فاضلا أديبا. ولد سنة ثلاث و عشرين و خمسمائة؛ و من شعره- رحمه اللّه تعالى- قوله:

تقنّع بالقليل و عش عزيزا خفيف الظّهر من كلف و إثم

و إلّا هىّ نفسك للبلايا و همّ وارد فى إثر همّ

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى القاضى أبو المكارم أحمد بن محمد بن محمد التّميمىّ الأصبهانىّ المعروف بابن اللّبان العدل فى ذى الحجّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۰

و مفيد بغداد تميم بن أحمد البندنيجىّ فى جمادى الآخرة، أدرك ابن الزّاغونىّ. و الإمام أبو الفرج عبد الرحمن بن علىّ بن الجوزىّ، و قد ناهز التسعين. و أبو محمد عبد المنعم ابن محمد المالكىّ فقيه الأندلس. و الأمير بهاء الدين قراقوش الأسدىّ الخادم الأبيض. و محمد بن أبى زيد الكرّانىّ الخبّاز بأصبهان فى شوّال، و قد كمّل المائة.

و العماد الكاتب العلّامة محمد بن محمد بن حامد الأصبهانىّ فى [شهر] رمضان، و له سبع و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ستّ عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۸]

السنة الثانية من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و تسعين و خمسمائة.

فيها برز العادل المذكور من ديار مصر طالبا حلب، و كان الملك الأفضل بحمص عند شيركوه، فجاء إلى العادل فأكرمه العادل و عوّضه عن ميّافارقين سميساط و سروج، ثم سار العادل و نزل على حماة، و صالحه الملك الظاهر صاحب حلب، و عاد الملك العادل إلى حمص.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۱

و فيها توفّى عبد الملك بن زيد بن يس التّغلبىّ الدّولعىّ خطيب دمشق؛ و الدّولعيّة: قرية من قرى الموصل. قدم دمشق و استوطنها و صار خطيبها، و درّس بالزاوية الغربيّة من جامع دمشق؛ و كان منزّها حسن الأثر حميد الطريقة.

مات فى شهر ربيع الأوّل.

و فيها توفّى هبة اللّه بن الحسن بن المظفّر الهمذانىّ، محدّث ابن محدّث ابن محدّث. كانت وفاته بباب المراتب ببغداد فى المحرّم.

قال أبو المظفّر أنشدنا لغيره:

إذا الفتى ذمّ عيشا فى شبيبته فما يقول إذا عصر الشباب مضى

و قد تعوّضت عن كلّ بمشبهه فما وجدت لأيّام الصّبا عوضا

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الملك المعزّ إسماعيل ابن سيف الإسلام [طغتكين] صاحب اليمن. و أبو طاهر بركات بن إبراهيم الخشوعىّ.

و المحدّث حمّاد بن هبة اللّه الحرّانىّ التاجر فى ذى الحجّة. و عبد اللّه [بن أحمد] بن أبى المجد الحربىّ الإسكاف فى المحرّم بالموصل. و زين القضاة أبو بكر عبد الرحمن بن سلطان ابن يحيى القرشىّ الزّكوىّ فى ذى الحجّة، سمع من جدّه. و أبو الحسن عبد الرحيم ابن أبى القاسم [عبد الرحمن] الشّعرى، أخو زينب فى المحرّم. و خطيب دمشق الضّياء عبد الملك بن زيد بن يس الدّولعىّ فى شهر ربيع الأول، و له إحدى و تسعون سنة. و قاضى القضاة محيى الدين أبو المعالى محمد ابن القاضى الزّكى علىّ بن محمد القرشىّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۲

و له ثمان و أربعون سنة، توفّى فى شعبان. و أبو القاسم هبة اللّه بن علىّ بن مسعود الأنصارىّ البوصيرىّ فى صفر، و له اثنتان و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۵۹۹]

السنة الثالثة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و تسعين و خمسمائة.

فيها فى ليلة السبت سلخ المحرّم ماجت النجوم فى السماء شرقا و غربا، و تطايرت كالجراد المنتشر يمينا و شمالا؛ و لم ير هذا إلّا عند مبعث النبى صلّى اللّه عليه و سلّم؛ و فى سنة إحدى و أربعين و مائتين، و كانت هذه السنة أعظم.

و فيها توفّى إبراهيم بن أحمد بن محمد أبو إسحاق الموفّق الفقيه بن الصّقال الحنبلى.

ولد سنة خمس و عشرين و خمسمائة. و تفقّه على أبى يعلى الفرّاء، و سمع الحديث الكثير، و كان شيخا ظريفا صالحا زاهدا. مات فى ذى الحجّة، و دفن بباب حرب ببغداد.

و فيها توفّيت زمرّد خاتون امّ الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ ببغداد. كانت صالحة كثيرة البرّ و الصدقات، و حجّت مرّة فأنفقت ثلثمائة ألف دينار، و كان معها نحو ألفى جمل، و تصدّقت على أهل الحرمين، و أصلحت البرك و المصانع؛ و عمرّت التّربة عند قبر معروف الكرخىّ و المدرسة إلى جانبها. و ماتت فى جمادى الأولى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۳

و فيها توفّى علىّ بن الحسن بن إسماعيل أبو الحسن [العبدىّ] من عبد القيس، كان فاضلا بارعا فى الأذب و غيره، و له شعر جيّد؛ من ذلك قوله- رحمه اللّه تعالى-:

لا تسلك الطّرق إذا أخطرت لو أنها تفضى إلى المملكه

قد أنزل اللّه تعالى و لا تلقوا بأيديكم إلى التّهلكه

و فيها توفّى القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن القاسم أبو الفضائل ضياء الدين الشّهرزورىّ، و هو ابن أخى القاضى كمال الدين [محمد] الشّهرزورىّ. كان فقيها فاضلا جوادا كريما أديبا شاعرا. و من شعره أوّل قصيدة:

فى كلّ يوم ترى للبين آثار و ماله فى التئام الشّمل آثار

يسطو علينا بتفريق فواعجبا هل كان للبين فيما بيننا ثار

و فيها توفّى يحيى بن طاهر بن محمد أبو زكرياء الواعظ، و يعرف بابن النجار البغدادىّ. كان فاضلا فصيحا. و كان ينشد فى مجلسه- رحمه اللّه تعالى-

عاشر من الناس من تبقى مودّته فأكثر الناس جمع غير مؤتلف

منهم صديق بلا قاف و معرفة بغير فاء و إخوان بلا ألف

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم عبد الرحمن ابن مكّىّ بن حمزة بن موقا الأنصارىّ الإسكندرانىّ التاجر فى شهر ربيع الآخر، و له أربع و تسعون سنة. و زين الدين أبو الحسن علىّ بن إبراهيم بن نجا الدمشقىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۴

الحنبلىّ الواعظ بمصر فى رمضان، و له إحدى و تسعون سنة. و أبو الحسن علىّ بن حمزة بن علىّ بن طلحة البغدادىّ الكاتب بمصر فى شعبان. و سلطان غزنة غياث الدين.

و قاضى القضاة ضياء الدين القاسم بن يحيى بن عبد اللّه بن القاسم الشّهرزورى [أبو الفضائل] الشافعىّ، و له خمس و ستون سنة، ولى القضاء بدمشق بعد عمّه، ثم استعفى لأمر ما، ثمّ بعد مدّة ولى قضاء العراق، ثم استعفى و خاف [العواقب] ثمّ سكن حماة؛ و ولى قضاءها؛ و بها مات فى رجب. و الزاهد أبو عبد اللّه محمد بن أحمد القرشىّ الهاشمىّ الأندلسىّ ببيت المقدس. و الشهاب أبو الفضل محمد بن يوسف الغزنوىّ الحنفىّ المقرئ بمصر. و أبو طاهر المبارك بن المبارك [بن هبة اللّه] ابن المعطوش فى جمادى الأولى عن اثنتين و تسعين سنة ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان و ست و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۰]

السنة الرابعة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستمائة.

فيها وصل إلى بغداد أبو الفتح بن أبى نصر الغزنوىّ رسولا من صاحب غزنة و جلس بباب بدر، و قال: هنيئا لكم يأهل بغداد، أنتم تحظون بأمير المؤمنين، و نحن محرومون! و أنشد- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۵

ألا قل لسكّان وادى العقيق هنيئا لكم [فى] الجنان الخلود

أفيضوا علينا من الماء فيضا فنحن عطاش و أنتم ورود

و فيها توفّى الحافظ عبد الغنىّ بن عبد الواحد [بن علىّ] بن سرور أبو محمد المقدسىّ. ولد بجمّاعيل، و هى قرية من أعمال نابلس فى شهر ربيع الآخر سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، و كان أكبر من الشيخ موفّق الدين بأربعة أشهر [و هما ابنا خالة] و كان إماما حافظا متقنا مصنّفا ثقة، سمع الكثير و رحل إلى البلاد و كتب الكثير، و هو أحد أكابر أهل الحديث و أعيان حفّاظهم، و وقع له محن ذكرها صاحب مرآة الزمان، و نجّاه اللّه منها. و مات فى يوم الاثنين ثالث عشرين شهر ربيع الأوّل، و دفن بالقرافة عند الشيخ أبى عمرو بن مرزوق، و كان إماما عابدا زاهدا و رعا.

قال تاج الدين الكندىّ: هو أعلم من الدّارقطنىّ و الحافظ أبى موسى.

قال أبو المظفّر: و فى هذه السنة سافرت من بغداد إلى الشام، و هى أوّل رحلتى، فاجتزت بدقوقا و جلست بها (يعنى للموعظة) ثم قدمت إربل و اجتمعت بمحيى الدين الساعاتىّ، و أنشدنى مقطعات لغيره. منها- رحمه اللّه-:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۶

رحمت أسود هذا الخال حين بدا فى جمرة الخدّ مرميّا بأبصار

كأنّه بعض عبّاد المجوس و قد ألقى بمهجته فى لجّة النار

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى منتخب الدين أبو الفتح أسعد بن أبى الفضائل محمود بن خلف العجلىّ الأصبهانىّ شيخ الشافعيّة ببلده فى صفر، و له خمس و ثمانون سنة. و أبو سعد عبد اللّه بن عمر بن أحمد النيسابورىّ الصفّار فى رمضان، و له اثنتان و تسعون سنة. و الحافظ تقىّ الدين عبد الغنى بن عبد الواحد بن علىّ الجمّاعيلىّ المقدسىّ فى شهر ربيع الأوّل، و له تسع و خمسون سنة. و فاطمة بنت سعد الخير الأنصاريّة فى شهر ربيع الأوّل، و لها ثمان و سبعون سنة. و بهاء الدين أبو محمد القاسم ابن الحافظ علىّ بن الحسن بن هبة اللّه ابن عساكر فى صفر، و له ثلاث و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۱]

السنة الخامسة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ستمائة.

فيها جاءت الفرنج حماة بغتة و أخذوا النساء الغسّالات من باب البلد على العاصى، و خرج إليهم الملك المنصور بن تقىّ الدين و قاتلهم و ثبت و أبلى بلاء حسناء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۷

و كسر الفرنج عسكره، فوقف على الساقة، و لو لا وقوفه ما أبقوا من المسلمين أحدا.

و فيها حجّ بالناس من العراق وجه السبع، و من الشام صارم الدين برغش العادلى و زين الدين قراجا صاحب صرخد.

و فيها توفّى عبد المنعم بن علىّ [بن نصر] بن الصّيقلىّ أبو محمد نجم الدين الحرّانىّ، قدم بغداد و تفقّه بها؛ و سمع الحديث؛ ثم عاد إلى حرّان و وعظ بها و حصل له القبول التام، ثم عاد إلى بغداد و استوطنها. قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ فى تاريخه: سمعته ينشد:

و أشتاقكم يا أهل ودّى و بيننا كما زعم البين المشتّ فراسخ

فأمّا الكرى عن ناظرى فمشرّد و أما هواكم فى فؤادى فراسخ

و فيها توفّى محمد بن سعد اللّه بن نصر أبو نصر بن الدّجاجىّ الواعظ الحنبلىّ.

ولد سنة أربع و عشرين و خمسمائة، و مات فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بباب حرب.

و من شعره- رحمه اللّه-:

نفس الفتى إن أصلحت أحوالها كان إلى نيل المنى أحوى لها

و إن تراها سدّدت أقوالها كان على حمل العلا أقوى لها

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۸

و فيها توفّى ملك خلاط سيف الدين بكتمر. كان من أحسن الشباب؛ و لم يبلغ عشرين سنة من العمر، قتله الهزار ديناري؛ قيل: إنّه غرّقه فى بحر خلاط، و قتل الهزار دينارى بعده بمدّة يسيرة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أحمد بن سليمان الحربىّ الملقب بالسّكّر. و أبو الفضل محمد بن الحسين بن الخصيب بدمشق.

و يوسف بن المبارك بن كامل الخفّاف. و عبد اللّه بن عبد الرحمن بن أيّوب الحربى البقلىّ. و شميم الحلّىّ أبو الحسن علىّ بن الحسن بن عنتر الأديب. و محمد بن أحمد بن حامد أبو عبد اللّه الأرتاحىّ الحنبلىّ بمصر، و له بضع و تسعون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۸۹

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۲]

السنة السادسة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنه اثنتين و ستمائة.

فيها توجّه ناصر الدين صاحب ماردين إلى خلاط بمكاتبة أهلها و ملكها، فجاء الملك الأشرف موسى شاه أرمن ابن الملك العادل هذا فنزل على دنيسر، و أقطع بلاد ماردين؛ فلمّا بلغ ذلك ناصر الدين عاد إلى ماردين بعد أن غرم مائة ألف دينار، و لم تسلّم له خلاط.

و فيها أغار [ابن] لاون على حلب و أخذ الجشار من نواحى حارم، فبعث إليه الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- و هو يوم ذاك صاحب حلب- فارس الدين ميمونا القصرىّ، و أيبك فطيس، و الأمير حسام الدين [بن أمير تركمان] فتقاتلا- قتالا- شديدا، و كان ميمون تقدّم و لو لا هما لأخذ ميمون؛ فلمّا بلغ ذلك الملك الظاهر خرج من حلب و نزل مرج دابق، ثمّ جاء إلى حارم،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۰

فهرب ابن لاون إلى بلاده. و كان ابن لاون قد بنى قلعة فوق دربساك، فأخذها الظاهر و أخربها، ثم عاد الملك الظاهر إلى حلب.

و فيها حجّ بالناس من العراق وجه السّبع، و من الشام الشّجاع علىّ بن السّلّار.

و فيها توفّى الأمير طاشتكين بن عبد اللّه المقتفوىّ مجير الدين أمير الحاجّ، حجّ بالناس ستّا و عشرين حجّة، و كان يسير فى طريق الحجّ مثل الملوك. شكاه ابن يونس [الوزير] إلى الخليفة أنّه يكاتب السلطان صلاح الدين صاحب مصر [و زوّر عليه كتابة]، فحبسه الخليفة مدّة، ثم تبيّن له أنّه برىء، فأطلقه و أعطاه خوزستان؛ ثم أعاده إلى إمرة الحاجّ؛ و كانت الحلّة إقطاعه. و كان شجاعا جوادا سمحا قليل الكلام يمضى عليه الأسبوع و لا- يتكلّم. استغاث إليه رجل يوما فلم يكلّمه، فقال الرجل: اللّه كلّم موسى، فقال: و أنت موسى! [فقال الرجل: و أنت اللّه! فقضى حاجته. و كان حليما، التقاه رجل فآستغاث إليه من نوّابه فلم يجبه] فقال الرجل: أنت حمار؟ فقال طاشتكين: لا. و فى قلّة كلامه يقول ابن التّعاويذىّ الشاعر المشهور:

و أمير على البلاد مولّى لا يجيب الشاكى بغير السكوت

كلّما زاد رفعة حطّنا اللّ ه بتغفيله إلى البهموت

و فيها توفّى مسعود بن سعد الدين صاحب صفد. و أخوه بدر الدين ممدود شحنة دمشق، و هما ابنا الحاجب مبارك بن عبد اللّه، و أمّهما أمّ فرخشاه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۱

ابن شاهنشاه بن أيّوب [ففرخشاه أخوهما لأمّهما]، و أختهما لأمّهما أيضا الستّ عذراء صاحبة المدرسة العذراويّة المجاورة لقلعة دمشق. و كانا أميرين كبيرين (أعنى ممدودا و مسعودا) صاحبى الترجمة، و لهما مواقف مع السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و تقدّمت وفاة ممدود على أخيه مسعود، فإنّه مات بدمشق فى يوم الأحد خامس شهر رمضان من هذه السنة. و توفّى مسعود هذا بصفد فى يوم الاثنين خامس شوّال- رحمهما اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى سلطان غزنة شهاب الدين [أبو المظفر محمد بن سام] الغورى قتلته الباطنيّة. و أبو علىّ ضياء الدين ابن أبى القاسم [أحمد بن الحسن أبى علىّ] بن الخريف. و المفتى أبو المفاخر خلف بن أحمد الأصبهانىّ الفرّاء، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو يعلى حمزة بن علىّ [بن حمزة بن فارس] بن القبّيطىّ، قرأ القرآن على سبط الخيّاط و جماعة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۳]

السنة السابعة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و ستمائة.

فيها فارق وجه السّبع الحاجّ، و قصد الشام مغضبا، و كان فى الحجّ جماعة من الأعيان، فبكوا و سألوه العود معهم على العادة، فقال: مولاى أمير المؤمنين محسن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۲

إلىّ، و ما أشكو إلّا من الوزير ابن مهدى، و ما عن التوجّه بدّ؛ ففارقهم و سار إلى الشام، فتلقّاه الملك العادل صاحب الترجمة و أولاده، و أحسن العادل إليه و أكرم نزله، و حزن الخليفة على فراقه.

و فيها ولّى الخليفة عماد الدين أبا القاسم عبد اللّه بن الدّامغانىّ الحنفىّ قاضى قضاة بغداد.

و فيها قبض الخليفة على عبد السلام بن عبد الوهاب بن الشيخ عبد القادر الجيلىّ، و استأصله حتّى احتاج إلى الطلب من الناس.

و فيها نزلت الفرنج على حمص، و كان الملك الظاهر غازى صاحب حلب قد بعث المبارز يوسف بن خطلخ الحلبىّ إليها نجدة لأسد الدين صاحبها، و حصل القتال بينهم و بين الفرنج و أسر الصّمصام بن العلائىّ، و خادم صاحب حمص.

و رجع الفرنج إلى بلادهم.

و فيها توفّى عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ المعروف بالكيلانى- رضى اللّه عنه- و كان عبد الرزاق هذا زاهدا ورعا عابدا مقتنعا من الدنيا باليسير صالحا ثقة، لم يدخل فى الدنيا كما دخل فيها غيره من إخوته. و كان مولده سنة ثمان و عشرين و خمسمائة، و مات فى شوّال ببغداد و دفن بباب حرب.

و فيها توفّى أبو القاسم [أحمد] ابن المقرئ صاحب ديوان الخليفة ببغداد، كان شابا حسنا يعاشر ابن الأمير أصبه، و كان ابن أصبه شابّا جميلا جلسا يوما فداعب ابن المقرئ ابن أصبه فرماه بسكّين صغيرة، فوقعت فى فؤاده فقتلته، فسلّم الخليفة ابن المقرئ إلى أولاد أصبه، فلمّا خرجوا به ليقتلوه أنشد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۳

قدمت على الإله بغير زاد من الأعمال بالقلب السليم

و سوء الظن أن تعتدّ زادا إذا كان القدوم على كريم

فقتلوه- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر محمد بن أحمد بن نصر الصّيدلانىّ، و له أربع و تسعون سنة. و أبو عبد اللّه محمد بن معمّر [بن عبد الواحد بن رجاء] بن الفاخر القرشىّ. و أبو بكر عبد الرزّاق بن عبد القادر ابن أبى صالح الجيلىّ الحافظ فى شوّال، و له خمس و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة، الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و أربع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۴]

السنة الثامنة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و ستمائة.

فيها ملك الأوحد ابن الملك العادل صاحب الترجمة خلاط بمكاتبة أهلها بعد قتل ابن بكتمر و الهزار دينارى المقدّم ذكرهما؛ و كانت بنت بكتمر مع صاحب أرزن الروم،- فقالت بعد قتل أخيها-: لا أرضى حتّى تقتل قاتل أخى، و هو الهزار

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۴

دينارى و تأخذ بثأره؛ فسار صاحب أرزن إلى خلاط، و خرج الهزار دينارى للقائه، فضربه صاحب أرزن فأبان رأسه، و عاد إلى أرزن الروم. و بقيت خلاط بغير ملك، و كان الأوحد بن العادل صاحب ميّافارقين، فكاتبوه أهل خلاط فجاء إليهم و استولى عليها.

و فيها حجّ بالناس من العراق ياقوت.

و فيها توفّى محمود بن هبة اللّه بن أبى القاسم الحلبىّ أبو الثناء البزّاز. كان فاضلا قرأ القرآن، و سمع الحديث على إسماعيل بن موهوب بن الجواليقىّ، و حكى عنه قال:

كنت فى حلقة والدى بجامع القصر، فوقف عليه شابّ و قال: ما معنى قول القائل:

وصل الحبيب جنان الخلد أسكنها و هجره النار يصلينى به النارا

فالشمس بالقوس أضحت و هى نازلة إن لم يزرنى و بالجوزاء إن زارا

فقال له والدى: يا بنىّ، هذا شىء يتعلّق بعلم النجوم لا بعلم الأدب. ثم قام والدى و آلى على نفسه ألّا يعود إلى مكانه حتّى ينظر فى علم النجوم، و يعرف مسير الشمس و القمر، فنظر فيه و علمه. و معنى الشعر: أنّ الشمس إذا نزلت القوس يكون الليل فى غاية الطول، و إذا كانت فى الجوزاء كان فى غاية القصر.

قلت: و محصول البيتين: أنّه إذا لم يزره محبوبه كان الليل عليه أطول الليالى، و إذا زاره كان عليه أقصر الليالى، فقصد القوس للطّول، و الجوزاء للقصر.

و هذا يشبه قول القائل، و قد تقدّم ذلك فى غير هذا المحلّ من هذا الكتاب،:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۵

ليلى و ليلى نفى نومى اختلافهما بالطّول و الطّول يا طوبى لو اعتدلا

يجود بالطّول ليلى كلّما بخلت بالطّول ليلى و إن جادت به بخلا

و مثل هذا قول شرف الدين أحمد بن نصر بن كامل- و قيل هما لغيره-:

عهدى بهم و رداء الوصل يجمعنا و الليل أطوله كاللّمح بالبصر

فاليوم ليلى مذ غابوا فديتهم ليل الضرير فصبحى غير منتظر

و يعجبنى قول من قال- و هو قريب من هذا المعنى إن لم يكن هو بعينه-:

هجم السّهاد على عيونى فى الدّجى سرق الرقاد و دمع عينى سافح

و غدا يسامح للدجى فى بيعه و اللّصّ كيف يبيع فهو الرابح

و قد استوعبنا هذا النوع (أعنى ما قيل فى طول الليل و قصره فى كتابنا المسمّى:

ب «حلية الصفات فى الأسماء و الصناعات») فلينظر هناك فى حرف الطاء المهملة.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى حنبل بن عبـد اللّه ابن الفرج بن سـعادة أبو علىّ الرّصافىّ المكبّر [بجامع المهدى] الدلّال فى المحرّم.

و عبـد المجيب بن عبـد اللّه بن زهير الحربىّ بحماة. و أبو الفضل عبـد الواحـد ابن عبد السـلام بن سـلطان المقرئ. و ستّ الكتبة نعمة بنت علىّ بن يحيى [بن محمد] ابن الطراح بدمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۵]

السنة التاسعة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و ستمائة.

فيها زلزلت نيسابور زلزلة عظيمة دامت عشرة أيام، فمات تحت الردم خلق كثير.

و فيهـا اتّفق الفرنـج من طرابلس و حصن الأـكراد على الإغـارة على أعمـال حمص، فتوجّهوا إليها و حاصـروها، فعجز صاحب حمص أسد الدين شيركوه عنهم، و نجده ابن عمّه الملك الظاهر غازى صاحب حلب، فعاد الفرنج إلى طرابلس. و بلغ السلطان الملك العادل صـاحب الترجمـة، فخرج إليهم من مصـر بالجيوش و قصـد عكّا، فصالحه صاحبها، فسار حتّى نزل على بحيرة قـدس، و أغار على بلاد طرابلس و أخذ من أعمالها حصنا صغيرا.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفاتهم فى هـذه السـنة، قال و فيها توفّى قاضـى القضاة صـدر الـدين أبو القاسم عبد الملك بن عيسـى بن درباس بمصر عن تسع و ثمانين سنة.

و القاضـى أبو الفتح محمد بن أحمد بن بختيار بواسط فى شعبان، و له ثمان و ثمانون سنة. و أبو الجود غياث بن فارس اللّخمىّ مقرئ ديار مصر. و أبو بكر محمد بن المبارك [بن محمد بن أحمد بن الحسين] بن مشّق محدّث بغداد، و له اثنتان و سبعون سنة.

و الحسين بن أبى نصر [بن الحسين بن هبة اللّه بن أبى حنيفة] بن القارص الحريمىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۷

الضرير آخر من روى شيئا عن المسند، توفّى فى شعبان. و خطيب القدس علىّ بن محمد بن علىّ بن جميل المعافرى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و اثنتا عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۶]

السنة العاشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و ستمائة.

فيها توفّى الحسن بن أحمد [بن محمد] بن جكينا من أهل الحرم الطاهرىّ، كان فاضلا رئيسا شاعرا. و من شعره:

قد بان لى عذر الكرام و صدّهم عن أكثر الشعراء ليس بعار

لم يسأموا بذل النوال و إنّما جمد النّدى لبرودة الأشعار

و فيها توفّى محمد بن عمر بن الحسين العلّامة أبو المعالى فخر الدين الرازىّ المتكلّم صاحب التصانيف فى علم الكلام و المنطق و التفسير. كان إماما بارعا فى فنون من العلوم، صنّف «التفسير» و «المحصّل» و «الأربعين» و «نهاية العقول» و غير ذلك. قال صاحب المرآة: «و اختصّ بكتب ابن سينا فى المنطق و شرحها، و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۱۹۷

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۸

يعظ و ينال من الكرّاميّة و ينالون منه، و يكفّرهم و يكفّرونه، و قيل: إنّهم دسّوا عليه من سقاه السم فمات ففرحوا بموته؛ و كانوا يرمونه بالكبائر، و كانت وفاته فى ذى الحجّة. ثم ذكر عنه صاحب المرآة أشياء، الأليق الإضراب عنها و السّكات عن ذكرها.

و فيها توفّى المبارك بن محمد بن محمد بن عبد الكريم أبو السعادات مجد الدين ابن الأثير الموصلىّ الجزرىّ الكاتب، ولد سنة أربعين و خمسمائة بجزيرة ابن عمر، ثم انتقل إلى الموصل و كتب لأمرائها، و كانوا يحترمونه، و كان عندهم بمنزلة الوزير الناصح إلّا أنّه كان منقطعا إلى العلم قليل الملازمة لهم. صنّف الكتب الحسان، منها: «جامع الأصول فى أحاديث الرسول»، جمع فيه بين الصّحاح الستة. و كتاب «النهاية فى غريب الحديث» فى خمسة مجلدات. و كتاب «الإنصاف فى الجمع بين الكشف و الكشّاف» فى تفسير القرآن، أخذه من تفسير الثّعلبىّ و الزمخشرىّ، و له كتاب «المصطفى و المختار فى الأدعية و الأذكار» و له كتاب لطيف فى صناعة الكتابة، و كتاب «البديع فى شرح الفصول فى النحو لابن الدّهان» و له «ديوان رسائل»، و كتاب «الشافى فى شرح مسند الإمام الشافعىّ» - رضى اللّه عنه-. و من شعره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۱۹۹

- رحمه اللّه- ما أنشده لصاحب الموصل، و قد زلّت به بغلته و ألقته إلى الأرض:

إن زلّت البغلة من تحته فإنّ فى زلّتها عذرا

حمّلها من علمه شاهقا أو من ندى راحته بحرا

و كانت وفاته بالموصل فى يوم الخميس سلخ ذى الحجّة، و دفن برباطه بدرب درّاج، و هو أخو أبى الحسن علىّ بن الجزرىّ الكاتب. الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى القاضى وجيه الدين أسعد بن المنجّا التّنوخىّ فى المحرّم، و له سبع و ثمانون سنة. و أبو مسلم المؤيّد [هشام] بن عبد الرحيم [بن أحمد بن محمد] بن الإخوة العدل بأصبهان فى جمادى الآخرة. و أبو عبد اللّه محمود بن أحمد المضرىّ الأصبهانىّ إمام جامع أصبهان عن تسع و ثمانين سنة. و أبو القاسم إدريس بن محمد العطّار بأصبهان، و له نحو مائة سنة.

و فخر الدين أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن الحسين الرازىّ المصنّف ابن خطيب الرىّ يوم عيد الفطر، و له اثنتان و ستون سنة. و مجد الدين يحيى بن الربيع الواسطىّ مدرس النظاميّة عن ثمان و سبعين سنة. و مجد الدين أبو السعادات المبارك بن الأثير الجزرىّ الكاتب صاحب «جامع الأصول» و «النهاية» فى سلخ العام، و له ثلاث

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۰

و ستون سنة. و أمّ هانىء عفيفة بنت أحمد الفارفانيّة مسندة أصبهان، و لها ستّ و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ست عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۷]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و ستمائة.

فيها حجّ بالناس من الشام سيف الدّين [علىّ] بن علم الدين سليمان بن جندر.

و فيها توفّى أرسلان [شاه] بن عزّ الدين مسعود الأمير نور الدين الأتابك صاحب الموصل، كان متكبّرا جبّارا بخيلا فاتكا سفّا كالدماء، حبس أخاه علاء الدين سنين حتّى مات فى حبسه، و ولّى الموصل لرجل ظالم يقال له السراج فأهلك الحرث و النّسل، و كانت وفاة أرسلان هذا فى صفر. و خلّف و لدين: القاهر مسعودا و زنكى، و أوصى إلى بدر الدين لؤلؤ أن يكون مسعود السلطان و يكون زنكى فى شهرزور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۱

و فيها توفّى عبد الوهّاب بن علىّ الشيخ أبو محمد الصّوفىّ ضياء الدين المعروف بابن سكينة سبط شيخ الشيوخ إسماعيل بن أحمد النّيسابورىّ. و كان فاضلا محدّثا عابدا زاهدا، و كان ينشد لمحمد الفارقىّ - رحمه اللّه-:

تحمّل أخاك على خلقه فما فى استقامته مطمع

و أنّى له خلق واحد و فيه طبائعه الأربع

و فيها توفّى عمر بن محمد بن معمّر بن أحمد بن يحيى بن حسّان المسند الكبير رحلة الآفاق أبو حفص بن أبى بكر البغدادىّ الدّارقزّىّ المؤدّب المعروف بآبن طبرزذ، و الطّبرزذ: هو السّكر. ولد فى ذى الحجّة سنة ست عشرة و خمسمائة، و سمع الكثير بإفادة أخيه المحدّث أبى البقاء محمد ثم بنفسه، و حصّل الأصول و حفظها إلى وقت الحاجة إليه، فلمّا كبرت سنّه حدّث بالكثير، و صار رحلة الزمان إلى أن مات فى تاسع شهر رجب ببغداد؛ و دفن بباب حرب.

و فيها توفّى محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام الإمام القدوة الزاهد أبو عمر المقدسىّ الجمّاعيلىّ. قال ابن أخته الحافظ ضياء الدين: مولده فى سنة ثمان و عشرين و خمسمائة بجمّاعيل، و سمع الكثير بدمشق من والده و خلق كثير سواه، و روى عنه أخوه الشيخ الموفّق و ولداه شرف الدين عبد اللّه و شمس الدين عبد الرحمن و جماعة كثيرة، و كان إماما عالما زاهدا و رعا متقنا متعبّدا: قال أبو المظفّر: و كان معتدل القامة حسن الوجه، عليه أنوار العبادة لا يزال مبتسما،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۲

نحيل الجسم من كثرة الصيام و القيام. ثم قال- بعد كلام طويل و بعد أن أورد أشعارا كثيرة- و أنشدنى لغيره:

لى حيلة فيمن ينمّ و ليس فى الكذّاب حيله

من كان يخلق ما يقو ل فحيلتى فيه قليله

و فيها توفّى الوجيه بن النّورىّ المصرىّ الفقيه المقرئ الحنفىّ إمام مقصورة الحنفية الغربية بجامع دمشق، كان صالحا ديّنا فقيرا قارئا للقرآن بالسبع. قال أبو المظفّر و أنشد لغيره:

و من عادة السادات أن يتفقّدوا أصاغرهم و المكرمات مصايد

سليمان ذو ملك تفقد هدهدا و إنّ أقلّ الطائرات الهداهد

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى أبو محمد جعفر بن محمد [بن أبى محمد] بن آموسان الأصبهانىّ بعد

حجّه بالمدينة فى المحرّم، و له خمس و سبعون سنة. و أبو محمد عبد الوهّاب ابن الأمين علىّ بن سكينة الصوفىّ مسند العراق و شيخها، و له ثمان و ثمانون سنة. مات فى شهر ربيع الآخر. و الشيخ أبو عمر محمد بن أحمد بن محمد بن قدامة الزاهد شيخ المقادسة فى شهر ربيع الآخر، و له تسع و سبعون سنة. و عائشة بنت معمّر بن الفاخر عن بضع و ثمانين سنة. و أبو الفرج محمد بن هبة اللّه بن كامل الوكيل ببغداد عن خمس و ثمانين سنة. و أبو حفص عمر ابن محمد بن معمّر بن طبرزذ عن إحدى و تسعين سنة، كلاهما فى رجب.

و أبو المجد زاهر بن أحمد بن أبى غانم الثّقفىّ الأصبهانىّ و قد قارب التسعين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۳

فى ذى القعدة. و أسعد بن سعيد [بن محمود بن محمد بن أحمد بن جعفر] بن روح التاجر بأصبهان فى ذى الحجّة، و له تسعون سنة، و ختم به حديث الطّبرانىّ فى الدنيا.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم لم يوجد له قاع فى هذه السنة.

مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا و أربع أصابع، بعد ما توقّف عن الزيادة أيّاما.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۸]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و ستمائة.

فيها قدم بغداد رسول جلال الدين حسن صاحب ألموت، يخبر الخليفة بأنّهم تبرّءوا من الباطنيّة، و بنوا الجوامع و المساجد، و أقيمت الجمعة و الجماعات عندهم، و صلّوا التراويح فى شهر رمضان؛ فسرّ الخليفة و الناس بذلك. و قدمت الخاتون أمّ جلال الدين حاجّة، و احتفل بها الخليفة، و جهّز لها ما يليق بها.

و فيها بعث الخليفة الناصر لدين اللّه خاتمه للأمير وجه السّبع بالشام، و قد تقدّم ذكره فيما مضى، فتوجّه وجه السبع إلى الخليفة و معه رسول الملك العادل صاحب الترجمة، فأكرم الخليفة وجه السبع، و أعطاه الكوفة إقطاعا.

و فيها توفّى عبد الواحد بن عبد الوهّاب بن علىّ بن سكينة و يلقّب بالمعين.

ولد سنة اثنتين و خمسين و خمسمائة، و سافر إلى الشام فى أيام الأفضل، و بسط

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۴

لسانه فى الدولة، ثم عاد إلى بغداد بأمان من الخليفة؛ و ولى مشيخة الشيوخ.

و مات غريقا فى البحر، و كان سمع جدّه لأمّه شيخ الشيوخ عبد الرحيم و غيره.

و أنشد لجدّه المذكور قوله فى الخضاب:

و لم أخضب مشيبى و هو زين لإيثارى جهالات الشّباب

و لكن كى يرانى من أعادى فأرهبه بوثبات التّصابى

و فيها توفّى مظفر الماسكى البغدادىّ، كان ظريفا أديبا، و كان يقول من الشعر «كان و كان» و غيره. و من شعره فى «كان و كان» قوله:

ذى زوجها ما شطها و كل من جا حفّها قصده يرى النقش عنده فى كفّها ألوان

إن شندرت فلوجهه تصيب قبل كفوفها ما صحّ ذاك النشادر إلّا من الدّخان

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المعالى محمد ابن صالح آخر من حدّث عن الميورقىّ. و يحيى بن

البنّاء، و له تسعون سنة.

و أبو الفتح منصور بن عبد المنعم بن عبد اللّه بن [محمد] الفراوىّ العدل بنيسابور، و له ستّ و ثمانون سنة فى شعبان. و القاضى أبو القاسم هبة اللّه بن جعفر بن سناء الملك بمصر. و أبو عبد اللّه محمد بن أيّوب بن محمد بن [وهب بن محمد بن وهب] بن نوح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۵

الغافقىّ ببلنسية، و له ثمان و سبعون سنة. و الخضر بن كامل [بن سالم] بن سبيع الدلّال بدمشق. و أبو العبّاس أحمد بن الحسن بن أبى البقاء العاقولىّ فى ذى الحجّة ببغداد.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ست أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و عشر أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۰۹]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر.

و هى سنة تسع و ستمائة.

فيها اجتمع الملك العادل المذكور و أولاده: الكامل و الفائز و المعظّم على دمياط لقتال الفرنج، و كان الأمير أسامة بالقاهرة، فاتّهم بمكاتبة الملك الظاهر غازى صاحب حلب، و وجدوا كتبا إليه و أجوبة؛ فخرج أسامة المذكور من القاهرة كأنّه يتصيّد و ساق إلى الشام فى مماليكه يطلب قلعة كوكب و عجلون. و كان ذلك فى يوم الاثنين سلخ جمادى الآخرة. فأرسل و الى بلبيس الحمام إلى دمياط بالخبر؛ فقال العادل: من ساق خلفه فله أمواله و قلاعه؛ فقال ولده الملك المعظم عيسى: أنا، و ركب من دمياط يوم الثلاثاء غرّة رجب. قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ:

«و كنت معه، فقال لى: أنا أريد أن أسوق فآبق أنت مع قماشى و دفع لى بغلة، و ساق و معه نفر يسير و على يده حصان، فكان صباح يوم الجمعة بغزّة، [ساق مسيرة ثمانية أيام فى ثلاثة أيّام] فسبق أسامة. [و أمّا أسامة] فتقطّع عنه مماليكه و بقى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۶

وحده؛ و كان به مرض النّقرس (يعنى بأسامة)، فجاء إلى بلد الدّاروم؛ و كان المعظّم أمسك عليه من البحر إلى الزّرقاء، فرآه بعض الصيّادين فى برّية الدّاروم فعرفه، فقال له: انزل، فقال: هذه ألف دينار و أوصلنى إلى الشام، فأخذها الصيّاد و جاء إلى رفاقه [فعرفوه أيضا]، فأخذوه على طريق الخليل ليحملوه إلى عجلون، فدخلوا به إلى القدس فى يوم الأحد فى سادس رجب بعد وصول المعظّم بثلاثة أيام، فتسلّمه المعظّم و أنزله بصهيون، و بعث إليه بثياب و طعام و لا طفه [و راسله] و قال له:

أنت شيخ كبير و بك نقرس و ما تصلح لك قلعة، سلّم إلىّ كوكب و عجلون، و أنا أحلف لك على مالك و جميع أسبابك، و تعيش بيننا مثل الوالد. فامتنع و شتم المعظّم، فبعث به المعظّم إلى الكرك فاعتقله بها، و استولى على قلاعه و أمواله و ذخائره [و خيله]، فكان قيمة ما أخذ منه ألف ألف دينار.

و فيها حجّ بالناس من العراق حسام الدين بن أبى فراس نيابة عن محمد بن ياقوت، و كان معه مال و خلع لقتادة صاحب مكّة. و حجّ بالناس من الشام شجاع الدين بن محارب، من على أيلة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۷

و فيها توفّى الملك الأوحد نجم الدين أيّوب ابن السلطان الملك العادل أبى بكر صاحب الترجمة. كان صاحب خلاط و غيرها فى أيام أبيه الملك العادل، و قد تقدّم ذكر أخذه خلاط و غيرها؛ و كان قد ابتلى بأمراض مزمنة، و كان يتمنّى الموت و كان قد استزار أخاه الملك الأشرف موسى من حرّان، فأقام عنده أياما، و اشتدّ مرضه فطلب الأشرف الرجوع إلى حرّان لئلا يتخيّل منه الأوحد، فقال

له الأوحد: يا أخى، لم تلحّ فى الرّواح! و اللّه إنّى ميّت و أنت تأخذ البلاد من بعدى، فكان كذلك. و ملك الأشرف بعد موته خلاط و أحبّه أهلها. كلّ ذلك فى حياة أبيهما الملك العادل هذا. فكانت مدّة تملّك الأوحد خلاط أقلّ من خمس سنين، و وجد عليه الملك العادل كثيرا.

و فيها توفّى محمود بنعثمان بن مكارم أبو الثناء الحنبلىّ، كان شيخا زاهدا عابدا صاحب رياضات و مجاهدات يصوم الدهر، و انتفع بصحبته خلق كثير، و كان من الأبدال.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو جعفر أحمد ابن علىّ الأنصارىّ الدّانىّ الحصّار المقرئ ببلنسية، استشهد فى وقعة العقاب هو و خلق من المسلمين. و أبو الفرج محمد بن علىّ بن حمزة بن القبّيطىّ، و له نيّف و ثمانون سنة. و الحافظ أبو نزار ربيعة بن الحسن الحضرمىّ اليمنىّ بمصر عن اثنتين و ثمانين سنة. و أبو [شجاع] زاهر بن رستم المقرئ بمكّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۸

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۰]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة عشر و ستمائة.

فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبى فراس نيابة عن ابن ياقوت. و حجّ بالناس من الشام الغرز صديق بن تمرداش التّركمانىّ من على عقبة أيلة بحجّاج الكرك و القدس.

و حجّ فى هذه السنة الملك الظافر خضر ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب من على تيماء، و معه حجّ الشام بأذن عمّه السلطان الملك العادل- فيما قيل-، فلمّا بلغ الملك الكامل محمّد بن العادل أنّه توجّه إلى الحجاز خاف على بلاد اليمن منه، فوجّه إليه عسكرا من مصر فلحقوه، و قالوا له: ارجع؛ فقال: قد بقى بينى و بين مكّة مسافة يسيرة، و اللّه ما قصدى اليمن، و إنّما قصدى الحجّ، فقيّدونى و احتاطوا بى حتّى أقضى المناسك و أعود إلى الشام؛ فلم يلتفتوا لكلامه؛ فأراد أن يقاتلهم فلم يكن له بهم طاقة، فرجع إلى الشام و لم يحجّ.

و فيها توفّى الأمير أيدغمش صاحب همذان، أرسله الخليفة إلى همذان فسار و انتظر العسكر و طال عليه الأمر فرحل عن همذان. فالتقاه عسكر منكلى بغا ملك

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۰۹

التتار، و قاتلوه فقتلوه، و حملوا رأسه إلى منكلى بغا المذكور. و كان أميرا صالحا كثير الصدقات ديّنا صائما عادلا كثير المحاسن- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الوزير الرئيس سعيد بن علىّ بن أحمد أبو المعالى بن حديدة من ولد قطبة بن عامر بن حديدة الأنصارىّ الصحابىّ. و كان مولده بكرخ سامرّا سنة ست و ثلاثين و خمسمائة؛ و كان له مال كثير، و استوزره الخليفة الناصر لدين اللّه، و وقع له بعد ذلك محن، فهرت و اختفى إلى أن توفّى.

و فيها توفّى الأمير سنجر [بن عبد اللّه] الناصرىّ صهر طاشتكين، و كان ذليلا بخيلا ساقط النفس مع كثرة المال. و تولّى مرّة إمرة الحاجّ [سنة تسع و ثمانين و خمسمائة] فاعترض الحاجّ رجل بدوىّ فى نفر يسير جدّا، و كان مع سنجر هذا خمسمائة نفس، فذلّ و جبن عن ملاقاته، و جبى له مالا من الحجّ؛ فلمّا دخل بغداد رسم عليه الخليفة حتّى أخذ منه المال و ردّه إلى أصحابه، ثمّ عزله و أخذ إقطاعه.

الـذين ذكر الـذهبىّ وفـاتهم فى هـذه السـنة، قال: و فيها توفّى أبو الحسن مهـذّب الـدين علىّ بن أحمـد بن علىّ [المعروف بابن هبل] البغدادىّ الطبيب بالموصل.

و أبو عبد اللّه الحسـين بن سعيد بن الحسين بن شنيف الدّارقزّىّ الأمين ببغداد، كلاهما فى المحرّم. و أمّ النور عين الشمس بنت أحمد بن أبى الفرج الثّقفيّة، و لها ستّ و ثمانون سنة. و أبو مسعود عبد الجليل بن أبى غالب [ابن أبى المعالى بن محمد بن الحسين]

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۰

ابن منـدويه الصوفىّ بـدمشق عن ثمان و ثمانين سـنة، و إنّما سـمع فى كبره. و تاج الأمناء أحمـد بن محمـد بن الحسن بن هبـة اللّه بن عساكر الدمشقىّ. و الفخر إسماعيل بن علىّ الحنبلىّ المتكلّم غلام بن المنّى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۱]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى عشرة و ستمائة.

قلت: و فى مـدّة هـذه السـنين كلّهـا [كان] صاحب مصـر ولـده الكامل محمـد بن العادل، و الملك العادل يتنقّل فى البلاد، غير أنّه هو الأصل فى السلطنة و عليه المعوّل؛ و لا تحسب سلطنة الكامل على مصر إلّا بعد موت أبيه العادل هذا.

كما سيأتى ذكره إن شاء اللّه تعالى.

فيهـا ملـك اليمن أضـيس بن الملـك الكامـل محمـد بن الملك العادل أبى بكر صاحب الترجمـة. و لقب أضـيس المـذكور بالملك المسـعود، و العامّة يسـمّونه «أقسـيس» و غلب عليه مقالة العامّة، و الصواب ما قلناه لأنّ والده الملك الكامل ما كان يعيش له ولد، فلمّا ولد له هذا أضسيس قال له بعض الأتراك: فى بلادنا إذا كان الإنسان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۱

لا يعيش له ولد يسـمّونه أضسـيس. و معناه باللغة التركية: ماله اسم؛ فسـمّاه والده الملك الكامل بذلك؛ فلمّا كبر ثقل على العامّة لفظ أضسيس؛ فسمّوه «أقسيس».

انتهى.

و كان أقسيس المذكور شابّا جبّارا فاتكا قتل باليمن نحو ثمانمائة شريف.

و دخل إلى مكّـة إلى حاشـية الطواف راكبا. و قيل إنه: كان يسـكر و ينام بدار على المسـعى، فتخرج أعوانه تمنع الناس من الصّياح و الضّجيج فى المسعى، و يقولون:

الأمير سـكران نائم! لا ترفعوا أصواتكم بالذكر و التّلبية! و قتل أقسـيس هذا خلقا كثيرا من الأكابر و العظماء. و لو لم يحجّ عمّه الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق ما قدر أقتسيس هذا على أخذ اليمن. كلّ ذلك فى حياة جدّه الملك العادل صاحب الترجمة.

و فيها أخذ الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل هذا قلعة صرخد من الأمير [ابن] قراجا، و عوّضه مالا و إقطاعا.

و فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبى فراس بن ورّام نائبا عن محمد بن ياقوت.

و فيها حـجّ الملك المعظّم عيسـى المقـدّم ذكره من دمشق، و حـجّ معه عـدّة أمراء من أعيان دمشق، و حـجّ على مـذهب أبى حنيفة و اسـتمرّ على المـذهب، و كلّمه والده الملك العادل صاحب الترجمة فى العود إلى مذهب الشافعىّ فلم يقبل، و جاو به بكلام السّكات عنه أليق.

و فيهـا توفّى عبـد العزيز بن محمود بن المبارك [بن محمود بن الأخضـر] الشـيخ أبو محمـد البزاز، سـمع الحـديث و أكثر و صـنّف و

كتب، و كان فاضلا ديّنا صالحا.

مات فى شوّال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۲

الـذين ذكر الـذهبىّ وفـاتهم فى هـذه السـنة، قـال: و فيها توفّى الحافظ شـرف الـدين أبو الحسن علىّ بن المفضّل بن [علىّ] المقدسـىّ الإسـكندرانىّ المالكىّ، و له سـبع و سـتون سـنة. و فقيه بغداد أبو بكر محمد بن معالى بن غنيمة بن الحلاوى الحنبلىّ، و كان من أبناء السبعين. و الحافظ عبد العزيز بن محمود [بن المبارك بن محمود] بن الأخضر، و له سبع و ثمانون سنة فى شوّال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۲]

السنة السادسة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتى عشرة و ستمائة.

فيها خرج وجه السّبع من بغـداد بالعساكر إلى همـذان للقاء منكلى مملوك السـلطان أزبك خان، و كان قد عصـى على مولاه و على الخليفـة و قطع الطريق، فكتب الخليفـة إلى ابن زين الدين، و إلى الملك الظاهر غازى صاحب حلب، و إلى الملك العادل هذا يطلب العساكر، فجاءته العساكر من كلّ مكان؛ و توجّه ابن زين الدين مقدّم العساكر، و جاء أزبك و جلال الدين مقدّم الإسماعيليّة. و جمع أيضا منكلى جموعا كثيرة و التقوا قريبا من همذان، و اقتتلوا قتالا شديدا، فكانت الدائرة على منكلى، و قتل من أصـحابه ستة آلاف، و نهبوا أثقاله، فحال بينهم اللّيل فصعد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۳

منكلى على جبل، و ابن زين الـدين و العساكر أسـفل، و أوقـد منكلى نارا عظيمة و هرب فى اللّيل، فأصـبح الناس و ليس لمنكلى أثر؛ ثم قتل منكلى بعد ذلك. و أزبك خان هذا هو غير أزبك خان النّترىّ المتأخّر.

و فيها أخذ خوارزم شاه محمد [بن تكش] مدينة غزنة من يلدز تاج الدين مملوك شهاب الدين [أحمد] الغورىّ بغير قتال.

و فيها أخذ ابن لاون الإفرنجىّ أنطاكية فى يوم الأحد رابع عشرين شوّال.

و فيها حجّ بالناس ابن أبى فراس من العراق نيابة عن محمد بن ياقوت.

و فيها توفّى علىّ ابن الخليفة الناصر لدين اللّه العباسىّ و كنيته أبو الحسن. و كان لقّبه أبوه الخليفة بالملك المعظّم، و كان جليلا نبيلا. مات فى ذى القعدة و أخرج تابوته و بين يديه أرباب الدولة. و من الاتّفاق الغريب أنّه يوم الجمعة دخل بغداد رأس منكلى على رمح، و زيّنت بغـداد و أظهر الخليفـة السـرور و الفرح، و وافق تلك الساعـة وفاة ابن الخليفـة علىّ هـذا، و وقع صـراخ عظيم فى دار الخلافة، فانقلب ذلك الفرح بحزن. و خرجت المخدّرات من خدورهنّ و نشرن شعورهنّ.

قال أبو المظفّر: «و لطمن و قام النوائـح فى كلّ ناحيـة، و عظم حزن الخليفـة بحيث إنه امتنع من الطعام و الشـراب، و غلّقت الأسواق، و عطّلت الحمّامات، و بطل البيع و الشّراء، و جرى ما لم يجر قبله. و كان الخليفة قد رشّـحه للخلافة، ففعل اللّه فى ملكه ما أراد. و خلّف و لدين: أبا عبد اللّه الحسين و لقّبه جدّه «المؤيد» و يحيى و لقّبه ب «الموفّق».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۴

و فيهـا توفّى المبـارك بن المبارك أبو بكر الواسـطىّ النحوىّ. ولـد سـنة أربع و ثلاثين و خمسـمائة، و كان حنبليّا، ثم صار حنفيّا، ثم صار شافعيّا لأسباب وقعت له، و كان قرأ الأدب على ابن الخشّاب و غيره، و كان أديبا فاضلا شاعرا.

و من شعره- رحمه اللّه- قوله:

لا خير فى الخمر فمن شأنها إفقادها العقل و جلب الجنون

أو أن ترى الأقبح مستحسنا و تظهر السرّ الخفىّ المصون

قلت: و يعجبنى قول القائل، و هو قريب ممّا نحن فيه:

على قدر عقل المرء فى حال صحوه تؤثّر فيه الخمر فى حال سكره

فتأخذ من عقل كبير أقلّه و تأتى على العقل اليسير بأسره

الـذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى الفقيه سـليمان بن محمد بن علىّ الموصـلىّ فى صـفر، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو العبّاس أحمد بن يحيى ابن بركة الدّبيقىّ البزّاز فى شهر ربيع الأول، و له أربع و ثمانون سنة أيضا.

و الحافـظ عبـد القـادر [بن عبـد اللّه أبو محمـد] الرّهـاوى بحرّان، و له ست و سـبعون سـنة فى جمادى الأولى. و أبو الفرج [يحيى] بن ياقوت الفرّاش فى جمادى الاخرة. و القدوة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۵

الزاهـد أبو الحسن علىّ بن الصّيّباغ بن حميـد الصّعيدىّ ببلـدة قنا. و أبو الفتوح محمد بن علىّ الجلاجلىّ التاجر بالقدس عن إحدى و سبعين سـنة. و محمـد بن أبى المعالى [عبـد اللّه] بن موهوب الصوفىّ ابن البنّاء فى ذى القعـدة. و أبو محمـد عبـد العزيز بن معالى [بن غنيمة بن الحسن المعروف ب] ابن منينا الاشنانىّ، و له سبع و ثمانون سنة.

مات فى ذى الحجّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثمانى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۳]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث عشرة و ستمائة.

فيها جهّز الخليفة الناصـر لدين اللّه ولدى ولده المقدّم ذكرهما إلى تستر، و ضمّهما إلى بدر الدين محمد سبط العقاب، و خرج أرباب الدولة بين يديهما، و ضرب لهما خيمة الأطلس بأطناب خضر إبريسم، و على رءوسهما الشمسيّة و البنود و الأعلام،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۶

و خلفهما الكوسات، و سار معهما نجاح الشـرّابىّ و المكين القمّىّ بالعساكر فى سابع المحرّم، فأقاما بتستر شهرين فلم تطب لهما، فعادا إلى بغداد عند جدّهما الخليفة فى شهر ربيع الآخر.

و فيها توفّى الملك الظاهر غازى- على ما يأتى ذكره- فى هذه السـنة. و توجّه الشـيخ أبو العبّاس عبد السلام بن [أبى] عصرون رسولا من الملك العزيز محمد بن الظاهر غازى المذكور إلى الخليفة الناصر لدين اللّه يطلب تقريره بسلطنة حلب على ما كان أبوه عليها.

و فيهـا قصـد الملـك المعظّم عيسـى صـاحب دمشق الاجتماع بأخيه الملك الأشـرف موسـى، فاجتمعا بنواحى الرّقـة، و فاوض المعظّم الأشرف فى أمر حلب.

و فيها حجّ بالناس من العراق ابن أبى فراس، و من الشام الشيخ علم الدين الجعبرىّ.

و فيها توفّى زيد بن الحسن بن زيد بن الحسن [بن زيد بن الحسن] بن سـعيد بن عصـمة بن حمير العلامة تاج الدين أبو اليمن الكندى البغدادىّ المقرئ النحوىّ اللغوىّ. مولده فى شـعبان سـنة عشـرين و خمسـمائة، و حفظ القرآن و هو ابن سـبع سـنين، و كمّل القراءات العشر و له عشر سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۷

قال الـذهبىّ: «و كان أعلى أهل الأرض إسـنادا فى القراءات، فإنّى لا أعلم أحـدا من الأئمـة عاش بعـد ما قرأ القراءات [ثلاثا و] ثمانين سنـة غيره. هـذا مع أنّه قرأ على أسنّ شـيوخ العصـر بـالعراق، و لم يبق أحـد ممّن قرأ عليه مثل بقائه و لا قريبا منه، بل آخر من قرأ عليه الكمـال [بن] فارس، و عاش بعـده نيّفا و ستين سـنة. ثم إنّه سـمع الحـديث على الكبار، و بقى مسـند الزمان فى القراءات و الحـديث». انتهى كلام الذهبىّ باختصار. و كان فاضلا أديبا و مات فى شوّال. و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

دع المنجّم يكبو فى ضلالته إن ادّعى علم ما يجرى به الفلك

تفرّد اللّه بالعلم القديم فلا ال إنسان يشركه فيه و لا الملك

و فيها توفّى سعيد بن حمزة بن أحمد أبو الغنائم بن شاروخ الكاتب العراقىّ.

كان فاضلا بارعا فى الأدب، و له رسائل و مكاتبات و شعر. و من شعره القصيدة التى أوّلها:

يا شائم البرق من نجدىّ كاظمة يبدو مرارا و تخفيه الدياجير

و فيها توفّى السـلطان الملك الظاهر أبو منصور غازى صاحب حلب ابن السـلطان الملك الناصـر صـلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الـدين أيّوب. ولـد بالقاهرة فى سـنة ثمان و ستين و خمسـمائة فى سـلطنة والده. و نشأ تحت كنف والده، و ولّاه أبوه سـلطنة حلب فى حياته. و كان ملكا مهيبا و له سياسة و فطنة، و دولة معمورة بالعلماء و الأمراء و الفضلاء. و كان محسنا للرعيّة و الوافدين عليه. و حضر معظم غزوات والده

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۸

السـلطان صلاح الدين، و كان فى دولة الظاهر هذا من الأمراء: ميمون القصرىّ، و المبارز ابن يوسف بن خطلخ، و سنقر الحلبىّ، و سرا سنقر، و أيبك فطيس و غيرهم من الصـلاحيّة. و من أرباب العمائم القاضـى بهاء الـدين بن شدّاد، و الشـريف الافتخارىّ الهاشـمىّ، و الشريف النّسّابة، و بنو العجمىّ و القيسرانىّ، و بنو الخشّاب [و غيرهم].

و كان ملجأ للغرباء و كهفا للفقراء، يزور الصالحين و يتفقّدهم، و دام على ذلك إلى أن توفّى ليلة الثلاثاء العشرين من جمادى الآخرة بعلّة الـذّرب. و دفن بقلعـة حلب، ثم نقل بعـد ذلك إلى مدرسـته التى أنشأها. و قام بعـده ولـده الملك العزيز محمد بوصـيّته، و ولّاه الخليفة حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها توفّى الشـيخ عزّ الدين محمد بن الحافظ عبد الغنى المقدسىّ، ولد سنة ستّ و ستين و خمسمائة، و سمع الحديث و رحل البلاد، و كان حافظا ديّنا و رعا زاهدا.

و دفن بقاسيون.

و فيها توفّى يحيى بن محمد بن محمد بن محمد [بن محمد] أبو جعفر الشريف الحسينىّ.

ولى نقابة الطالبيّين بالبصرة بعد أبيه؛ و قرأ الأدب، و سمع الحديث، و من شعره- رحمه اللّه تعالى-:

هذا العقيق و هذا الجزع و البان فاحبس فلى فيه أوطار و أوطان

آليت و الحرّ لا يلوى أليّته ألّا تلذّ بطيب النوم أجفان

حتّى تعود لياليا التى سلفت بالأجرعين و جيرانى كما كانوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۱۹

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السـنة، قال: و فيها توفّى العلّامة تاج الدين أبو اليمن زيد بن الحسن الكندىّ فى شوّال، و له ثلاث و تسعون سنة و شهران.

و الملك الظاهر أبو منصور غازى ابن السلطان صلاح الدين بحلب فى جمادى الآخرة.

و المحدّث عزّ الدين محمد ابن الحافظ عبد الغنى المقدسىّ فى شوّال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع أصابع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۴]

السنة الثامنة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع عشرة و ستمائة.

فيها قدم الملك خوارزم شاه و اسمه محمد [بن تكش] إلى همذان بقصد بغداد فى أربعمائة ألف مقاتل، و قيل فى ستمائة ألف، فأستعدّ له الخليفة الناصر لدين اللّه، و فرّق المال و السلاح، و أرسل إليه الشيخ شهاب الدّين السّهروردىّ فى رسالة فأهانه و استدعاه و أوقفه إلى جانب تخته، و لم يأذن له بالقعود.

قال أبو المظفّر: - «حكى الشهاب قال- استدعانى فأتيت إلى خيمة عظيمة لها دهليز لم أر فى الدنيا مثله، و الدّهليز و الشقة أطلس و الأطناب حرير، و فى الدّهليز ملوك العجم على اختلاف طبقاتهم: صاحب همذان و أصبهان و الرّى و غيرهم، فدخلنا إلى خيمة أخرى إبريسم؛ و فى دهليزها ملوك خراسان: مرو و نيسابور و بلخ و غيرهم؛ ثم دخلنا خيمة أخرى، و ملوك ما وراء النهر فى دهليزها، كذلك ثلاث خيام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۰

ثم دخلنا عليه و هو فى خركاة عظيمة من ذهب؛ و عليها سجاف مرصّع بالجواهر.

و هو صبىّ له شعرات قاعد على تخت ساذج و عليه قباء بخارىّ يساوى خمسة دراهم، و على رأسه قطعة من جلد تساوى درهما، فسلّمت عليه فلم يردّ، و لا أمرنى بالجلوس؛ فشرعت فخطبت خطبة بليغة، ذكرت فيها فضل بنى العبّاس و وصفت الخليفة بالزّهد و الورع و التّقى و الدين؛ و التّرجمان يعيد عليه قولى. [فلمّا فرغت] قال للترجمان: قل له هذا الذى و صفته ما هو فى بغداد؟.: قلت: نعم. قال [أنا] أجىء و أقيم خليفة يكون بهذه الأوصاف. ثم ردّنا بغير جواب. فنزل الثّلج عليهم فهلكت دوابّهم و ركب خوارزم شاه يوما فعثر به فرسه فتطيّر، و وقع الفساد فى عسكره و قلّت الميرة. و كان معه سبعون ألفا من الخطا فردّه اللّه و نكب تلك النكبة العظيمة». و سنذكرها- إن شاء اللّه تعالى- فى محلّها.

و فيها توفّى إبراهيم [بن عبد الواحد] بن علىّ بن سرور الشيخ العماد المقدسىّ الزاهد القدوة الحنبلىّ أخو الحافظ عبد الغنى، ولد بجمّاعيل فى سنة ثلاث و أربعين و خمسمائة، فهو أصغر من الحافظ عبد الغنى بسنتين و سمع الكثير، و كان إماما حافظا عالما محدّثا زاهدا عابدا فقيها. مات فجأة فى ليلة الأربعاء سادس عشر ذى القعدة.

و فيها توفّى عبد الصمد بن محمد بن أبى الفضل بن علىّ بن عبد الواحد أبو القاسم القاضى جمال الدين الحرستانىّ الأنصارىّ شيخ القضاة. ولد بدمشق فى سنة عشرين و خمسمائة، و رحل و سمع الحديث و تفقّه، و كان إماما عفيفا خطيبا ديّنا صالحا. له حكايات مع الملك المعظّم عيسى فى أحكامه- رحمه اللّه تعالى-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۱

و فيها توفّى محمد بن أبى القاسم بن محمد أبو عبد اللّه الهكّارىّ الأمير بدر الدين، استشهد على الطور، و أبلى بلاء حسنا ذلك اليوم و كان من المجاهدين، له المواقف المشهودة فى قتال الفرنج، و كان من أكابر أمراء الملك المعظّم، كان يستشيره و يصدر عن رأيه و يثق به لصلاحه و دينه و كان سمحا جوادا.

الذين ذكر الذهبى وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى المحدّث أبو الخطّاب أحمد بن محمد البلنسىّ بمرّاكش. و أبو الحسن علىّ بن محمد بن علىّ الموصلىّ أخو سليمان. و أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكنانىّ البلنسىّ الأديب الإسكندرانىّ بها، و له أربع

و سبعون سنة. و قاضى القضاة أبو القاسم عبد الصمد بن محمد الحرستانىّ فى ذى الحجّة، و له أربع و تسعون سنة و أشهر. و الإمام عماد الدين إبراهيم ابن عبد الواحد المقدسىّ فجأة فى ذى القعدة، و له سبعون سنة. و المحدّث أبو محمد عبد اللّه بن عبد الجبّار العثمانىّ الإسكندرانىّ الكارمىّ بمكّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و سبع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۵]

اشارة

السنة التاسعة عشرة من ولاية الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى التى مات فيها العادل فى جمادى الآخرة حسب ما تقدّم ذكره، و هى سنة خمس عشرة و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۲

و فيها نزلت الفرنج على دمياط فى شهر ربيع الأوّل، و كان العادل بمرج الصّفّر، فبعث بالعساكر التى كانت معه إلى مصر إلى ولده الكامل، و أقام المعظّم بالساحل بعسكر الشام فى مقابلة الفرنج ليشغلهم عن دمياط.

و فيها استدعى الملك العادل صاحب الترجمة ابنه الملك المعظّم المقدّم ذكره و قال له: قد بنيت هذا الطّور، و هو يكون سببا لخراب الشام، و قد سلّم اللّه من كان فيه من أبطال المسلمين، و سلاح الدنيا و الذخائر؛ و أرى من المصلحة خرابه ليتوفّر من فيه من المسلمين و العدد على حفظ دمياط، و أنا أعوّضك عنه؛ فتوقّف المعظّم و بقى أيّاما لا يدخل إلى أبيه العادل، فبعث إليه العادل ثانيا و أرضاه بالمال، و وعده فى مصر ببلاد، فأجاب المعظّم و بعث و نقل ما كان فيه.

و فيها فى يوم الجمعة ثانى عشر شهر ربيع الآخر كسر الملك الأشرف موسى صاحب خلاط و ديار بكر و حلب ابن الملك العادل هذا ملك الروم كيكاوس.

و فيها أيضا بعث الأشرف المذكور بالأمير سيف الدين بن كهدان و المبارز ابن خطلخ بجماعة من العساكر نجدة إلى أخيه الملك الكامل بدمياط، كلّ ذلك و القتال عمّال بين الملك الكامل و الفرنج على ثغر دمياط.

و فيها فى آخر جمادى الأولى أخذ الفرنج برج السّلسلة من الكامل، فأرسل الكامل شيخ الشيوخ صدر الدين إلى أبيه العادل و أخبره، فدقّ العادل بيده على صدره، و مرض من قهره مرض الموت.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۳

و فيها فى جمادى الآخرة التقى الملك المعظّم الفرنج بساحل الشام و قاتلهم فنصره اللّه عليهم، و قتل منهم مقتلة، و أسر من الدّاويّة مائة فارس، و أدخلهم القدس منكّسى الأعلام.

و فيها وصل رسول خوارزم شاه إلى الملك العادل هذا و هو بمرج الصّفّر، فبعث بالجواب الخطيب الدّولعىّ و نجم الدين خليل [بن علىّ الحنفى] قاضى العسكر، فوصلا همذان فوجدا الخوارزمىّ قد اندفع بين يدى الخطا [و التتار]، و قد خامر عليه عسكره، فسارا إلى حدّ بخارى؛ فاجتمعا بولده الملك جلال الدين فأخبرهما بوفاة العادل صاحب الترجمة مرسلهما، فرجعا إلى دمشق.

و فيها حجّ بالناس من بغداد أقباش الناصرى.

و فيها توفّى عبد اللّه بن الحسين أبو القاسم عماد الدين الدّامغانىّ الحنفىّ قاضى القضاة ببغداد؛ و مولده فى شهر رجب سنة أربع و

ستين و خمسمائة. و كان له صمت و وقار و دين و عصمة و عفّة و سيرة حسنة مع العلم و الفضل، و كانت وفاته فى ذى القعدة و دفن بالشّونيزيّة.

و فيها توفّى كيكاوس الأمير عزّ الدين صاحب الروم، كان جبّارا ظالما سفّاكا للدماء، و لمّا عاد إلى بلده من كسرة الأشرف موسى اتّهم أقواما من أمراء دولته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۴

أنهم قصّروا فى قتال الحلبيّين، و سلق منهم جماعة فى القدور، و جعل آخرين فى بيت و أحرقه؛ فأخذه اللّه بغتة. و مات سكران فجأة؛ و قيل: بل ابتلى فى بدنه، و تقطّعت أوصاله. و كان أخوه علاء الدين كيقباد محبوسا فى قلعة، و قد أمر كيكاوس بقتله، فبادروا و أخرجوه، و أقاموه فى الملك. و كانت وفاة كيكاوس فى شوّال، و هو الذى أطمع الفرنج فى دمياط.

و فيها توفّى خوارزم شاه و اسمه محمد بن تكش بن إيل أرسلان بن أتسز ابن محمد بن أنوشتكين السلطان علاء الدين المعروف بخوارزم شاه.

قال ابن واصل: نسبه ينتهى إلى إيلتكين أحد مماليك السلطان ألب أرسلان ابن طغرلبك السّلجوقىّ، و كانت سلطنة خوارزم شاه المذكور فى سنة ست و تسعين و خمسمائة عند موت والده السلطان علاء الدين تكش.

و قال عز الدين بن الأثير: كان صبورا على التعب و إدمان السّير غير متنعّم و لا مقبل على اللّذات، إنّما همّته فى الملك و تدبيره و حفظه و حفظ رعيّته، و كان فاضلا عالما بالفقه و الأصول و غيرهما، و كان مكرما للعلماء محبّا لهم محسنا إليهم يحبّ مناظرتهم بين يديه و يعظم أهل الدين و يتبرّك بهم.

- قلت: و هذا بخلاف ما ذكره أبو المظفّر ممّا حكاه عن الشيخ شهاب الدين السّهروردىّ، لمّا توجه إلى خوارزم شاه هذا رسولا من قبل الخليفة الناصر لدين اللّه فإنّه ذكر عنه أشياء من التكبّر و التعاظم عليه، و عدم الالتفات له، و إنّه صار لا يفهم كلام السّهروردىّ إلّا بالتّرجمان؛ و لعلّه كان فعل ذلك لإظهار العظمة، و هو نوع من تجاهل العارف- قال: و كان أعظم ملوك الدنيا و اتّسعت ممالكه شرقا و غربا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۵

و هابته الملوك حتّى لم يبق إلّا من دخل تحت طاعته و صار من عسكره. و محق أبوه التّتار بالسيف و ملك منهم البلاد. و وقع له أمور طويلة حتّى إنّه نزل همذان، و كان فى عسكره سبعون ألفا من الخطا؛ فكاتب القمّىّ عساكره و وعدهم بالبلاد، فآتّفقوا مع الخطا على قتله. و كان خاله من الخطا و حلّفوه ألّا يطلعه على ما دبّروا عليه، فجاء إليه فى الليل و كتب فى يده صورة الحال، فقام و خرج من وقته و معه ولداه: جلال الدين و آخر؛ و لمّا خرج من الخيمة دخل الخطا و العساكر من بابها ظنّا منهم أنّه فيها، فلم يجدوه فنهبوا الخزائن، يقال: إنّه كان فى خزائنه عشرة آلاف ألف دينار، و ألف حمل قماش أطلس، و عشرون ألف فرس و بغل، و كان له عشرة آلاف مملوك، فتمزّق الجميع و هرب ولداه إلى الهند، و هرب خوارزم شاه إلى الجزيرة، و فيها قلعة ليتحصّن بها، فمات دون طلوع القلعة المذكورة فى هذه السنة، و قيل: فى سنة سبع عشرة و ستمائة. و اللّه أعلم.

و فيها توفّى الملك القاهر عزّ الدّين مسعود [بن أرسلان بن مسعود بن مودود ابن زنكى أبو الفتح] صاحب الموصل، و ترك ولدا صغيرا اسمه محمود، فأخرج الأمير بدر الدين لؤلؤ زنكىّ أخا القاهر من الموصل و استولى عليها، و دبّر مملكة محمود المذكور.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۶

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الشهاب فتيان بن علىّ الشاغورىّ الأديب. و صاحب الروم السلطان عزّ الدين كيكاوس، و ولى بعده علاء الدين أخوه. و صاحب الموصل عزّ الدين مسعود بن أرسلان شاه الاتابكىّ.

و صاحب مصر و غيرها السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيّوب فى جمادى الآخرة عن سبع و سبعين سنة. و أبو الفتوح

محمد بن محمد [بن محمد] بن عمروك البكرىّ النّيسابورىّ الصّوفىّ فى جمادى الآخرة، و هو فى عشر المائة.

و الشمس أبو القاسم أحمد بن عبد اللّه بن عبد الصمد السلمىّ العطّار فى شعبان.

و الحافظ أبو العبّاس أحمد بن أحمد بن أحمد بن كرم البندنيجىّ فى رمضان عن أربع و سبعين سنة، سمع ابن الزّاغونىّ. و أمّ المؤيّد زينب بنت عبد الرحمن بن الحسن الشّعريّة، و لها إحدى و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ستّ أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۷

ذكر سلطنة الملك الكامل على مصر

أعنى بذلك استقلالا بعد وفاة أبيه العادل، لأنّ الكامل هذا كان متولّى سلطنة مصر فى حياة والده العادل، لمّا قسم العادل الممالك فى أولاده من سنين عديدة؛ أعطى المعظّم عيسى دمشق، و أعطى الأشرف موسى الشرق، و أعطى الملك الكامل محمدا هذا مصر، و صار هو يتنقّل فى ممالك أولاده، و العمدة فى كلّ الممالك عليه إلى أن مات الملك العادل تفرّد الملك الكامل محمد بالخطبة فى ديار مصر و أعمالها، و استقلّ بأمورها و تدبير أحوالها، و ذلك من يوم وفاة والده الملك العادل المذكور، و هو من يوم الجمعة سابع جمادى الآخرة من سنة خمس عشرة و ستمائة.

قلت: و قد تقدّم نسب الملك الكامل هذا فى ترجمة عمه السلطان صلاح الدين، و استوعبنا ذلك من عدّة أقوال و حررناه، فلينظر هناك.

قال أبو المظفّر: «ولد الكامل سنة ثلاث و سبعين و خمسمائة، و كان أكبر أولاد العادل بعد مودود، و كان العادل قد عهد إليه لما رأى من ثباته و عقله و سداده.

و كان شجاعا ذكيّا فطنا يحبّ العلماء و الأمائل و يلقى عليهم المشكلات، و يتكلّم على صحيح مسلم بكلام مليح، و يثبت بين يدى العدوّ. و أمّا عدله فإليه المنتهى» انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين محمد الذهبىّ فى تاريخ الإسلام: «الملك الكامل محمد السلطان ناصر الدين أبو المعالى و أبو المظفّر ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر محمد بن أيّوب بن شادى صاحب مصر. ولد بمصر سنة ست و سبعين و خمسمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۸

- قلت: و هذا بخلاف ما نقله أبو المظفّر فى سنة مولده، و عندى أنّ أبا المظفر أثبت لصحبته بأخيه المعظم عيسى، و كونه أيضا عصرى الملك الكامل هذا-.

و اللّه أعلم.

قال (أعنى الذهبىّ): و أجاز له العلّامة عبد اللّه بن برّى، و أبو عبد اللّه ابن صدقه الحرّانىّ، و عبد الرحمن بن الخرقىّ، قرأت بخطّ ابن مسدىّ فى معجمه. كان الكامل محبّا للحديث و أهله، حريصا على حفظه و نقله، و للعلم عنده شرف؛ خرّج له أبو القاسم بن الصّفراوىّ أربعين حديثا، و سمعها جماعة.

و حكى لى عنه مكرم الكاتب أنّ أباه العادل استجاز له السّلفىّ قبل موت السّلفىّ بأيّام، قال ابن المسدىّ: ثم وقفت أنا على ذلك و أجاز لى [و] لابنى. قال الذهبىّ:

و تملّك الديار المصريّة أربعين سنة، شطرها فى أيّام والده. و قيل: بل ولد فى ذى القعدة سنة خمس و سبعين. قلت: و هذا قول ثالث فى مولده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۲۹

و قال الحافظ عبد العظیم المنذریّ استادار الحدیث بالقاهرة (یعنی بذلک المدرسة الکامليّة ببین القصرین). قال: و عمّر القبّة علی ضریح الشافعیّ، و أجری الماء من برکة الحبش إلی حوض السّبیل و السّقایة، و هما علی باب القبّة المذکورة،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۰

و وقف غیر ذلک من الوقوف علی أنواع من أعمال البر بمصر و غیرها. و له المواقف المشهودة فی الجهاد بدمیاط المدّة الطویلة، و أنفق الأموال الکثیرة، و کافح العدوّ المخذول برّا و بحرا لیلا و نهارا. یعرف ذلک من مشاهده. و لم یزل علی ذلک حتّی أعزّ اللّه الإسلام و أهله، و خذل الکفر و أهله. و کان معظّما للسّنّة النبویّة و أهلها، راغبا فی نشرها و التمسّک بها، مؤثّرا الاجتماع مع العلماء و الکلام معهم حضرا و سفرا.

انتهی کلام المنذری باختصار.

و قال القاضی شمس الدین ابن خلّکان فی تاریخه بعد ما ساق نسبه و ذکره نحوا ممّا ذکرناه حتّی قال: «و لمّا وصل الفرنج إلی دمیاط کما تقدّم ذکره، کان الملک الکامل فی مبدأ استقلاله بالسلطنة، و کان عنده جماعة کثیرة من أکابر الأمراء:

منهم: عماد الدین أحمد بن المشطوب، فاتّفقوا مع أخیه الملک الفائز سابق الدین إبراهیم ابن الملک العادل، و انضموا إلیه، فظهر للملک الکامل منهم أمور تدلّ علی أنّهم عازمون علی تفویض الملک إلیه و خلع الکامل، و اشتهر ذلک بین الناس؛ و کان الملک الکامل یداریهم لکونه فی قبالة العدوّ و لا یمکنه المقاهرة، و طوّل روحه معهم، و لم یزل علی ذلک حتّی وصل إلیه أخوه الملک المعظّم عیسی صاحب دمشق یوم الخمیس تاسع عشر ذی القعدة من سنة خمس عشرة و ستمائة، فأطلعه الکامل فی الباطن علی صورة الحال، و أنّ رأس هذه الطائفة ابن المشطوب، فجاءه یوما علی غفلة فی خیمته و استدعاه فخرج إلیه، فقال [له]: أرید أن أتحدّث [معک] سرّا فی خلوة، فرکب فرسه (یعنی [ابن] المشطوب). و سار معه جریدة، و قد جرّد المعظّم جماعة ممّن یعتمد علیهم و یثق إلیهم، و قال لهم: اتّبعونا، و لم یزل المعظّم یشغله

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۱

بالحدیث و یخرج معه من شیء إلی شیء حتّی أبعد عن المخیّم، ثم قال له: یا عماد الدین هذه البلاد لک، [و] نشتهی أن تهبها لنا، ثم أعطاه شیئا من النفقة، و قال لأولئک المجرّدین: تسلّموه حتّی تخرجوه من الرمل، فلم یسعه إلا الامتثال لانفراده و عدم القدرة علی الممانعة فی تلک الحال؛ ثم عاد المعظّم إلی أخیه الملک الکامل و عرّفه صورة ما جری. ثم جهّز أخاه الملک الفائز المذکور إلی الموصل لإحضار النجدة منها [و] من بلاد الشرق فمات بسنجار. و کان ذلک خدیعة لإخراجه من البلاد. فلمّا خرج هذان الشخصان من العسکر تحلّلت عزائم من بقی من الأمراء الموافقین لهما، و دخلوا فی طاعة الملک الکامل کرها لا طوعا. و جری فی قصّة دمیاط ما هو مشهور فلا حاجة للإطالة فی ذکره.

و لمّا ملک الفرنج دمیاط و صارت فی أیدیهم خرجوا منها قاصدین القاهرة و مصر [و] نزلوا فی رأس الجزیرة التی دمیاط فی برّها، و کان المسلمون قبالتهم فی القریة المعروفة بالمنصورة، و البحر حائل بینهم، و هو بحر أشموم، و نصر اللّه- سبحانه و تعالی- بمنّه

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۲

و جمیل لطفه المسلمین علیهم کما هو مشهور؛ و رحل الفرنج عن منزلتهم لیلة الجمعة سابع رجب سنة ثمانی عشرة و ستمائة، و تمّ الصلح بینهم و بین المسلمین فی حادی عشر الشهر المذکور، و رحل الفرنج عن البلاد فی شعبان من السنة المذکورة، و کانت مدّة إقامتهم فی بلاد الإسلام ما بین الشام و الدیار المصریّة أربعین شهرا و أربعة عشر یوما؛ و کفی اللّه- تعالی- المسلمین شرّهم و الحمد للّه علی ذلک.

- قلت و نذکر أمر دمیاط من کلام أبی المظفّر فی آخر هذه الترجمة بأوسع من ذلک، لأنّه معاصر الکامل و صاحب المعظّم، فهو

أجدر بهذه الواقعة-.

فلمّا استراح خاطر الملك الكامل من جهة هذا العدوّ تفرّغ للأمراء الذين كانوا متحاملين عليه فنفاهم عن البلاد و بدّد شملهم و شرّدهم، و دخل القاهرة و شرع فى عمارة البلاد و استخراج الأموال من جهاتها، و كان سلطانا عظيم القدر جميل الذكر محبّا للعلماء متمسّكا بالسّنة، حسن الاعتقاد معاشرا لأرباب الفضائل حازما فى أموره لا يضع الشىء إلّا فى مواضعه من غير إسراف و لا إقتار، و كان يبيت عنده كلّ ليلة [جمعة] جماعة من الفضلاء يشاركهم فى مباحثهم، و يسألهم عن المواضع المشكلة فى كلّ فنّ، و هو معهم كواحد منهم، و كان- رحمه اللّه- يعجبه هذان البيتان و ينشدهما كثيرا و هما:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۳

ما كنت [من] قبل ملك قلبى تصدّ عن مدنف حزين

و إنّما قد طمعت لمّا حللت فى موضع حصين

قال: و لمّا مات أخوه الملك المعظّم عيسى صاحب الشام، و قام ابنه الملك الناصر صلاح الدين دواد مقامه، خرج الملك الكامل من الديار المصريّة قاصدا أخذ دمشق منه؛ و جاءه أخوه الملك الأشرف مظفّر الدين موسى، و اجتمعا على أخذ دمشق بعد فصول يطول شرحها. و ملك الكامل دمشق فى أوّل شعبان سنة ست و عشرين و ستمائة، و كان يوم الاثنين؛ فلمّا ملكها دفعها لأخيه الملك الأشرف، و أخذ عوضها من بلاد الأشرف: حرّان و الرّها و سروج و الرّقّة و رأس العين؛ و توجّه إليها بنفسه فى تاسع شهر رمضان من السنة. قال ابن خلّكان: و اجتزت بحرّان فى شوّال سنة ستّ و عشرين و ستمائة و الملك الكامل مقيم به بعساكر الديار المصريّة؛ و جلال الدين خوارزم شاه يوم ذاك محاصر لخلاط، و كانت لأخيه الملك الأشرف. ثم رجع إلى الديار المصريّة؛ ثم تجهّز فى جيش عظيم، و قصد آمد فى سنة تسع و عشرين و ستمائة فأخذها مع حصن كيفا و البلاد من الملك المسعود بن الملك الصالح أبى الفتح محمود بن نور الدين محمد بن فخر الدين قرا أرسلان بن ركن الدولة داود بن قطب الدين سقمان؛ و يقال سكمان بن أرتق، قال: ثمّ مات أخوه الملك الأشرف و جعل ولىّ عهد أخاه الملك الصالح إسماعيل بن العادل، فقصده الملك الكامل أيضا، و انتزع منه دمشق بعد مصالحة جرت بينهما فى التاسع من جمادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۴

الأولى سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و أبقى له بعلبكّ و أعمالها، و بصرى و أرض السّواد و تلك البلاد. و لمّا ملك البلاد المشرقيّة: آمد و تلك النواحى استخلف فيها ولده الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و استخلف ولده الأصغر الملك العادل سيف الدين أبا بكر بالديار المصريّة. و قد تقدّم فى ترجمة الملك العادل أنّه سيّر ولده الملك المسعود أقسيس إلى اليمن، و كان أكبر أولاد الملك الكامل. و ملك الملك المسعود مكّة- حرسها اللّه تعالى- و بلاد الحجاز مضافة إلى اليمن، و كان رحيل الملك المسعود من الديار المصريّة متوجّها إلى اليمن فى يوم الاثنين سابع عشر رمضان سنة إحدى عشرة و ستمائة، و دخل مكّة فى ثالث ذى القعدة من السنة، و خطب له بها و حجّ؛ و دخل زبيد و ملكها مستهلّ المحرّم سنة اثنتى عشرة و ستمائة. ثم ملك مكّة فى شهر ربيع الآخر سنة عشرين و ستمائة، أخذها من الشريف حسن بن قتادة الحسنىّ.

قلت: و قد ذكرنا خروج الملك المسعود إلى اليمن من وقته فى ترجمة جدّه الملك العادل. و توفّى الملك المسعود فى حياة والده الملك الكامل بمكّة فى ثالث جمادى الأولى سنة ست و عشرين و ستمائة. و كان مولده فى سنة سبع و تسعين و خمسمائة و أظنّه أكبر أولاد الكامل. و اللّه أعلم.

قال ابن خلّكان: و اتّسعت المملكة للملك الكامل، و لقد حكى لى من حضر الخطبة يوم الجمعة بمكّة أنّه لمّا وصل الخطيب إلى الدعاء للملك الكامل قال: سلطان مكّة و عبيدها، و اليمن و زبيدها و مصر و صعيدها، و الشام و صناديدها، و الجزيرة و وليدها، سلطان القبلتين و ربّ العلامتين و خادم الحرمين الشريفين الملك الكامل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۵

أبو المعالى ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين. قال: و لقد رأيته بدمشق سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة عند رجوعه من بلاد المشرق، و استنقاذه إيّاها من الأمير علاء الدين كيقباد بن كيخسرو بن قليج أرسلان بن مسعود [بن قليج أرسلان] بن سليمان [بن قتلمش] بن إسرائيل بن سلجوق بن دقماق السّلجوقىّ صاحب الروم.

و هى وقعة مشهورة يطول شرحها؛ و فى خدمته يومئذ بضعة عشر ملكا، منهم:

[أخوه] الملك الأشرف، و لم يزل فى علوّ شأنه و عظيم سلطانه إلى أن مرض بعد أخذه دمشق و لم يركب، و كان ينشد فى مرضه كثيرا:

يا خليلىّ خبّرانى بصدق كيف طعم الكرى فإنّى نسيته

و لم يزل كذلك إلى أن توفّى يوم الأربعاء بعد العصر، و دفن بالقلعة بمدينة دمشق يوم الخميس الثانى و العشرين من رجب سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و أنا بدمشق يومئذ، و حضرت الصّيحة يوم السبت فى جامع دمشق، لأنّهم أخفوا موته إلى وقت صلاة الجمعة، فلمّا دنت الصلاة قام بعض الدّعاة [على العريش الذى] بين يدى المنبر و ترحّم على الملك الكامل، و دعا لولده الملك العادل صاحب مصر، و كنت حاضرا فى ذلك الوقت، فضجّ الناس ضجّة واحدة، و كانوا قد أحسّوا بذلك، لكنهم لم يتحقّقوا إلّا ذلك الوقت، و ترتّب ابن أخيه الملك الجواد مظفّر الدين يونس ابن شمس الدين مودود بن الملك العادل فى نيابة السلطنة بدمشق عن الملك العادل بن الكامل صاحب مصر باتفاق الأمراء الذين كانوا حاضرين ذلك الوقت بدمشق؛ ثم بنى له تربة مجاورة للجامع، و لها شبّاك إلى الجامع، و نقل إليها. قال: و أمّا ولده الملك العادل [فإنه] أقام فى المملكة إلى يوم الجمعة ثامن ذى الحجة من سنة سبع و ثلاثين و ستمائة،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۶

فقبض عليه أمراء دولته بظاهر بلبيس». انتهى كلام ابن خلّكان على جلّيته.

و نذكر أيضا من أحوال الكامل نبذة جيّدة من أقوال غيره من المؤرّخين. إن شاء اللّه تعالى.

قال بعضهم: كان الملك الكامل فاضلا عالما شهما مهيبا عاقلا محبّا للعلماء، و له شعر حسن، و اشتغال فى العلم. قيل: إنّه شكا إليه ركبدار أستاذه بأنّه استخدمه ستة أشهر بلا جامكيّة، فأنزل أستاذه من فرسه و ألبسه ثياب الركبدار، و ألبس الركبدار ثيابه، و أمره بخدمة الركبدار و حمل مداسه ستة أشهر حتّى شفع فيه.

و كانت الطرق آمنة فى زمانه. و لمّا بعث ابنه الملك المسعود أقسيس و افتتح اليمن و الحجاز ثم مات قبله كما ذكرناه ورث منه أموالا عظيمة، ففرّق غالبها فى وجوه البرّ و الصدقات. و كانت راية الملك الكامل صفراء. و فيه يقول البهاء زهير:

- رحمه اللّه تعالى-.

بك اهتزّ عطف الدّين فى حلل النّصر و ردّت على أعقابها ملّة الكفر

و أقسم إن ذاقت بنو الأصفر الكرى لما حلمت إلّا بأعلامك الصفر

ثلاثة أعوام أقمت و أشهرا تجاهد فيهم لا بزيد و لا عمرو

و ليلة غزو للعدوّ كأنّها بكثرة من أرديته ليلة النّحر

فياليلة قد شرّف اللّه قدرها فلا غرو إن سمّيتها ليلة القدر

و قال: و كان فيه جبروت مع سفك الدماء.

و ذكر الشيخ شمس الدين محمد بن إبراهيم الجزرىّ: أنّ عماد الدين يحيى البيضاوىّ الشريف قال: حكى لى الخادم الذى للكامل قال: طلب منّى الكامل

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۷

طستا حتّی یتقیّأ فیه فأحضرته، و کان الملک الناصر داود علی الباب، جاء لیعود عمّه الکامل؛ فقلت: داود علی الباب، فقال: ینتظر موتی! فانزعج، فخرجت و قلت: ما ذاک وقتک السلطان منزعج، فنزل إلی داره؛ و دخلت إلی السلطان فوجدته قد قضی و الطست بین یدیه و هو مکبوب علی المخدّة.

و قال ابن واصل: حکی لی طبیبه قال: أصابه لمّا دخل قلعة دمشق زکام، فدخل الحمّام و صبّ علی رأسه ماء شدید الحرارة، اتّباعا لقول محمد بن زکریّا الرازیّ فی کتاب سمّاه «طبّ ساعة»؛ قال فیه: من أصابه زکام یصبّ علی رأسه ماء شدید الحرارة انحلّ زکامه لوقته، و هو لا ینبغی أن یعمل علی إطلاقه؛ قال الطبیب: فانصبّ من دماغه إلی فم معدته فتورّمت، و عرضت له حمّی شدیدة، و أراد القیء فنهاه الأطبّاء، و قالوا: إن تقیّأ هلک، فخالفهم و تقیّأ فهلک لوقته.

قال ابن واصل: و حکی لی الحکم رضیّ الدین قال: عرضت له خوانیق، و تقیّأ دما کثیرا و مدّة؛ فأراد القیء أیضا فنهاه موفّق الدین إبراهیم، و أشار علیه بعض الأطباء بالقیء فتقیّأ، فانصبّت بقیّة المادة إلی قصبة الرئة و سدّتها فمات.

و قال ابن واصل: و کان ملکا جلیلا حازما، سدید الآراء حسن التدبیر لممالکه عفیفا حلیما؛ عمّرت فی أیّامه الدیار المصریّة عمارة کبیرة، و کان عنده مسائل غریبة من الفقه و النحو یوردها، فمن أجابه حظی عنده.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۸

ذکر أخذ دمیاط

قال أبو المظفّر فی تاریخه: «فی شعبان أخذ الفرنج دمیاط، و کان المعظّم قد جهّز إلیها الناهض بن الجرخی فی خمسمائة راجل، فهجموا علی الخنادق فقتل ابن الجرخی و من کان معه، و صفّوا رءوس القتلی علی الخنادق، و کان الفرنج قد طمّوها (یعنی الخنادق) و ضعف أهل دمیاط و أکلوا المیتات، و عجز الملک الکامل عن نصرتهم، و وقع فیهم الوباء و الفناء، فراسلوا الفرنج علی أن یسلّموا إلیهم البلد و یخرجوا منه بأموالهم و أهلهم، و اجتمعوا؟؟؟ و حلّفوهم علی ذلک، فرکبوا فی المراکب و زحفوا فی البرّ و البحر، و فتح لهم أهل دمیاط الأبواب، فدخلوا و رفعوا أعلامهم علی السّور، و غدروا بأهل دمیاط، و وضعوا فیهم السیف قتلا و أسرا، و باتوا تلک اللیلة بالجامع یفجرون بالنساء، و یفتضّون البنات، و أخذوا المنبر و المصاحف و رءوس القتلی، و بعثوا بها إلی الجزائر، و جعلوا الجامع کنیسة؛ و کان أبو الحسن ابن قفل بدمیاط، فسألوا عنه، فقیل لهم: هذا رجل صالح من مشایخ المسلمین یأوی الیه الفقراء، فما تعرّضوا له. و وقع علی المسلمین کآبة عظیمة. و بکی الکامل و المعظّم بکاء شدیدا، ثم تأخّرت العساکر عن تلک المنزلة. ثم قال الکامل لأخیه المعظّم:

قد فات المطلوب، و جری المقدر بما هو کائن، و ما فی مقامک هاهنا فائدة؛ و المصلحة أن تنزل إلی الشام تشغل خواطر الفرنج، و تستجلب العساکر من بلاد الشرق.

قال أبو المظفّر: فکتب المعظّم إلیّ و أنا بدمشق کتابا بخطّه، یقول- فی أوّله -

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۳۹

قد علم الأخ العزیز بأن قد جری علی دمیاط ما جری، و أرید أن تحرّض الناس علی الجهاد، و نعرّفهم ما جری علی إخوانهم أهل دمیاط من الکفرة أهل العناد.

و إنّی کشفت ضیاع الشام فوجدتها ألفی قریة، منها ألف و ستّمائة أملاک لأهلها، و أربعمائة سلطانیّة، و کم مقدار ما تقوم به هذه الأربعمائة من العساکر؟ و أرید أن تخرج الدماشقة لیذبّوا عن أملاکهم الأصاغر منهم و الأکابر. و یکون لقاؤنا و هم صحبتک إلی نابلس فی وقت سمّاه. قال: فجلست بجامع دمشق و قرأت کتابه علیهم، فأجابوا بالسمع و الطاعة، [و قالوا: نمتثل أمره بحسب

الاستطاعة]. و تجهّزوا؛ فلمّا حلّ ركابه بالساحل وقع التقاعد، و كان تقاعدهم سببا لأخذه الثمن و الخمس من أموالهم. و كتب إلىّ يقول: إذا لم يخرجوا فسر أنت إلينا، فخرجت إلى الساحل و هو نازل على قيسارية، فأقمنا حتّى فتحها عنوة، ثم سرنا إلى النفر ففتحه و هدمه؛ و عاد إلى دمشق بعد أن أخرج العساكر إلى السواحل. و استمرّ الملك الكامل على مقاتلة الفرنج إلى أن فتح اللّه عليه فى سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و طلب من إخوته النجدة، و توجّه المعظّم فى أوّل السنة إلى أخيه الأشرف موسى، و اجتمعا على حرّان.

و كتب صاحب ماردين إلى الأشرف يسأله أن يصعد المعظّم إليه، فسأله فسار إلى ماردين، فتلقّاه صاحب ماردين من دنيسر، و أصعده إلى القلعة و خدمه خدمة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۰

عظيمة، و قدّم له التّحف و الجواهر و تحالفا و اتّفقا على ما أرادا، ثم عاد المعظّم إلى أخيه الأشرف. و جاء خبر دمياط. و كان المعظّم أحرص الناس على خلاص دمياط و الغزاة، و كان مصافيا لأخيه الكامل، و كان الأشرف مقصّرا فى حقّ الكامل مباينا له فى الباطن؛ فلمّا اجتمعت العساكر على حرّان قطع بهم المعظّم الفرات، و سار الأشرف فى آثاره، و نزل المعظّم حمص و الأشرف سلمية. قال: و كنت قد خرجت من دمشق إلى حمص لطلب الغزاة، فإنّهم كانوا على عزم الدخول إلى طرابلس، فاجتمعت بالمعظّم فى شهر ربيع الآخر فقال لى: قد سحبت الأشرف إلى هاهنا و هو كاره، و كلّ يوم أعتبه فى تأخّره و هو يكاسر و أخاف من الفرنج أن يستولوا على مصر، و هو صديقك؛ و أشتهى أن تقوم تروح إليه فقد سألنى عنك [مرارا]؛ ثم كتب إلى [أخيه] كتابا بخطّه نحو ثمانين سطرا، فأخذته و مضيت إلى سلمية؛ و بلغ الأشرف وصولى فخرج من الخيمة و تلقّانى و عاتبنى على انقطاعى، [عنه] و جرى بينى و بينه فصول؛ و قلت له: المسلمون فى ضائقة، و إذا أخذ الفرنج الديار المصريّة ملكوا إلى حضرموت، و عفّوا آثار مكّة و المدينة و الشام [و أنت تلعب]، قم الساعة و ارحل؛ فقال: ارموا الخيام [و الدهليز]، و سبقته إلى حمص فتلقّانى المعظّم؛ و قال: ما نمت البارحة و لا أكلت اليوم شيئا، فقلت: غدا يصبّح أخوك الأشرف حمص.

فلمّا كان من الغد أقبلت الأطلاب و جاء طلب الأشرف، و اللّه ما رأيت أجمل منه و لا أحسن رجالا و لا أكمل عدّة، و سرّ المعظّم سرورا عظيما؛ و جلسوا تلك الليلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۱

يتشاورون، فاتّفقوا على الدخول فى السحر إلى طرابلس، و كانوا على حال، فأنطق اللّه الملك الأشرف من غير قصد و قال للمعظّم: ياخوند، عوض ما ندخل الساحل و تضعف خيلنا و عساكرنا و يضيع الزمان ما نروح إلى دمياط و نستريح؟ فقال له المعظّم- قول رماة البندق قال-: نعم، فقبّل المعظّم قدمه و نام الأشرف، فخرج المعظّم من الخيمة كالأسد الضارى يصيح: الرحيل الرحيل إلى دمياط؛ و ما كان يظنّ أنّ الأشرف يسمح بذلك، و ساق المعظّم إلى دمشق و تبعته العساكر، و نام الأشرف فى خيمته إلى قرب الظهر، و انتبه فدخل الحمّام فلم ير [حول] خيمته أحدا، فقال: و أين العساكر؟ فأخبروه الخبر فسكت، و ساق إلى دمشق فنزل القصير يوم الثلاثاء رابع جمادى الأولى، فأقام إلى سلخه، و عرض العساكر تحت قلعة دمشق، و كان هو و أخوه المعظّم فى الطّيارة بقلعة دمشق، و ساروا إلى مصر.

و أمّا الفرنج فإنّهم خرجوا بالفارس و الراجل، و كان البحر زائدا جدّا، فجاءوا إلى ترعة فأرسوا عليها، و فتح المسلمون عليهم الترع من كلّ مكان، و أحدق بهم عساكر الكامل، فلم يبق [لهم] وصول إلى دمياط؛ و جاء أسطول المسلمين فأخذوا مراكبهم، و منعوهم أن تصل إليهم الميرة من دمياط، و كانوا خلقا عظيما، و انقطعت أخبارهم عن دمياط، و كان فيهم مائة كند و ثمانمائة من الخيّالة المعروفين و ملك عكّا و الدوك؟ و اللوكان نائب البابا؛ و من الرجّالة مالا يحصى، فلمّا عاينوا الهلاك أرسلوا إلى الكامل يطلبون الصلح و الرهائن، و يسلّمون دمياط؛ فمن حرص الكامل على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۲

خلاص دمياط أجابهم، و لو أقاموا يومين أخذوا برقابهم؛ فبعث إليهم الكامل ابنه الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و ابن أخيه شمس الملوك؛ و جاء ملوكهم إلى الكامل ممّن سمّينا، فالتقاهم و أنعم عليهم و ضرب لهم الخيام. و وصل المعظّم و الأشرف فى تلك الحال إلى المنصورة فى ثالث رجب، فجلس الكامل مجلسا عظيما فى خيمة كبيرة عالية، و قد مدّ سماطا عظيما، و أحضر ملوك الفرنج [و الخيّالة]، و وقف المعظّم و الأشرف و الملوك فى خدمته، و قام الحلّى الشاعر- رحمه اللّه تعالى- فأنشد:

هنيئا فإنّ السعد راح مخلّدا و قد أنجز الرحمن بالنصر موعدا

حبانا إله الخلق فتحا بدا لنا مبينا و إنعاما و عزّا مؤبّدا

تهلّل وجه الدهر بعد قطوبه و أصبح وجه الشرك بالظلم أسودا

و لمّا طغى البحر الخضمّ بأهله ال طغاة و أضحى بالمراكب مزبدا

أقام لهذا الدّين من سلّ سيفه صقيلا كما سلّ الحسام مجرّدا

فلم ينج إلّا كلّ شلو مجدّل ثوى منهم أو من تراه مقيّدا

و نادى لسان الكون فى الأرض رافعا عقيرته فى الخافقين و منشدا

أعبّاد عيسى إنّ عيسى و حزبه و موسى جميعا يخدمون محمّدا

و هذا من أبيات كثيرة.

قلت: صحّ للشاعر فيما قصد من التورية فى المعظّم عيسى و الأشرف موسى، لمّا وقفا فى خدمة الكامل محمد، فلله دره! لقد أجاد فيما قال.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۳

و وقع الصلح بين الملك الكامل و بين الفرنج فى يوم الأربعاء تاسع عشر شهر رجب سنة ثمانى عشرة و ستمائة، و سار بعض الفرنج فى البرّ و بعضهم فى البحر إلى عكّا، و تسلّم الكامل دمياط.

قلت: و يعجبنى قول البارع كمال الدين علىّ بن النّبيه فى مدح مخدومه الملك الأشرف موسى لمّا حضر مع أخيه المعظّم إلى دمياط فى هذه الكائنة قصيدته التى أوّلها:

للذّة العيش و الأفراح أوقات فانشر لواء له بالنصر عادات

إلى أن قال منها:

دمياط طور و نار الحرب موقدة و أنت موسى و هذا اليوم ميقات

ألق العصا تتلقّف كلّ ما صنعوا و لا تخف ما حبال القوم حيّات

و هى قصيدة طويلة مثبتة فى ديوان ابن النبيه.

قال أبو المظفّر قال فخر الدين ابن شيخ الشيوخ: لمّا حضر الفرنج دمياط صعد الكامل على مكان عال، و قال لى: ما ترى ما أكثر الفرنج! ما لنا بهم طاقة؛ [قال] فقلت [له]: أعوذ باللّه من هذا الكلام؛ قال: و لم؟ قلت لأنّ السعد [موكّل] بالمنطق، قال: فأخذت الفرنج دمياط بعد قليل، فلمّا طال الحصار صعد يوما على مكان عال، و قال: يا فلان، ترى الفرنج ما أقلّهم! و اللّه ما هم شىء؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۴

فقلت: أخذتهم و اللّه؛ قال: و كيف؟ قلت: قلت فى يوم كذا و كذا: كذا و كذا، فأخذوا دمياط، و قد قلت اليوم: كذا، و الملوك منطّقون بخير و شرّ؛ فأخذ دمياط بعد قليل». انتهى. و قد تقدّم ذكر الكامل فى أوائل الترجمة من قول جماعة من المؤرّخين، و يأتى أيضا- من ذكره فى السنين المتعلّقة به- نبذة كبيرة. إن شاء اللّه تعالى. و اللّه الموفّق لذلك بمنّه و كرمه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۶]

السنة الأولى من ولاية الملك الكامل محمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ عشرة و ستّمائة، و قد تقدّم أنّ الكامل كان ولى مصر فى حياة والده العادل سنين عديدة فلا عمدة بولايته تلك الأيام، فإنّه كان كالنائب بمصر لأبيه العادل، و لا عبرة إلّا بعد استقلاله بسلطنة مصر بعد وفاة أبيه.

فيها (أعنى سنة ستّ عشرة و ستمائة) أخرب الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق القدس، لأنّه كان توجّه إلى أخيه الملك الكامل صاحب الترجمة فى نوبة دمياط فى المرّة الأولى، فبلغه أنّ الفرنج على عزم أخذ القدس، فاتّفق الأمراء على خرابه؛ و قالوا: قد خلا الشام من العساكر، فلو أخذ الفرنج القدس حكموا على الشام جميعه. و كان بالقدس [أخوه] العزيز عثمان، و عزّ الدين أيبك أستادار، فكتب إليهما المعظّم بخرابه، فتوقّفا و قالا: نحن نحفظه، فكتب إليهما المعظّم ثانيا:

لو أخذوه لقتلوا كلّ من فيه و حكموا على الشام و بلاد الإسلام، فألجأت الضرورة إلى خرابه. فشرعوا فى خراب السور أوّل يوم من المحرّم، و وقع فى البلد ضجّة عظيمة. و خرج النساء المخدّرات و البنات و الشيوخ و غيرهم إلى الصخرة و الأقصى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۵

و قطعوا شعورهم و مزّقوا ثيابهم، و فعلوا أشياء من هذه الفعال؛ ثم خرجوا هاربين و تركوا أموالهم و أهاليهم، و ما شكّوا أنّ الفرنج تصبّحهم، و امتلأت بهم الطّرقات؛ فتوجّه بعضهم إلى مصر، [و بعضهم الى الكرك]، و بعضهم إلى دمشق، و كانت البنات المخدّرات يمزّقن ثيابهنّ و يربطنها على أرجلهن من الحفا؛ و مات خلق كثير من الجوع و العطش، و نهبت الأموال التى كانت لهم بالقدس، و بلغ ثمن القنطار الزيت عشرة دراهم، و الرّطل النّحاس نصف درهم؛ و ذمّ الناس المعظّم؛ فقال بعض أهل العلم فى ذلك:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۲۴۵

فى رجب حلّل الحميّا و أخرب القدس فى المحرّم

و قال القاضى مجد الدين محمد بن عبد اللّه الحنفىّ قاضى الطّور فى خراب القدس:

مررت على القدس الشريف مسلّما على ما تبقّى من ربوع كأنجم

ففاضت دموع العين منّى صبابة على ما مضى من عصرنا المتقدّم

و قد رام علج أن يعفّى رسومه و شمّر عن كفّى لئيم مذمّم

فقلت له شلّت يمينك خلّها لمعتبر أو سائل أو مسلّم

فلو كان يفدى بالنفوس فديته بنفسى و هذا الظنّ فى كلّ مسلم

و فيها حجّ بالناس من العراق أقباش [بن عبد اللّه] الناصرىّ، و من الشام مملوك الملك المعظّم عيسى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۶

و فيها توفّيت ستّ الشام بنت الأمير نجم الدّين أيّوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، كانت سيّدة الخواتين فى زمنها، كانت كثيرة البرّ و الصدقات، كانت تعمل فى دارها الأشربة و المعاجين و العقاقير كلّ سنة بألوف دنانير و تفرّقها على الناس، و كان بابها ملجأ للقاصدين؛ و كان زوجها ابن عمّها الأمير ناصر الدين محمد بن شيركوه صاحب حمص، و هى أمّ حسام الدّين [محمد بن عمر بن] لاچين، و صاحبة الأوقاف و الأربطة بدمشق و غيرها- رحمها اللّه تعالى-.

و فيها توفّى محمد بن زنكى الملك المنصور صاحب سنجار، كان ملكا عادلا عاقلا جوادا، خلّف عدّة أولاد: سلطان شاه و زنكى و مظفّر الدّين، و عدّة بنات.

و كان من بيت ملك و سلطنة.

و فيها توفّى علىّ بن القاسم بن علىّ بن الحسن بن هبة اللّه بن عساكر ابن صاحب تاريخ دمشق. كان فاضلا سمع الحديث و تفقّه و سافر إلى بغداد، فلمّا عاد قطع عليه الطريق، فأصابه جراح فمات منه بعد أيّام.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العدل أبو منصور سعيد بن محمد بن سعيد الرزّاز فجأة فى المحرّم. و أبو منصور عتيق بن أحمد فى صفر.

و العلّامة أبو البقاء عبد اللّه بن الحسين بن أبى البقاء العكبرىّ الضّرير فى شهر ربيع الآخر. و قد قارب الثمانين. و أبو البركات داود بن أحمد بن محمد [بن منصور ابن ثابت] بن ملاعب الأزجىّ الوكيل فى رجب، ولد فى أوّل سنة اثنتين و أربعين.

و أبو الفضل أحمد بن محمد بن سيّدهم الأنصارىّ بن الهرّاس الجابى فى شعبان،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۷

و له أربع و ثمانون سنة. و أبو الفرج عبد الرحمن بن محمد بن علىّ الأنبارىّ الكاتب سبط قاضى القضاة أبى الحسن بن الدّامغانىّ، و له تسعون سنة. و أبو يعلى حمزة ابن السيّد [المعروف با] بن أبى لقمة الصفّار فى شهر رمضان، و هو أصغر من أخيه.

و أبو محمد عبد العزيز بن أحمد بن مسعود [بن سعد بن علىّ] بن الناقد المقرئ، و يقال: كان آخر من قرأ المصباح على مؤلّفه الشّهرزورىّ، مات فى شوّال عن ستّ و ثمانين سنة. و الخاتون ستّ الشام أخت الملك العادل فى ذى القعدة. و العلّامة افتخار الدين أبو هاشم عبد المطّلب بن الفضل الهاشمىّ الحنفىّ بحلب.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۷]

السنة الثانية من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع عشرة و ستمائة.

فيها قتل صاحب سنجار أخاه، فسار الملك الأشرف موسى أخو الملك الكامل هذا إليها، فأخذها و عوّض صاحبها الرّقّة.

و فيها نزل الملك الأشرف المذكور على الموصل نجدة لبدر الدين على بن زين الدين، و عزم على قصد إربل، فبعث الخليفة من ردّه عن إربل و أصلح بينهما.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۸

و فيها فى شهر رجب كانت واقعة البرلّس بين الكامل صاحب الترجمة و بين الفرنج، و نصر اللّه الكامل و قتل منهم عشرة آلاف و غنم خيولهم و سلاحهم و رجعوا إلى دمياط مهزومين.

و فيها عزل الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق [المبارز] المعتمد عن ولاية دمشق، و ولّى عوضه عليها العزيز خليلا.

و فيها كان أوّل ظهور التّتار و عبورهم جيحون، و كان أوّل ظهورهم من [ما] وراء النهر سنة خمس عشرة و ستمائة، و قبل عبورهم جيحون قصدوا بخارى و سمرقند، و قتلوا أهلها و سبوهم، و حصروا خوارزم شاه، فآنضمّ إليهم الخطا، و صاروا تبعا لهم.

و كان خوارزم شاه قد أخلى البلاد من الملوك، فلم يجدوا أحدا يردّهم، و وصلوا فى هذه السنة إلى الرّىّ و قزوين و همذان، و قتلوا أهلها و أحرقوا مساجدها، ثم فعلوا بأذربيجان كذلك.

و فيها حجّ بالناس من العراق أقباش الناصرىّ و قتل بمكّة، و لم يحجّ أحد من العجم [بسبب التّتار]، و عاد الحجّ البغدادىّ من على الشام. و حجّ بالناس من الشام [المبارز] المعتمد.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۴۹

و فيها توفّى الملك الفائز إبراهيم ابن الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب أخو الملك الكامل صاحب الترجمة. و قد

تقدّم أنّه كان يريد الوثوب على أخيه الملك الكامل، و اتّفق مع ابن المشطوب حتّى أخرجهما أخوه الملك المعظّم عيسى من مصر؛ فمات الفائز بين سنجار و الموصل، فحمل إلى سنجار و دفن بتربة عماد الدّين زنكى والد السلطان الملك العادل نور الدين محمود الشهيد، و مات و هو فى عنفوان شبيبته.

و فيها توفّى الأمير أقباش بن عبد اللّه الناصرى. قال أبو المظفّر: «اشتراه الخليفة (يعنى الناصر لدين اللّه) و هو ابن خمس عشرة سنة بخمسة آلاف دينار، و لم يكن بالعراق أجمل صورة منه، ثم قرّبه إليه و لم يكن يفارقه؛ فلمّا ترعرع ولّاه إمرة الحاجّ و الحرمين، و كان متواضعا محبوبا إلى القلوب. قتل بمكّة المشرّفة فى واقعة بين أشراف مكّة، خرج ليصلح بينهم فقتل. و كان قتله فى سادس عشر ذى الحجّة.

و فيها توفّى الشيخ عبد اللّه بن عثمان بن جعفر بن محمد اليونينىّ، أصله من قرية من قرى بعلبك يقال لها «يونين». كان صاحب رياضات و كرامات و مجاهدات و مكاشفات، و كان من الأبدال. و كانت وفاته يوم السبت فى العشر الأوّل من ذى الحجّة- رحمه اللّه-.

و فيها توفّى الشريف قتادة بن إدريس أبو عزيز الحسينىّ المكىّ أمير مكّة.

كان شيخا عارفا منصفا نقمة على عبيد مكّة المفسدين، و كان الحاجّ فى أيّامه فى أمان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۰

على أموالهم و نفوسهم، و كان يؤذّن فى الحرم ب «حىّ على خير العمل» على قاعدة الرافضة، و ما كان يلتفت إلى أحد من خلق اللّه تعالى، و لا وطئ بساط الخليفة و لا غيره، و كان يحمل إليه من بغداد فى كلّ سنة الذهب و الخلع و هو بداره فى مكّة، و هو يقول: أنا أحقّ بالخلافة [من الناصر لدين اللّه]، و لم يرتكب كبيرة فيما قيل.

قلت: و أىّ كبيرة أعظم من الرّفض و سبّ الصحابة!- رضى اللّه عنهم-.

و فيها توفّى محمد بن عمر بن شاهنشاه بن أيّوب الملك المنصور صاحب حماة.

كان شجاعا محبّا للعلماء و الفضلاء، مات بحماة و دفن بها. و قام بعده ولده الأكبر الملك الصالح الناصر قليج أرسلان. و جرى له مع الملك الكامل صاحب الترجمة أمور و فصول.

و فيها توفّى محمود بن محمد بن قرا أرسلان بن أرتق الملك الصالح ناصر الدين صاحب آمد، كان شجاعا عاقلا جوادا محبّا للعلماء، و كان الأشرف يحبّه، و جاء إلى الأشرف و خدمه غير مرّة؛ و مات بآمد فى صفر. و قام بعده ولده مسعود، و كان مسعود ضدّ اسمه بخيلا فاسقا، حصره الملك الكامل هذا و ظفر به و أخذه إلى مصر و أحسن إليه؛ فكاتب الروم و سعى فى هلاك الكامل، فحبسه الكامل- لمّا سمع ذلك- فى الجبّ مدّة ثم أطلقه، فمضى إلى التتار، و كان معه الجواهر و الأموال فقتلته التتار، و أخذوا جميع ما كان معه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى عبد الرحمن بن أحمد ابن هديّة الورّاق فى شهر ربيع الأوّل، و قد جاوز التسعين، و هو آخر من روى عن عبد الوهّاب الأنماطىّ. و شيخ الشيوخ صدر الدين أبو الحسن محمد بن أبى الفتح عمر بن علىّ بن محمد بن حمّويه فى جمادى الأولى ذاهبا فى الرسليّة من الكامل بالموصل، و له أربع و سبعون سنة. و صاحب حماة الملك المنصور محمد ابن تقىّ الدّين عمر بن شاهنشاه. و الزاهد الكبير الشيخ عبد اللّه اليونينىّ فى ذى الحجّة ببعلبك. و صاحب مكّة قتادة بن إدريس الحسينىّ. و أبو الحسن المؤيّد بن محمد ابن على الطّوسى المقرئ فى شوّال.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۸]

السنة الثالثة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب على مصر، و هى سنة ثمانى عشرة و ستمائة.

فيها توفّى إسماعيل بن عبد اللّه أبو طاهر الأنماطىّ المحدّث، كان إماما فاضلا سمع الكثير و لقى الشيوخ و حدّث، و توفّى بدمشق فى شهر رجب و كان ثقة.

و فيها توفّى محمد بن خلف بن راجح المقدسىّ و يلقّب بالشهاب والد القاضى نجم الدين، كان زاهدا عابدا فاضلا فى فنون العلوم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۲

و فيها توفّى محمد بن محمد الشيخ الإمام النحوى التّكريتىّ، كان بارعا فى النحو و الأدب و الشعر. و من شعره قوله:

من كان ذمّ الرّقيب يوما فإنّنى للرقيب شاكر

لم أروجه الرقيب وقتا إلّا و وجه الحبيب حاضر

و له فى مجنونة:

أمسيت مجنونا بمجنونة يغار من قامتها الغصن

فمن عذيرى من هوى ظبية قد عشقتها الإنس و الجنّ

قلت: و طريف قول الشيخ زين الدّين عمر بن الوردىّ - رحمه اللّه- فى هذا المعنى:

زاد جنونى بذى جنون معذّر و العذار زين

قالوا به عارض و عين قلت و بى عارض و عين

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى شهابّ الدين محمد ابن خلف بن راجح المقدسىّ فى صفر، و له ثمان و ستون سنة. و أبو محمد هبة اللّه ابن الخضر بن هبة اللّه [بن أحمد بن عبد اللّه] بن طاوس فى جمادى الأولى، و له إحدى و ثمانون سنة. و أبو نصر موسى ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ فى جمادى الآخرة.

و استشهد بهمذان خلق بأيدى التتار، منهم: الإمام تقىّ الدين أبو جعفر محمد بن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۳

محمود بن إبراهيم الحمّامىّ الواعظ. و أبو عبد اللّه محمد بن أحمد بن هبة اللّه الرّوذراورىّ.

و بهراة أبو روح [عبد المعزّ] بن محمد الهروىّ. و بنيسابور أبو بكر القاسم بن عبد اللّه ابن عمر بن الصّيفّار. و أبو النّجيب إسماعيل بن عثمان بن إسماعيل بن أبى القاسم القارئ الصوفى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۱۹]

السنة الرابعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع عشرة و ستمائة.

فيها ظهر جراد بالشام أكل الشجر و الزروع و الثمر و لم ير مثله.

و فيها نقلت رمّة الملك العادل أبى بكر من قلعة دمشق إلى مدرسته التى عند دار العقيقىّ، فدفن بها.

و فيها توفّى مسمار بن عمر بن محمد الشيخ أبو بكر بن العويس البغدادىّ فى شعبان بالموصل، و كان. فاضلا ثقة.

و فيها توفّى نصر بن أبى الفرج الفقيه الحنبلىّ، كان إمام الحنابلة بمكّة، جاور بمكّة سنين، ثم خرج إلى اليمن فمات بالمهجّم و دفن به، و كان صالحا متعبّدا لا يفتر عن الطّواف.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۴

و فيها توفّى الأمير قطب الدين أحمد ابن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل محمد هذا. مات بالفيّوم فنقل إلى القاهر و دفن بها.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو الفتوح نصر بن أبى الفرج البغدادىّ ابن الحصرىّ المقرئ الحنبلىّ فى المحرّم، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الحافظ أبو الطاهر تقىّ الدين إسماعيل بن عبد اللّه بن عبد المحسن المصرىّ ابن الأنماطىّ فى رجب كهلا. و أبو بكر مسمار بن عمر بن محمد بن العويس النّيّار بالموصل فى شعبان. و القدوة الشيخ علىّ [بن أبى بكر محمد بن عبد اللّه] بن إدريس اليعقوبىّ فى ذى القعدة. و أبو سعد ثابت بن مشرف المعمار فى ذى الحجّة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۵

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و سبع أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۰]

السنة الخامسة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة عشرين و ستمائة.

قال أبو شامة: ففيها عاد الملك الأشرف موسى من مصر [إلى الشام قاصدا بلاده بالشرق]، فالتقاه أخوه المعظّم عيسى و عرض عليه النزول [بالقلعة] فامتنع، و نزل بجوسق والده العادل، و بدت الوحشة بين الإخوة الثلاثة (يعنى الكامل محمدا صاحب الترجمة، و المعظّم عيسى صاحب دمشق، و الأشرف موسى صاحب خلاط و غيرها). قال: ثم رحل الأشرف سحرا على ضمير ثم سار إلى حرّان، و كان [الأشرف] قد استناب أخاه شهاب الدين غاز يا صاحب ميّافارقين على خلاط، [لمّا سافر إلى مصر] و جعله ولىّ عهده، و مكّنه من بلاده؛ فسوّلت له نفسه العصيان، و حسّن له ذلك الملك المعظّم و كاتبه و أعانه، و كذا كاتبه صاحب إربل [و المشارقة]، فأرسل الأشرف إلى غازى المذكور يطلبه فامتنع، فأرسل إليه: يا أخى لا تفعل، أنت ولىّ عهدى و البلاد فى حكمك فأبى؛ فجمع الأشرف عساكره و قصده، و وقع له معه أمور حتّى هزمه، ثم رضى عنه الأشرف حسب ما نذكره فى السنة الآتية.

و فيها كانت بين التّتار الذين جاءوا إلى الدّربند و بين القبجاق و الروس وقعة هائلة، و صبر الفريقان أيّاما، ثم انهزم القبجاق و الروس، و لم يسلم منهم إلّا اليسير.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۶

و فيها توفّىّ عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة بن مقدام بن نصر شيخ الإسلام موفّق الدين أبو محمد المقدسىّ الجمّاعيلىّ الدمشقىّ الصالحىّ الحنبلى صاحب التصانيف.

ولد بجمّاعيل فى شعبان سنة إحدى و أربعين و خمسمائة، و قرأ القراءات و اشتغل فى صغره و سمع من أبيه سنة نيّف و خمسين، و رحل إلى البلاد و سمع الكثير، و كتب و صنّف و برع فى الفقه و الحديث، و أفتى و درّس و شاع ذكره و بعد صيته.

و كانت وفاته فى يوم عيد الفطر، و له ثمانون سنة.

و فيها توفّى عبد الرحمن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه بن عبد اللّه بن الحسين الإمام المفتى فخر الدين أبو منصور الدّمشقىّ الشافعىّ المعروف بابن عساكر شيخ الشافعيّة بالشام. ولد فى سنة خمسين و خمسمائة، و سمع من عميّه: [الصائن] هبة اللّه، و الحافظ أبى القاسم و جماعة أخر، و تفقّه على حميه قطب الدين النّيسابورىّ، و كان بارعا مفتنّا مدرّسا فقيها عالما محدّثا، و كانت وفاته فى

شهر رجب.

و فيها توفّى ملك الغرب يوسف بن محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن ابن علىّ السلطان المستنصر بالله الملقّب بأمير المؤمنين المكنى أبا يعقوب القيسىّ المغربىّ صاحب بلاد المغرب، لم يكن فى بنى عبد المؤمن أحسن صورة منه، و لا أبلغ خطابا، و لكنّه كان مشغولا باللّذات؛ و مات و هو شابّ فى هذه السنة، و لم يخلّف ولدا؛ فاتفق أهل دولته على تولية الأمر لأبى محمد عبد الواحد بن يوسف ابن عبد المؤمن بن علىّ، فولى و لم يحسن التدبير و لا المداراة. و كان مولد يوسف صاحب الترجمة فى سنة أربع و تسعين و خمسمائة، و أمّه أم ولد روميّة اسمها قمر، و كانت دولته عشر سنين و شهرين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۷

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو سعد عبد السلام ابن المبارك [ابن عبد الجبّار بن محمد بن عبد السلام] بن البرد عول فى المحرّم، و له تسع و ثمانون سنة. و العلّامة فخر الدين أبو منصور عبد الرحمن بن محمد بن الحسن ابن عساكر الشافعىّ فى رجب، و له سبعون سنة. و العلامة موفّق الدين عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة المقدسىّ شيخ الحنابلة فى يوم الفطر، و له ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۱]

السنة السادسة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و عشرين و ستمائة.

فيها استردّ الملك الأشرف موسى مدينة خلاط من أخيه شهاب الدين غازى، و أبقى عليه ميّافارقين، و رضى عنه بعد أمور وقعت بينهما، و قد تقدّم ذكر ذلك أيضا.

و فيها ظهر السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد ما انفصل عن بلاد الهند و كرمان، و استولى على أذربيجان و حكم عليها. و راسله الملك المعظّم عيسى ليعينه على قتال أخيه الملك الأشرف موسى؛ ثم كتب المعظّم أيضا لصاحب إربل فى هذا المعنى، و بعث ولده الملك الناصر داود إليه رهينة.

و فيها استولى بدر الدين لؤلؤ على الموصل و أظهر أنّ الملك محمود بن القاهر قد توفّى، و كان قد أمر بخنقه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۸

و فيها بنى الملك الكامل صاحب الترجمة دار الحديث الكامليّة بالقاهرة فى بين القصرين، و جعل أبا الخطّاب بن دحية شيخها.

و فيها قدم الملك مسعود أضسيس (المشهور بأقسيس) على أبيه الملك الكامل من اليمن طائعك، و عزمه أخذ الشام من عمّه الملك المعظّم عيسى، و قدّم لأبيه أشياء عظيمة، منها مائتا خادم.

قال ابن الأثير: و فيها عادت التتار من بلاد القبجاق و وصلت إلى الرّىّ، و كان من سلم من أهلها قد عمّروها، فلم يشعروا إلّا بقدوم التتار بغتة، فوضعوا فيهم السيف، ثم فعلوا بعدّة بلاد أخر كذلك، فما شاء اللّه كان.

و فيها حدثت واقعه قبيحة من الكرج، و هو أنّ الكرج- لعنهم اللّه- لم يبق فيهم من بيت الملك أحد سوى امرأة فملّكوها عليهم. قال ابن الأثير: ثم طلبوا لها زوجا يتزوّجها و ينوب عنها فى الملك، و يكون من بيت مملكة. و كان صاحب أرزن الروم مغيث الدين طغرل شاه بن قليج أرسلان بن مسعود بن قليج أرسلان و هو من الملوك السّلجوقيّة وله ولد، فأرسل إلى الكرج يخطب الملكة لولده فامتنعوا، و قالوا: لا يملكنا مسلم، فقال لهم: إنّ ابنى يتنصّر و يتزوّجها، فأجابوه فتنصّر و تزوّج بها، و أقام عندها حاكما فى بلادهم،

فنعوذ باللّه من الخذلان! و كانت الملكة تهوى مملوكا، فكان هذا الزوج يسمع عنها من القبائح أشياء و لا يمكنه الكلام لعجزه، فدخل يوما فرآها مع المملوك، فأنكر ذلك، فقالت: إن رضيت بذا و إلّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۵۹

أنت أخبر بما أفعله معك!. [فقال: إنّنى لا أرضى بهذا] فنقلته إلى بلد [آخر] و وكّلت به من يحفظه و حجرت عليه؛ و أحضرت لها رجلين و صفا لها بحسن الصورة فتزوّجت بأحدهما، و بقى معها ذاك يسيرا، ثمّ فارقته و أحضرت آخر من كنجة و هو مسلم، فطلبت منه أن يتنصّر و يتزوّجها فلم يفعل، فأرادت أن تتزوّجه [و هو مسلم] فقام عليها الأمراء و معهم إبوانى مقدّمهم؛ و قالوا لها: فضحتينا بين الملوك بما تفعلين! [ثم تريد بن أن يتزوّجك مسلم، و هذا لا نمكّنك منه أبدا]، و الأمر بينهم متردّد، و الرجل الكنجىّ عندهم [لم يجبهم إلى الدخول فى النّصرانيّة]، و هى تهواه. انتهى كلام ابن الأثير.

و فيها توفّى فخر الدين أبو المعالى محمد بن أبى الفرج الموصلىّ المقرئ ببغداد فى شهر رمضان. و كان إماما فاضلا بارعا فى فنون. و من شعره «مواليا»:

ساق قمر بكفّه شمس ضحا قد أسكرنى من راحتيه و صحا

لو أمكننى و الراح فى راحته فى الحان شربت كفّه و القدحا

قلت: و يعجبنى فى هذا المعنى قول أبى الحسن علىّ بن عبد الغنىّ الفهرىّ القيروانىّ الضّرير المعروف بالحصرىّ الشاعر المشهور، و وفاته سنة ثمان [و ثمانين] و أربعمائة، و هما:

أقول له و قد حيّا بكأس لها من مسك ريقته ختام

أمن خدّيك يعصر قال كلّا متى عصرت من الورد المدام

و فيها توفّى القاضى أبو البركات عبد القوىّ بن عبد العزيز بن الجبّاب السّعدىّ فى شوّال، و له خمس و ثمانون سنة. و كان عالما بارعا ديّنا عفيفا أفتى و درّس سنين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۰

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفىّ أبو جعفر محمد بن هبة اللّه بن مكرّم الصوفىّ ببغداد فى المحرّم. و أبو طالب عبد الرحمن بن محمد بن عبد السميع الهاشمىّ المقرئ بواسط. و أبو العبّاس أحمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن صرمى الأزجىّ فى شعبان. و فخر الدين أبو المعالى محمد بن أبى الفرج الموصلىّ البغدادىّ المقرئ فى رمضان.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۲]

السنة السابعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و عشرين و ستمائة.

فيها فى شهر ربيع الأول وصل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه إلى دقوقا فافتتحها بالسيف، و أحرق البلد و نهب أهلها، و فعل فيها ما لا تفعله الكفّار لكونهم شتموه و لعنوه على الأسوار؛ ثم عزم على قصد بغداد، فانزعج الخليفة الناصر لدين اللّه و استعدّ لقتاله و أنفق ألف ألف دينار فى هذا المعنى.

قال أبو المظفّر: «قال لى الملك المعظّم عيسى: كتب إلىّ جلال الدين يقول:

تحضر أنت و من عاهدنى فنتّفق حتّى نقصد الخليفة، فإنّه كان السبب فى هلاك المسلمين، و فى هلاك أبى، و فى مجىء الكفّار إلى البلاد؛ و وجدنا كتبه إلى الخطا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۱

و تواقيعه لهم بالبلاد و الخلع و الخيل؛ فقال المعظّم: فكتبت إليه: أنا معك على كلّ أحد إلّا على الخليفة فإنّه إمام المسلمين!». انتهى.

قلت: ثم وقع لجلال الدين المذكور فى هذه السنة أمور و وقائع مع غير الخليفة من الملوك يطول شرحها. يأتى ذكر بعضها إن شاء اللّه.

و فيها توفّى الخليفة الناصر لدين اللّه أمير المؤمنين أبو العبّاس أحمد ابن الخليفة المستضىء باللّه أبى محمد الحسن ابن الخليفة المستنجد باللّه أبى المظفر يوسف ابن الخليفة المقتفى بأمر اللّه أبى عبد اللّه محمد ابن الخليفة المستظهر باللّه أحمد الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. ولد يوم الاثنين عاشر شهر رجب سنة ثلاث و خمسين و خمسمائة، و بويع بالخلافة بعد موت أبيه المستضىء فى أوّل ذى القعدة سنة خمس و سبعين و خمسمائة. و أمّه أمّ ولد تركيّة.

قال الشيخ شمس الدين: «و كان أبيض اللّون تركىّ الوجه مليح العينين، أنور الجبهة، أقنى الأنف، خفيف العارضين، أشقر اللّحية رقيق المحاسن. كان نقش خاتمه: «رجائى من اللّه عفوه». لم يل الخلافة قبله أحد من بنى العبّاس أطول مدّة منه، إلّا ما ذكرنا من خلفاء العبيديّة المستنصر معدّ» انتهى. و فى أيّام الناصر لدين اللّه ظهرت الفتوّة ببغداد و رمى البندق و لعب الحمام [المناسيب]، و افتنّ الناس فى ذلك، و دخل فيه الأجلّاء ثم الملوك؛ فألبسوا الملك العادل ثم أولاده سراويل الفتوّة، و لبسها أيضا الملك شهاب الدين صاحب غزنة و الهند من الخليفة الناصر لدين اللّه، و لبسها جماعة أخر من الملوك. و أمّا لعب الحمام فخرج فيه عن الحدّ، يحكى عنه أنّه لمّا دخلت التّتار البلاد و ملكوا من [ما] وراء النهر إلى العراق، و قتلوا تلك المقتلة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۲

من المسلمين، التى ما نكب المسلمون بأعظم منها، دخل عليه الوزير فقال له: آه يا مولانا، إنّ التّتار قد ملكت البلاد و قتلت المسلمين! فقال له الناصر لدين اللّه:

دعنى أنا فى شىء أهمّ من ذلك! طيرتى البلقاء، لى ثلاثة أيام ما رأيتها! و فى هذه الحكاية كفاية إن صحّت عنه. و كانت وفاته فى سلخ شهر رمضان، و كانت خلافته سبعا و أربعين سنة. و بويع بعده لولده أبى نصر و لقّب بالظاهر بأمر اللّه، فكانت خلافة الظاهر المذكور تسعة أشهر و مات. حسب ما يأتى ذكره.

و فيها توفّى السلطان الملك الأفضل علىّ ابن السلطان صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيّوب فى يوم الجمعة من شهر ربيع الأوّل من السنة، و هو الذى كان ملك الشام فى حياة أبيه ثمّ من بعده، و وقع له تلك الأمور مع أخيه و عمّه العادل، و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه؛ و تنقّلت به الأحوال إلى أن صار صاحب سميساط، و بقى بها إلى أن مات فى هذه السنة. و كان مولده بمصر فى سلطنة والده سنة خمس و ستين و خمسمائة. و كان فاضلا شاعرا حسن الخطّ قليل الحظّ غير مسعود فى حركاته- رحمه اللّه تعالى- و من شعره- ممّا كتبه إلى الخليفة لمّا خرج من دمشق، و اتّفق عليه الملك العادل عمّه و العزيز أخوه-:

مولاى إنّ أبا بكر و صاحبه عثمان قد غصبا بالسيف حقّ على

فانظر إلى حظّ هذا الاسم كيف لقى من الأواخر ما لاقى من الأول

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الواعظ أبو إسحاق إبراهيم بن المظفّر [بن إبراهيم] بن البرنىّ بالموصل فى المحرّم. و الخطيب المفسّر فخر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۳

الدين محمد بن الخضر بن محمد [بن الخضر بن علىّ بن عبد اللّه] بن تيميّة الحرّانى فى صفر.

و الملك الأفضل علىّ بن السلطان صلاح الدين بسميساط فى صفر، و له سبع و خمسون سنة. و أبو الحسن علىّ بن أبى الكرم [نصر بن المبارك] الجلال بن البنّاء بمكّة فى شهر ربيع الأوّل. و عبد المحسن خطيب الموصل ابن عبد اللّه بن أحمد الطّوسى فى شهر ربيع

الأوّل. و قاضى القضاة بالقاهرة زين الدين علىّ ابن العلّامة يوسف بن عبد اللّه بن بندار الدّمشقىّ. و الوزير الكبير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ الشّيبىّ ابن شكر بالقاهرة فى شعبان. و مجد الدين أبو المجد محمد بن الحسين القزوينى الصوفىّ بالموصل فى شعبان. و الناصر لدين اللّه أبو العبّاس أحمد بن المستضىء باللّه حسن بن المستنجد فى سلخ شهر رمضان، و له سبعون سنة، و كانت خلافته سبعا و أربعين سنة.

و فخر الدين محمد بن إبراهيم بن أحمد الفارسىّ الخبرىّ الصوفىّ بمصر فى ذى الحجّة، و له أربع و تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۳]

السنة الثامنة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و عشرين و ستمائة.

فيها قدم الشيخ محيى الدين بن الجوزىّ إلى دمشق رسولا إلى الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق، و معه الخلع له و لإخوته أولاد العادل من الخليفة الظاهر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۴

بأمر اللّه أبى نصر محمد العبّاسىّ المتولّى الخلافة بعد وفاة والده الناصر لدين اللّه.

[و مضمون رسالته طلب رجوع المعظّم عن موالاة ابن الخوارزمىّ].

قال أبو المظفّر سبط ابن الجوزىّ، قال لى الملك المعظّم، قال خالك:

المصلحة رجوعك عن هذا الخارجىّ (يعنى جلال الدين [بن] الخوارزمىّ و ترجع إلى إخوتك و نصلح بينكم؛ قال: فقلت لخالك: إذا رجعت عن [ابن] الخوارزمىّ و قصدنى إخوتى تنجدوننى؟ قال: نعم؛ فقلت: مالكم عادة تنجدون أحدا! هذه كتب الخليفة الناصر لدين اللّه عندنا، و نحن على دمياط نكتب و نستصرخ به، فيجىء الجواب بأنّا قد كتبنا إلى ملوك الجزيرة و لم يفعلوا. قال: قلت: مثلى معكم كمثل رجل كان يخرج إلى الصلاة و بيده عكّاز خوفا من الكلاب، فقال له بعض أصدقائه: أنت شيخ كبير، و هذا العكّاز يثقلك، و أنا أدلك على شىء يغنيك عن حمله، قال: و ما هو؟ قال: تقرأ سورة يس عند خروجك من الدار، و ما يقربك كلب، و أقام مدّة فرأى الشيخ حامل العكّاز، فقال له: أما قد علّمتك ما يغنيك عن حمله؟ فقال: هذا العكّاز لكلب لا يعرف القرآن. و قد اتّفق إخوتى علىّ، و قد أنزلت [ابن] الخوارزمىّ على خلاط، إن قصدنى أخى الأشرف منعه؛ و إن قصدنى أخى الكامل (يعنى صاحب الترجمة) فأنا له. ثم اصطلح الإخوة بعد ذلك فى السنة.

و فيها توفّى كافور بن عبد اللّه شبل الدولة الحسامىّ خادم ستّ الشام بنت أيّوب. كان عاقلا ديّنا صالحا، بنى مدرسته على نهر ثورا بدمشق لأصحاب أبى حنيفة- رضى اللّه عنه- و الخانقاه إلى جانب مدرسته. و كانت وفاته بدمشق فى شهر رجب.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۵

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين الظاهر بأمر اللّه أبو نصر محمد ابن الخليفة الناصر لدين اللّه أبى العباس أحمد الهاشمىّ العباسىّ البغدادىّ. ولى الخلافة بعد وفاة أبيه فى السنة الماضية فلم تطل مدّته فيها، و وقع له شدائد إلى أن مات فى شهر رجب؛ و امّه أمّ ولد. و كانت خلافته تسعة أشهر و أيّاما، و كان مولده فى المحرّم سنة سبعين و خمسمائة، و كان جميل الصورة أبيض مشربا بحمرة حلو الشمائل شديد القوى.

أفضت الخلافة إليه، و له اثنتان و خمسون سنة إلا أشهرا، فقيل له: ألا تنفسح؟

فقال: قد فات الزرع! فقيل له: يبارك اللّه فى عمرك، فقال: من فتح دكّانا بعد العصر إيش يكسب!. و كان خيّرا عادلا قطع الظّلامات

و المكوس، حتّى قيل:

إنّ جملة ما قطع من الظّلامات و المكوس ثمانية آلاف دينار فى كلّ سنة، و تصدّق فى ليلة العيد بمائة ألف دينار. و سببه أنّه لمّا ولى الخلافة ولّى الشيخ عماد الدين ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ القضاء، فما قبل عماد الدين إلّا بشرط أن يورّث ذوى الأرحام، فقال له الخليفة: أعط كلّ ذى حقّ حقّه و اتّق اللّه و لا تثق بسواه؛ فكلّمه القاضى أيضا فى الأوراق التى ترفع إلى الخليفة؛ و هو أنّ حرّاس الدروب كانت ترفع إلى الخليفة فى صبيحة كلّ يوم ما يكون عندهم من أحوال الناس الصالحة و الطالحة، فأمر الظاهر بتبطيل ذلك، و قال: أىّ فائدة فى كشف أحوال الناس! فقيل له: إن تركت ذلك فسدت أحوال الرعيّة، فقال: نحن ندعو لهم بالإصلاح.

ثم أعطى القاضى المذكور عشرة آلاف دينار يفى بها ديون من فى السجون من الفقراء، ثم فرّق بقيّة المائة الألف الدينار فى العلماء و الفقراء. و لمّا مات الظاهر تولّى الخلافة بعده ولده المستنصر باللّه أبو جعفر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۶

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المحاسن محمد بن السيد بن أبى لقمة الأنصارىّ الصفّار فى شهر ربيع الأوّل عن أربع و تسعين سنة.

و قاضى الشام جمال الدين يونس بن بدران القرشىّ المصرىّ الشافعىّ فى شهر ربيع الأوّل، و دفن بقرب الصليحيّة. و شمس الدين أحمد بن عبد الواحد المقدسىّ الملقّب بالبخارىّ الفقيه المناظر فى جمادى الآخرة، و له تسع و خمسون سنة. و التقىّ خزعل ابن عسكر المصرىّ النحوىّ اللغوىّ بدمشق. و المحارى الزاهد أبو محمد عبد الرحمن ابن عبد اللّه بن علوان بحلب فى جمادى الآخرة، و له تسعون سنة. و العلّامة إمام الدين عبد الكريم بن محمد بن عبد الكريم بن الفضل الرافعىّ القزوينىّ صاحب الشرح. و الظاهر بأمر اللّه أبو نصر محمد بن الناصر لدين اللّه فى رجب، و له ثلاث و خمسون سنة، و كانت خلافته عشرة أشهر. و بويع بعده ابنه المستنصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و إصبع واحدة.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۴]

السنة التاسعة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و عشرين و ستمائة.

فيها عاد الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل إلى بلاده بعد أن صالح أخاه الملك المعظّم عيسى ابن الملك العادل، و كلاهما أخو الملك الكامل هذا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۷

و فيها حجّ بالناس من الشام الشجاع [علىّ] بن السلّار، و من ميافارقين الشهاب غازى ابن الملك العادل.

و فيها توفّى السلطان الملك المعظّم شرف الدين عيسى ابن الملك العادل أبى بكر ابن أيّوب بن شادى الأيّوبىّ صاحب الشام. قال أبو المظفّر: و فيها توفّى الملك المعظّم العالم الفقيه المجاهد فى سبيل اللّه الغازى النحوىّ اللغوىّ. ولد بالقاهرة سنة ستّ و سبعين و خمسمائة، و نشأ بالشام و قرأ القرآن و تفقّه على مذهب أبى حنيفة بجمال الدين الحصيرىّ، و حفظ المسعودىّ، و اعتنى «بالجامع الكبير»، و قرأ الأدب [و النحو] على تاج الدين الكندىّ، فأخذ عنه «كتاب سيبويه» و شرحه الكبير للسيرافىّ، «و الحجّة فى القراءات» لأبى علىّ الفارسىّ «و الحماسة»، و قرأ عليه «الإيضاح» لأبى علىّ حفظا؛ ثمّ ذكر مسموعاته فى الحديث و غيره إلى أن قال:

و شرح الجامع الكبير، و صنّف الردّ على الخطيب، و العروض، و له «ديوان شعر».

قال: و كان شجاعا مقداما كثيرا لحياء متواضعا مليح الصورة ضحوكا غيورا جوادا حسن السّيرة. و أطلق أبو المظفّر عنان القلم فى

ميدان محاسنه حتّى إنّه ساق ترجمته فى عدّة أوراق فى مرآة الزمان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۸

قلت: و يحقّ له ذلك، فإنّ المعظّم كان فى غاية ما يكون من الكمال فى عدّة علوم و فنون، و هو رجل بنى أيّوب و عالمهم بلا مدافعة، و محاسنه أشهر من أن تذكر.

و كانت وفاته- رحمه اللّه- فى ثالث ساعة من نهار الجمعة أوّل يوم من ذى الحجّة، و دفن بقلعة دمشق، ثم نقل بعد ذلك من قلعة دمشق و دفن مع والدته فى القبّة عند الباب. و خلّف عدّة أولاد: الملك الناصر داود، و الملك المغيث عبد العزيز، و الملك القاهر عبد الملك؛ و من البنات تسعا، و قيل إحدى عشرة. و تولّى ابنه الناصر داود دمشق بعده إلى أن أخذها منه عمّه الملك الكامل صاحب الترجمة.

و فيها توفّى الملك چنكز خان التركىّ، طاغية التّتار و ملكهم الأوّل الذى خرّب البلاد و أباد العباد، و ليس للتتار ذكر قبله.

قلت: هو صاحب «التورا» «و اليسق»، و قد أوضحنا أمره فى غير هذا الكتاب، و ذكرنا أصله و اعتقاد التتار فيه و أشياء كثيرة. و التورا باللغة التركية هو المذهب، و اليسق هو الترتيب، و أصل كلمة اليسق سى يسا، و هو لفظ مركّب من أعجمىّ و تركىّ، و معناه: التراتيب الثلاث، لأنّ سى بالعجمى فى العدد ثلاثة، و يسا بالتركى: الترتيب؛ و على هذا مشت التتار من يومه إلى يومنا هذا، و انتشر ذلك فى سائر الممالك حتّى ممالك مصر و الشام، و صاروا يقولون: «سى يسا» فثقلت عليهم فقالوا: «سياسة» على تحاريف أولاد العرب فى اللغات الأعجمية. و لمّا أن تسلطن الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقدارىّ أحبّ أن يسلك فى ملكه بالديار المصريّة طريقة چنكزخان هذا و أموره، ففعل ما أمكنه، و رتّب فى سلطنته

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۶۹

أشياء كثيرة؛ لم تكن قبله بديار مصر: مثل ضرب البوقات، و تجديد الوظائف، على ما نذكره- إن شاء اللّه تعالى- فى ترجمته. و استمرّ أولاد چنكزخان فى ممالكه التى قسمها عليهم فى حياته، و لم يختلف منهم واحد على واحد، و مشوا على ما أوصاهم به، و على طريقته «التورا» و «اليسق» إلى يومنا هذا. انتهى.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى داود بن معمّر بن عبد الواحد بن الفاخر القرشىّ فى رجب أو فى شعبان، و له تسعون سنة. و طاغية التتار چنكزخان فى شهر رمضان. و قاضى القضاة بحرّان أبو بكر عبد اللّه بن نصر الحنبلىّ، و له خمس و سبعون سنة. و أبو محمد عبد البرّ ابن الحافظ ابن العلاء الهمذانىّ بروذراور فى شعبان. و البهاء عبد الرحمن بن إبراهيم المقدسىّ الحنبلىّ الفقيه المحدّث فى ذى الحجّة، و له تسع و ستون سنة. و الملك المعظّم شرف الدين عيسى بن العادل فى ذى القعدة، و له ثمان و أربعون سنة. و أبو الفرج الفتح بن عبد اللّه [بن محمد ابن علىّ بن هبة اللّه] بن عبد السلام الكاتب فى المحرّم، و له سبع و ثمانون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع أذرع و اثنتا عشرة إصبعا. هكذا وجدته مكتوبا، و لعلّه و هم من الكاتب.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۵]

السنة العاشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و عشرين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۰

فيها نزل جلال الدين بن خوارزم شاه على خلاط مرّة ثانية، و هجم عليه الشتاء فرحل عنها إلى أذربيجان، و خرج الحاجب علىّ من

خلاط بالعسكر، فاستولى على خوىّ و سلماس و تلك النواحى، و أخذ خزائن جلال الدين المذكور و عاد إلى خلاط، فقيل له: بئس ما فعلت! و هذا يكون سببا لهلاك العباد و البلاد، فلم يلتفت.

و فيها كان فراغ مدرسة ركن الدين الفلكى بقاسيون دمشق.

و فيها توفّى عبد الرحيم بن علىّ بن إسحاق سبط القاضى جمال الدين القرشىّ.

كان إماما عالما فاضلا غزير المروءة كثير الإحسان شاعرا مترسّلا، و كانت وفاته بدمشق فى سابع المحرّم. و من شعره قوله فى مليح بالحمّام:

تجرّد للحمّام عن قشر لؤلؤ و ألبس من ثوب المحاسن ملبوسا

و قد زيّن الموسى لتزيين رأسه فقلت لقد أوتيت سؤلك يا موسى

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو المعالى أحمد ابن الخضر بن هبة اللّه بن طاوس الصوفىّ فى رمضان. و المحدّث محبّ الدين أحمد ابن تميم اللّبلىّ. و أبو منصور أحمد بن يحيى بن البرّاج الصوفىّ الوكيل فى المحرّم.

و العلامة أبو القاسم أحمد بن يزيد القرطبىّ آخر من روى بالإجازة عن شريح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۱

فى رمضان. و أبو علىّ الحسن بن إسحاق بن موهوب بن [أحمد] الجواليقىّ فى شعبان، و له إحدى و ثمانون سنة. و نفيس الدين الحسن بن علىّ [بن أبى القاسم الحسين] بن الحسن بن البنّ الأسدىّ فى شعبان، و له ثمان و ثمانون سنة.

و الرئيس المنشئ جمال الدين عبد الرحيم بن علىّ بن إسحاق بن شيث القرشىّ الفرضىّ بدمشق فى المحرّم، و كان كاتب المعظّم. و أبو منصور محمد بن عبد اللّه بن المبارك البندنيجىّ.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و تسع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و خمس أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۶]

السنة الحادية عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و عشرين و ستمائة.

فيها أعطى الملك الكامل صاحب الترجمة بيت المقدس لملك الفرنج الأنبرور.

و فيها خرج الملك الكامل فى صفر من مصر، و نزل تل العجول، و كان الملك الناصر داود ابن الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق كاتب عمّه الملك الأشرف موسى بالحضور إلى دمشق، فوصل إليها و نزل بالنّيرب؛ و كان عزّ الدين أيبك قد أشار على الملك الناصر داود بمداراة عمّه الملك الكامل محمد صاحب مصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۲

فخالفه؛ و قال الناصر لعمّه الأشرف فى قتال عمّه الكامل، فلم يلتفت الأشرف إلى كلامه؛ و اجتمع الأشرف مع أخيه الملك الكامل و اتّفقا على حصار دمشق.

و وصلت الأخبار بتسليم القدس إلى الأنبرور، فقامت قيامة الناس لذلك و وقع أمور، و تسلّم الأنبرور القدس؛ و الكامل و الأشرف على حصار دمشق، فلم يقم الأنبرور بالقدس سوى ليلتين، و عاد إلى يافا بعد أن أحسن إلى أهل القدس، و لم يغيّر من شعائر الإسلام شيئا.

و فيها سلّم الملك الناصر داود إلى عمّه الملك الكامل دمشق و عوّضه عمّه الكامل الشّوبك، و ذلك فى شهر ربيع الآخر من السنة.

و فيها توفى أضسيس المعروف بأقسيس المنعوت بالملك المسعود بن الملك الكامل صاحب الترجمة، مرض بعد خروجه من اليمن مرضا مزمنا، و مات بمكّة و دفن بالمعلى فى حياة والده الملك الكامل، و كان معه من الأموال شىء كثير. و كان ظالما جبّارا سفّا كالدماء قتل باليمن خلائق لا تدخل تحت حصر، و استولى على أموالهم.

و كان أبوه الملك الكامل يكرهه و يخافه. و دام باليمن حتى سمع بموت عمّه الملك المعظّم عيسى، فخرج من اليمن بطمع دمشق، فمرض و مات. فلمّا سمع أبوه الملك الكامل بموته سرّ بذلك، و استولى على جميع أمواله.

و فيها توفّى الحسن بن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرّى الشيخ الإمام أبو القاسم الدمشقىّ التّغلبىّ. سمع الحافظ ابن عساكر و غيره، و روى الكثير، و كان صالحا ثقة- رحمه اللّه-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۳

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم [الحسن] ابن هبة اللّه بن محفوظ بن صصرّى التّغلبىّ فى المحرّم، و قد قارب التسعين. و توفّيت أمة اللّه بنت أحمد بن عبد اللّه بن علىّ الآبنوسىّ. و أبو الحسن محمد بن محمد بن أبى حرب النّرسىّ الشاعر. و المهذّب بن علىّ بن قنيدة أبو نصر الأزجىّ. و الملك المسعود أقسيس صاحب اليمن ابن الملك الكامل فى جمادى الآخرة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و ثلاث أصابع. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۷]

السنة الثانية عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة سبع و عشرين و ستمائة.

فيها أخذ السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه مدينة خلاط بعد حصار طويل أقام عليها عشرة أشهر، و لمّا بلغ صاحبها الملك الأشرف ذلك استنجد بملك الروم و غيره من الملوك، و واقع جلال الدين الخوارزمىّ المذكور و كسره بعد أمور، و قتل معظم عسكره، و امتلأت الجبال و الأودية منهم، و شبعت الوحوش و الطيور من رممهم، و عظم الملك الأشرف فى النفوس.

و فيها توفّى الحسن بن محمد بن الحسن بن هبة اللّه الشيخ أبو البركات زين الأمناء المعروف بابن عساكر فى ليلة الجمعة سابع عشر صفر، و دفن عند أخيه فخر الدين، و كان فاضلا محدّثا، سمع الكثير و روى تاريخ الحافظ ابن عساكر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۴

و فيها توفّى فتيان بن علىّ بن فتيان الأسدىّ الحريمىّ المعروف بالشّاغورىّ المعلّم الشاعر المشهور، كان فاضلا شاعرا خدم الملوك و مدحهم و علّم أولادهم، و له ديوان شعر مشهور. قال الإسعردىّ: إنّه مات فى هذه السنة. و قال ابن خلّكان:

إنّه توفّى سحر الثانى و العشرين من المحرّم سنة خمس عشرة و ستمائة بالشّاغور، و دفن [بمقابر] الباب الصغير، و قول ابن خلّكان هو الأرجح. انتهى. و من شعر الشاغورىّ فى مدح أرض الزّبدانى من دمشق:

قد أجمد الخمر كانون بكلّ قدح و أخمد الجمر فى الكانون حين قدح

يا جنّة الزّبدانى أنت مسفرة بحسن وجه إذا وجه الزمان كلح

فالثلج قطن عليه السحب تندفه و الجو يحلجه و القوس قوس قزح

و له و قد دخل الحمّام و ماؤها شديد الحرارة، و كان قد شاخ، فقال:

أرى ماء حمّامكم كالحميم نكابد منه عناء و بوسا

و عهدى بكم تسمطون الجداء فما بالكم تسمطون التّيوسا

و مثل هذا قول بعضهم:

حمّامكم هذه حمام وقودها الناس و الحجاره

أعجب شيء رأيت فيها طهورها ينقض الطّهاره

و من أحسن لغز سمعناه فى الحمّام:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۵

و ما ليل يخالطه نهار و أقمار تصدّ عن الشموس

و أنهار على النّيران تجرى و أسلحة تسلّ على الرءوس

الذين ذكر الذّهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى زين الأمناء الحسن ابن محمد بن الحسن بن عساكر فى صفر، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الشرف راجح ابن إسماعيل الحلىّ الشاعر. و عبد الرحمن بن عتيق [بن عبد العزيز] بن صيلا المؤدّب. و عبد السلام بن عبد الرحمن [ابن الأمين] علىّ [بن علىّ] بن سكينة.

و أبو المعالى محمد [بن أحمد] بن صالح الحنبلىّ ببغداد. و فخر الدين محمد بن عبد الوهاب الأنصارىّ يوم عيد الأضحى.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراعان سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۸]

السنة الثالثة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثمان و عشرين و ستمائة.

فيها ساق التّتار خلف السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه بعد أن واقعهم عدّة وقائع من بلاد تبريز، فانهزم بين أيديهم إلى ديار بكر، فقتل فى قرية من أعمال ميّافارقين.

و فيها توفى بهرام شاه بن فرخشاه بن شاهنشاه بن أيّوب، الملك الأمجد صاحب بعلبكّ. كان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب أعطاه بعلبكّ عند وفاة أبيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۶

سنة ثمان و سبعين و خمسمائة، فأقام فيها خمسين سنة حتّى حصره الملك الأشرف موسى بن العادل أبى بكر بن أيّوب و أخرجه منها، و ساعده عليه ابن عمّه أسد الدين شيركوه صاحب حمص؛ فانتقل الملك الأمجد إلى الشام و سكنها حتّى قتله بعض مماليكه غيلة؛ و كان فاضلا شاعرا فصيحا كاتبا، و له ديوان شعر كبير. و من شعره «دو بيت»:

كم يذهب هذا العمر فى الخسران يا غفلتى فيه و ما أنسانى

ضيّعت زمانى كلّه فى لعب يا عمر فهل بعدك عمر ثان

قلت: و ما أحسن قول قاضى القضاة شهاب الدين أحمد بن حجر- رحمه اللّه- فى هذا المعنى، و هو ممّا أنشدنى من لفظه لنفسه- عفا اللّه عنه-:

خليلىّ ولىّ العمر منا و لم نتب و ننوى فعال الصالحات و لكنّا

فحتّى متى نبنى بيوتا مشيدة و أعمارنا منا تهدّ و ما تبنى

و ما ألطف قول السّراج الورّاق- رحمه اللّه- و هو قريب ممّا نحن فيه:

يا خجلتى و صحائفى سودا غدت و صحائف الأبرار فى إشراق

و فضيحتى لمعنّف لى قائل أكذا تكون صحائف الورّاق

و فيها قتل السلطان جلال الدين بن خوارزم شاه، و اسمه تكش، و قيل محمود ابن السلطان علاء الدين خوارزم شاه؛ و اسمه محمد بن تكش، و هو من نسل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۷

عبد اللّه بن طاهر بن الحسين، و جدّه تكش هو الذى أزال ملك السّلجوقيّة. قتل بديار بكر، كما ذكرناه فى أوّل هذه السنة. و لمّا قتل دخل جماعة على الملك الأشرف موسى فهنّئوه بموته؛ فقال: تهنّونى به و تفرحون! سوف ترون غبّه! و اللّه لتكوننّ هذه الكسرة سببا لدخول التتار إلى بلاد الإسلام، ما كان الخوارزميّ إلّا مثل [السدّ] الذى بيننا و بين يأجوج و مأجوج؛ فكان كما قال الأشرف. كان الخوارزميّ يقاتل التتار عشرة أيّام بلياليها بعساكره، يترجّلون عن خيولهم و يلتقون بالسيوف، و يبقى الرجل منهم يأكل و يبول و هو يقاتل.

و فيها توفّى المهذّب بن الدّخوار الطبيب، كان فاضلا حاذقا بعلم الطبّ أستاذ عصره، تقدّم على جميع أطبّاء زمانه، و مع هذا مات بستة أمراض مختلفة، و وقف داره و كتبه على الأطبّاء.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو نصر أحمد بن الحسين بن عبد اللّه بن النّرسىّ البيّع فى رجب، و له ثلاث و ثمانون سنة. و الملك الأمجد مجد الدين بهرام شاه بن فرخشاه صاحب بعلبكّ. و محمد بن عمر بن حسين المقرئ الكردىّ بدمشق. و المهذّب عبد الرجيم بن علىّ رئيس الطبّ، و يعرف بالدّخوار فى صفر. و أبو الفضل عبد السلام بن عبد اللّه الدّاهرىّ الخفّاف فى شهر ربيع الأوّل عن ثنتين و ثمانين سنة. و أبو الرضا محمد بن أبى الفتح المبارك [ابن عبد الرحمن] ابن عصيّة الحربىّ فى المحرّم، و له ثلاث و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۸

و العلّامة زين الدين يحيى بن عبد المعطى بن عبد النّور الزّواوىّ النحوىّ فى ذى القعدة بمصر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ذراع واحدة و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۲۹]

السنة الرابعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و عشرين و ستمائة.

فيها عاد التّتار إلى الجزيرة و حرّان و قتلوا و أسروا و سبوا، و خرج الملك الكامل صاحب الترجمة من مصر إلى أن وصل إلى ديار بكر و اجتمع مع أخيه الأشرف موسى، و اجتمعوا على دفع التّتار؛ و كان أهل حرّان قد خرجوا لقتال التّتار، فما رجع منهم إلّا القليل. و عاد التّتار إلى بلادهم بعد أمور صدرت منهم فى حقّ المسلمين.

فلمّا بلغ الكامل عود التّتار نزل على مدينة آمد و معه أخوه الأشرف، و حاصرها حتّى استولى عليها و على عدّة قلاع.

و فيها توفّى إسماعيل بن إبراهيم الشيخ شرف الدين الفقيه الحنفىّ و هو ابن خالة شمس الدين ابن الشّيرازىّ. كان فقيها فاضلا زاهدا عابدا و رعا و له تصانيف حسان، منها «مقدمة فى الفرائض»، و كان بعث إليه الملك المعظّم عيسى صاحب دمشق يقول: أفت بإباحة الأنبذة، و ما يعمل من ماء الرمّان و نحوه، فقال: لا أفتح هذا الباب على أبى حنيفة! إنّما هى رواية النوادر، و قد صحّ عن أبى حنيفة أنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۷۹

ما شربه قطّ، و حديث ابن مسعود لا يصحّ، و كذا ما يروى عن عمر فى إباحة شربه لا يثبت عنه. فغضب المعظّم و أخرجه من مدرسة طرخان.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو القاسم أحمد بن أحمد بن السّمّذىّ الكاتب. و الحافظ أبو موسى عبد اللّه ابن الحافظ عبد الغنى بن عبد الواحد المقدسىّ فى رمضان، و له ثمان و أربعون سنة. و عبد اللطيف بن عبد الوهاب بن الطّبرىّ فى شعبان. و العلّامة موفّق الدين عبد اللطيف بن يوسف ابن محمد البغدادىّ النحوىّ الطبيب فى المحرّم عن اثنتين و سبعين سنة. و الزاهد الشيخ عمر بن عبد الملك الدّينورىّ بقاسيون. و أبو حفص عمر بن كرم بن أبى الحسن الدّينورىّ الحمّامى فى رجب، و له تسعون سنة. و أبو القاسم عيسى بن عبد العزيز بن عيسى المقرئ بالإسكندريّة. و الحافظ معين الدين أبو بكر محمد بن عبد الغنى بن نقطة الحنبلىّ فى صفر كهلا.

*** أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ثلاث أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۰]

السنة الخامسة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاثين و ستمائة.

فيها فتح الملك الكامل محمد صاحب الترجمة آمد، و أخرج منها صاحبها الملك المسعود بن مودود بعد حصار طويل؛ و تسلّم منه جميع القلاع التى كانت بيده،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۰

و بقى حصن كيفا عاصيا؛ فبعث الكامل أخاه الأشرف، و أخاه شهاب الدين غازيا، و معهما صاحب آمد تحت الحوطة؛ فسألهم صاحب آمد فى تسليم الحصن فلم يسلّموا البلد، فعذّبه الأشرف عذابا عظيما، و كان يبغضه؛ و لا زال الأشرف يحاصر حصن كيفا حتّى تسلّمها بعد أمور فى صفر من السنة، و وجد عند مسعود المذكور خمسمائة بنت من بنات الناس للفراش.

و فيها فتحت دار الحديث الأشرفيّة المجاورة لقلعة دمشق التى بناها الملك الأشرف موسى، و أملى بها ابن الصلاح الحديث، و ذلك فى ليلة النصف من شعبان، و وقف عليها الأشرف الأوقاف، و جعل بها نعل النّبىّ صلّى اللّه عليه و سلم.

و فيها توفّى الوزير صفىّ الدين عبد اللّه بن علىّ بن شكر، وزير الملك العادل؛ و أصله من الدّميرة، و هى قرية بالوجه البحرى من أعمال مصر. و كان صفىّ الدين المذكور وزيرا مهيبا عالما فاضلا له معرفة بقوانين الوزارة، و كانت عنايته مصروفة إلى العلماء و الفقهاء و الادباء، و كان مالكىّ المذهب. و مات بالقاهرة و هو على حرمته، و له بالقاهرة مدرسة معروفة به.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۱

و فيها توفّى الملك العزيز عثمان ابن السلطان الملك العادل أبى بكر بن أيّوب أخو الملك الكامل هذا، و كان شقيق المعظّم عيسى، و هو صاحب بانياس و تبنين و الحصون، و هو الذى بنى الصّبيبة؛ و دام مالكا لهذه القلاع إلى أن مات فى يوم الاثنين عاشر شهر رمضان ببستانه ببيت لهيا، و حمل تابوته فدفن بقاسيون عند أخيه الملك المعظّم عيسى، و قد تقدّم أنّه كان شقيقه.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى بهاء الدين إبراهيم ابن أبى اليسر شاكر بن عبد اللّه التّنوخىّ الشافعىّ فى المحرّم، ولى قضاء المعرّة خمسة أعوام. و أبو الحسن علىّ بن أحمد بن يوسف الأزجىّ بالقدس فى صفر. و أبو محمد الحسن ابن الأمير السيد علىّ بن المرتضى العلوىّ الحسينىّ فى شعبان. و صفىّ الدين أبو بكر عبد العزيز بن أحمد [ابن عمر بن سالم بن محمد] بن باقا التاجر فى رمضان، و له خمس و سبعون سنة. و صاحب الصّبيبة الملك العزيز عثمان بن العادل- رحمه اللّه- و العلّامة عزّ الدين أبو الحسن علىّ بن الأثير بن محمد بن محمد بن عبد الكريم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۲

الشّيبانىّ الجزرىّ المؤرّخ فى شعبان، و قد قارب ستّا و سبعين سنة. و صاحب إربل مظفّر الدّين كوكبورى ابن صاحب إربل أيضا زين الدين علىّ بن بكتكين التّركمانىّ فى رمضان. و الوزير مؤيّد الدّين محمد بن محمد بن القمّىّ ببغداد. و شرف الدين محمد بن نصر اللّه بن مكارم الدّمشقىّ الشاعر الكاتب فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشر أصابع. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ستّ أصابع، و طال مكثه على الأراضى. و اللّه أعلم.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۱]

السنة السادسة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و ثلاثين و ستمائة.

فيها اجتمع الملك الكامل صاحب الترجمة و إخوته و أسد الدين شيركوه صاحب حمص، و ساروا ليدخلوا بلاد الروم من عند النهر الأزرق، فوجدوا الروم قد حفظوا الدّربند، و وقفوا على رءوس الجبال و سدّوا الطرق، فامتنعت العساكر من الدخول؛ و كان الملك الأشرف صاحب دمشق يومئذ ضيّق الصدر من أخيه الملك الكامل هذا، لأنّه طلب منه الرّقّة فامتنع؛ و قال له: ما يكفيك كرسىّ بنى أميّة! فاجتمع أسد الدين شيركوه صاحب حمص بالأشرف و قال له: إن

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۳

حكم الكامل على الروم أخذ جميع ما بأيدينا فوقع التقاعد، فلمّا رأى الكامل ذلك عبر الفرات و نزل السّويداء، و جاءه صاحب خرتبرت، و هو من بنى أرتق، و قال له: عندنا طريق سهلة تدخل منها إلى الروم. فجهّز الملك الكامل بين يديه ولده الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و ابن أخيه الملك الناصر داود بن المعظّم، و الخادم صوابا، فجاءتهم عساكر الروم؛ و كان الناصر تأخّر و تقدّم صواب فى خمسة آلاف فارس، و معه الملك المظفّر صاحب حماة، و قاتلوا الروم و انهزموا؛ فعاد الملك الكامل إلى آمد. و كان أسر صواب و جماعة من الأمراء فأطلقهم الروم بعد أن أحسنوا إليهم.

و فيها قدم رسول الأنبرور الفرنجىّ على الملك الكامل بهدايا فيها دبّ أبيض، و شعره مثل شعر السّبع، ينزل البحر فيصعد بالسمك فيأكله و معه أيضا طاوس أبيض.

و فيها توفّى الشيخ العارف المسلّك الزاهد شهاب الدين أبو حفص- و قيل أبو عبد اللّه- عمر بن محمد بن عبد اللّه بن [محمد بن عبد اللّه] بن عمّويه القرشىّ التّيمىّ البكرىّ السّهروردىّ الصّوفىّ. و ذكر الذهبىّ وفاته فى سنة اثنتين و ثلاثين و هو الأشهر.

قلت: و مولده فى شهر رجب سنة تسع و ثلاثين و خمسمائة بسهرورد، و قدم بغداد و هو أمرد، فصحب عمّه الشيخ أبا النّجيب عبد القاهر و أخذ عنه التصوّف و الوعظ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۴

و صحب أيضا الشيخ عبد القادر الجيلى، و سمع الحديث من عمّه المذكور و غيره، و روى عنه البرزالى و جماعة كثيرة؛ و كان له فى الطريقة قدم ثابتة و لسان ناطق، و ولى عدّة ربط للصّوفيّة، و نفّذه الخليفة إلى عدّة جهات رسولا؛ و كان فقيها عالما واعظا مفتنّا مصنّفا، و هو صاحب التصانيف المشهورة، و اشتهر اسمه و قصد من الأقطار، و ظهرت بركات أنفاسه على خلق من العصاة فتابوا، و وصل به خلق إلى اللّه تعالى، و كفّ بصره قبل موته.

قال أبو المظفّر سبط بن الجوزىّ: رأيته فى سنة تسعين و خمسمائة يعظ برباط درب المقير على منبر طين، و على رأسه مئزر صوف؛ قال: و صنّف كتابا للصوفيّة و سمّاه «عوارف المعارف». قال: و جلس يوما ببغداد و ذكر أحوال القوم و أنشد- رحمه اللّه تعالى و عفا عنه-:

ما فى الصّحاب أخو وجد نطارحه حديث نجد و لا صبّ نجاريه

و جعل يردّد البيت و يطرب، فصاح به شابّ من أطراف المجلس، و عليه قباء و كلوتة؛ و قال: يا شيخ، لم تسطح و تنتقص القوم! و اللّه إنّ فيهم من لا يرضى أن يجاريك، و لا يصل فهمك إلى ما يقول، هلّا أنشدت:

ما فى الصّحاب و قد سارت حمولهم إلّا محبّ له فى الرّكب محبوب

كأنّه يوسف فى كلّ راحلة و الحىّ فى كلّ بيت منه يعقوب!

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۵

فصاح الشيخ و نزل من على المنبر و قصده فلم يجده، و وجد موضعه حفرة بها دم ممّا فحص برجلية عند إنشاد الشيخ البيت. انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و فيها توفّى الشيخ طىّ المصرىّ موید الشيخ محمد الفزارىّ، قدم الشام و أقام مدّة بزاويته، و كان يغشاه الأكابر، و انتفع بصحبته جماعة، و كان زاهدا عابدا، و دفن بزاويته بدمشق.

و فيها توفّى الشيخ عبد اللّه الارمنى الزاهد العابد الورع، كان رحّالا سافر إلى البلاد و لقى الأبدال و أخذ عنهم، و كان له مجاهدات و رياضات و عبادات و سياحات، و كان فى بداية أمره لا يأوى إلّا البرارى القفار و يتناول المباحات؛ قرأ القرآن و كتاب القدورى فى الفقه، و صحب رجالا من الأولياء، و كان معدودا من فقهاء الحنفية؛ و له حكايات و مناقب كثيرة. و مات فى يوم الجمعة تاسع عشرين ذى القعدة، و دفن بسفح قاسيون، و قد جاوز سبعين سنة.

و فيها توفّى العلّامة سيف الدّين علىّ بن أبى علىّ بن محمد بن سالم المعروف بالسيف الآمدىّ، كان إماما بارعا لم يكن فى زمانه من يجاريه فى علم الكلام.

قال أبو المظفّر: و كان يرمى بأشياء ظاهرها أنّه كان بريئا منها، لأنّه كان سريع الدّمعة، رقيق القلب سليم الصدر، و كان مقيما بحماة و سكن دمشق، و كان بنو العادل:

المعظّم و الأشرف و الكامل يكرهونه لما اشتهر عنه من الاشتغال بالمنطق و علوم الأوائل. ثم قال أبو المظفّر بعد كلام آخر: و أقام السيف خاملا فى بيته إلى أن توفّى فى صفر، و دفن بقاسيون فى تربته.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۶

و فيها توفّى كريم الدين الخلاطىّ الأمير، كان أديبا لطيفا حسن اللّقاء ذا مروءة خدم الأشرف و المعظّم و الكامل، و حجّ بالناس أميرا من الشام، و توفّى بدمشق و دفن بقاسيون عند مغارة الجوع.

و فيها توفّى الصلاح الإربلىّ، كان أديبا فاضلا شاعرا، خدم مظفّر الدّين صاحب إربل، ثمّ انتقل إلى خدمة الملك المغيث بن العادل، ثمّ خدم الكامل و تقدّم فى دولته و صار نديمه؛ ثم سخط عليه، لأنّه بعثه رسولا إلى أخيه المعظّم فنقل عنه أنّ المعظّم استماله، فحبسه الكامل فى الجبّ مدّة سنتين، ثم رضى عنه و أخرجه. و من شعره من قصيدة:

من يوم فراقنا على التحقيق هذى كبدى أحقّ بالتمزيق

لو دام لنا الوصال ألفى سنة ما كان يفى بساعة التفريق

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى إسماعيل بن علىّ بن إسماعيل ابن ماتكين الجوهرىّ فى ذى القعدة، و له ثمانون سنة. و نجم الدين ثابت بن بادان التّفليسى الصّوفىّ شيخ الأسديّة. و سراج الدين الحسين بن أبى بكر المبارك بن محمد الزّبيدىّ الحنبلىّ فى صفر، و له خمس و ثمانون سنة. و زكريّا بن علىّ بن حسّان العلبىّ فى شهر ربيع الأوّل. و الخادم طغريل أتابك الملك العزيز و مدبّر دولته.

و الشيخ القدوة عبد اللّه بن يونس الأرمنىّ. و السيف الآمدىّ علىّ بن أبى علىّ بن محمد بن سالم الثّعلبى فى صفر، و له ثمانون سنة. و

المحدّث أبو رشيد محمد بن أبى بكر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۷

الأصبهانىّ الغزالىّ المقرئ. و أبو عبد اللّه محمد بن عمر بن يوسف القرطبىّ فى صفر بالمدينة. و أبو الغنائم المسلم بن أحمد المازنى النّصيبىّ فى شهر ربيع الأوّل.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۲]

السنة السابعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و ثلاثين و ستمائة.

فيها خرجت عساكر الروم نحو آمد و حاصروها و أقاموا عليها أياما، ثم نازلوا السّويداء فأخذوها.

و فيها كان الوباء العظيم بمصر حيث إنّه مات فى شهر بيّف و ثلاثون ألف إنسان.

و فيها توفّى عبد السلام بن المطهّر بن عبد اللّه بن محمد بن [أبى] عصرون. كان فقيها فاضلا زاهدا إلّا أنّه كان مغرى بالنكاح، كان عنده بيّف و عشرون جارية للفراش. و مات بدمشق و دفن بقاسيون، و هو والد قطب الدين و تاج الدين.

و فيها توفّى صواب العادلى مقدّم عسكر الملك الكامل الذى كانت الروم أسرته فى عام أوّل، و كان خادما عاقلا شجاعا، و كان العادل و الكامل يعتمدان عليه، و كان حاكما على الشرق كلّه من قبل الكامل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۸

و فيها توفّى الشيخ شرف الدين أبو حفص عمر بن أبى الحسن علىّ بن المرشد ابن علىّ المعروف بابن الفارض الحموىّ الأصل، المصرىّ [المولد و] الدار و الوفاة الصالح الشاعر المشهور، أحد البلغاء الفصحاء الأدباء. مولده فى رابع ذى القعدة سنة ستّ و سبعين و خمسمائة، و توفّى بالقاهرة فى يوم الثلاثاء الثانى من جمادى الأولى، و دفن من الغد بسفح المقطم، و قبره معروف به يقصد للزيارة. و الفارض (بفتح الفاء و بعدها ألف وراء مكسورة و ضاد معجمة). و هو الذى مكتب الفروض على النساء و الرجال. و هو صاحب النظم الرائق و الشعر الفائق الغرامىّ. و ديوان شعره مشهور كثير الوجود بأيدى الناس، و شعره أشهر من أن يذكر. فمن مقطّعات شعره قوله:

و حياة أشواقى إلى ك و حرمة الصبر الجميل

لا أبصرت عينى سوا ك و لا صبوت إلى خليل

و من قصائده المشهورة- رحمه اللّه و عفا عنه-:

سائق الأظعان يطوى البيد طىّ منعما عرّج على كثبان طىّ

و بذات الشّيح عنّى إن مررت بحىّ من عريب الجزع حىّ

و تلطّف و اجر ذكرى عندهم علّهم أن ينظروا عطفا إلىّ

قل تركت الصّبّ فيكم شبحا ماله ممّا براه الشّوق فىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۸۹

خافيا عن عائد لاح كما لاح فى برديه بعد النّشر طىّ

صار وصف الضّرّ ذاتيا له عن عناء و الكلام الحىّ لىّ

كهلال الشّكّ لو لا أنّه أنّ عينى عينه لم تتأىّ

مثل مسلوب حياة مثلا صار فى حبّكم ملسوب حىّ

مسبلا للنّأى طرفا جاد إن ضنّ نوء الطّرف إذ يسقط خىّ

بين أهليه غريبا نازحا و على الأوطان لم يعطفه لىّ

جامحا إن سيم صبرا عنكم و عليكم جانحا لم يتأىّ

نشر الكاشح ما كان له طاوى الكشح قبيل النأى طىّ

فى هواكم رمضان عمره ينقضى ما بين إحياء و طىّ

صاديا شوقا لصدّى طيفكم جدّ ملتاح إلى رؤيا وريّ

حائرا فيما إليه أمره حائر و المرء فى المحنة عىّ

فكأيّن من أسى أعيا الأسى نال لو يغنيه قولى و كأىّ

رائيا إنكار ضرّ مسّه حذر التعنيف فى تعريف ريّ

و الذى أرويه عن ظاهر ما باطنى يزويه عن علمى زىّ

يا أهيل الودّ أنّى تنكرو نى كهلا بعد عرفانى فتىّ

و هوى الغادة عمرى عادة يجلب الشّيب إلى الشابّ الأحىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۲۸۹

نصبا أكسبنى الشوق كما تكسب الأفعال نصبا لام كىْ

[و متى أشكو جراحا بالحشى زيد بالشّكوى إليها الجرح كىّ]

عين حسّادى عليها لى كوت لا تعدّاها أليم الكىّ كىّ

عجبا فى الحرب أدعى باسلا و لها مستبسلا فى الحبّ كىّ

هل سمعتم أو رأيتم أسدا صاده لحظ مهاة أو ظبىّ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۰

سهم شهم القوم أشوى و شوى سهم ألحاظكم أحشايى شىّ

وضع الآسى بصدرى كفّه قال مالى حيلة فى ذا الهوىّ

أىّ شىء مبرد حرّا شوى للشّوى حشو حشاى أىّ شىّ

سقمى من سقم أجفانكم و بمعسول الثّنايا لى دوىّ

أوعدونى أوعدونى و امطلوا حكم دين الحبّ دين الحبّ لىّ

رجع اللّاحى عليكم آيسا من رشادى و كذاك العشق غىّ

أ بعينيه عمّى عنكم كما صمم عن عذله فى أذنىّ

أو لم ينه النّهى عن عذله زوايا وجه قبول النّصح زى

ظلّ يهدى لى هدى فى زعمه ضلّ كم يهذى و لا أصغى لغىّ

و لما يعذل عن لمياء طوع هوى فى العذل أعصى من عصىّ

لومه صبّا لدى الحجر صبا بكم دلّ على حجر صبىّ

عاذلى عن صبوة عذريّة هى بى لا فتئت هىّ بن بىّ

ذابت الرّوح اشتياقا فهى بع د نفاد الدمع أجرى عبرتىّ

فهبوا عينىّ ما أجدى البكا عين ماء فهى إحدى منيتىّ

أو حشا سال و لا أختارها إن تروا ذاك بها منّا علىّ

بل أسيئوا فى الهوى أو أحسنوا كلّ شىء حسن منكم لدىّ

و فيها توفّى عيسى بن سنجر بن بهرام بن جبريل بن خمارتكين الشيخ الإمام الأديب البارع حسام الدين أبو يحيى- و قيل: أبو الفضل- الإربلىّ المعروف بالحاجرىّ الشاعر المشهور. كان جنديّا من أولاد الأتراك. و كان أديبا فاضلا ظريفا فصيحا، و له ديوان شعر مشهور، يغلب على شعره الرّقة و الانسجام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۱

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: و كان صاحبى و أنشدنى كثيرا من شعره، فمن ذلك و هو معنى جيّد فى نهاية الجودة:

ما زال يحلف لى بكلّ أليّة ألّا يزال مدى الزمان مصاحبى

لمّا جفا نزل العذار بخدّه فتعجّبوا لسواد وجه الكاذب

قال و أنشدنى لنفسه أيضا:

لك خال من فوق عر ش شقيق قد استوى

بعث الصّدع مرسلا يأمر الناس بالهوى

انتهى.

قلت: و من شعره أيضا:

لك أن تشوّقنى إلى الأوطان و علىّ أن أبكى بدمعى القانى

إنّ الألى رحلوا غداة محجّر ملئوا القلوب لواعج الأحزان

فلأبعثنّ مع النسيم إليهم شكوى تميل لها غصون البان

نزلوا برامة قاطنين فلا تسل ما حلّ بالأغصان و الغزلان

و كانت وفاته فى يوم الخميس ثانى شوّال، و تقدير عمره خمسون سنة. و الحاجرىّ (بفتح الحاء المهملة و بعد الألف جيم مكسورة و بعدها راء) و هذه النسبة إلى حاجر، و كانت بليدة بالحجاز. و سبب تسميته بذلك لأنّه كان يكثر من ذكر الحاجر فى شعره فسمّى بذلك.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۲

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحسن بن صباح بن حسام المخزومىّ الكاتب فى رجب، و له إحدى و تسعون سنة، و تقى الدين علىّ بن أبى الفتح [المبارك بن الحسن بن أحمد] بن ماسويه الواسطىّ فى شعبان، و له ست و سبعون سنة. و الأديب شرف الدّين عمر بن علىّ بن المرشد الحموىّ بن الفارض بمصر فى جمادى الأولى. و الزاهد العارف أبو حفص عمر بن محمد بن عبد اللّه التّيمىّ السّهروردىّ فى أوّل السنة، و له ثلاث و تسعون سنة. و أبو عبد اللّه محمد بن عماد ابن محمد الحرّانىّ التاجر فى صفر بالإسكندرية، و له تسعون سنة. و القدوة الزاهد غانم بن علىّ [بن إبراهيم بن عساكر] المقدسىّ. و القاضى العلّامة بهاء الدين يوسف ابن رافع بن تميم الشافعىّ ابن شدّاد بحلب فى صفر. و سيف الدولة محمد بن غسّان الحمصى فى شعبان. و أبو الوفا محمود [بن إبراهيم بن سفيان] بن مندة التاجر بأصفهان شهيدا فى خلق لا يحصون بسيف التتار فى شوّال. و أبو سعد محمد بن عبد الواحد المدينى. و حسام الدين عيسى بن سنجر بن بهرام الإربلىّ المعروف بالحاجرىّ الشاعر المشهور، قتله شخص فى شوّال، و له خمسون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۳

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۳]

السنة الثامنة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب، على مصر، و هى سنة ثلاث و ثلاثين و ستمائة.

فيها استعاد الكامل من الروم حرّان و الرّها و غيرهما، و أخرب قلعة الرّها و نزل على دنيسر فأخربها و معه أخوه الأشرف، و بينما هم فى ذلك جاء كتاب بدر الدين لؤلؤ إلى الأشرف يقول: قد قطع التّتار دجلة فى مائة طلب كلّ طلب خمسمائة فارس، و وصلوا إلى سنجار، فخرج إليهم معين الدين بن كمال الدين بن مهاجر فقتلوه على باب سنجار، ثم رجع التتار ثم عادت. فأمّنهم الأشرف للتوجّه إلى جهة الشرق.

و فى هذه السنة كان الطاعون العظيم بمصر و قراها، مات فيه خلق كثير من أهلها و غيرها حتى تجاوز الحدّ.

و فيها جاءت الخوارزميّة إلى صاحب ماردين فنزل إليهم و قاتلهم، ثم نزلوا نصيبين و أحرقوها، و فعلوا فيها أعظم ما فعل الكامل بدنيسر.

و فيها توفّى الحسن بن محمد القاضى القيلوىّ، و قيلويّة: قرية من قرى بغداد.

كان فاضلا كاتبا، ولد بالعراق سنة أربع و ستين و خمسمائة، و كان كثير الأدب مليح الخطّ عارفا بالتواريخ حسن العبارة متواضعا، و كانت وفاته فى ذى القعدة و دفن بمقابر الصوفيّة عند المنيع.

و فيها توفّى أبو المحاسن محمد بن نصر [الدين بن نصر بن الحسين] بن عتين الزرعى، أصله من حوران.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۴

قال أبو المظفّر: «كان خبيث اللّسان هجّاء فاسقا متهتّكا، عمل قصيدة سمّاها:

«مقراض الأعراض» خمسمائة بيت، لم يفلت أحد من أهل دمشق منها بأقبح هجو. و نفاه السلطان صلاح الدين إلى الهند، فمضى و مدح ملوكها و اكتسب مالا، و عاد إلى دمشق. و من هجوه فى السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب- رحمه اللّه تعالى- قوله:

سلطاننا أعرج و كاتبه ذو عمش و الوزير منحدب

و صاحب الأمر خلقه شرس و عارض الجيش داؤه عجب

و الدّولعىّ الخطيب معتكف و هو على قشر بيضة يثب

و لابن باقا وعظ يغرّ به الن اس و عبد اللطيف محتسب

و لمّا نفى كتب من الهند إلى دمشق:

فعلام أبعدتم أخا ثقة لم يجترم ذنبا و لا سرقا

انفوا المؤذّن من بلادكم إن كان ينفى كلّ من صدقا

و لمّا عاد إلى دمشق هجا الملك العادل سيف الدين أبا بكر بن أيّوب بقوله:

إن سلطاننا الذى نرتجيه واسع المال ضيّق الإنفاق

هو سيف كما يقال و لكن قاطع للرّسوم و الأرزاق

قال: و استكتبه الملك المعظّم، و كان من أكبر سيّئات المعظّم. و مات عن إحدى و ثمانين سنة». انتهى كلام أبى المظفّر باختصار.

و قال ابن خلّكان: «كان خاتمة الشعراء، لم يأت بعده مثله، و لا كان فى أواخر عصره من يقاس به، و لم يكن شعره مع جودته مقصورا على أسلوب واحد. ثم نعته بأشياء إلى أن قال: و لمّا ملك الملك العادل دمشق كتب إليه قصيدته الرائيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۵

يستأذنه فى الدخول إليها، و يصف دمشق و يذكر ما قاساه فى الغربة؛ و قد أحسن فيها كلّ الإحسان و استعطفه كلّ الاستعطاف، و أوّلها:

ما ذا على طيف الأحبّة لو سرى و عليهم لو سامحونى فى الكرى

ثم وصف دمشق و قال:

فارفتها لا عن رضا و هجرتها لا عن قلّى و رحلت لا متخيّرا

أسعى لرزق فى البلاد مشتّت و من العجائب أن يكون مقتّرا

و أصون وجه مدائحى متقنّعا و أكفّ ذيل مطامعى متستّرا

و منها يشكو الغربة:

أشكو إليك نوى تمادى عمرها حتّى حسبت اليوم منها أشهرا

لا عيشتى تصفو و لا رسم الهوى يعفو و لا جفنى يصافحه الكرى

أضحى عن الأحوى المريع محلّأ و أبيت عن ورد النّمير منفّرا

و من العجائب أن يقيل بظلّكم كلّ الورى و أبيت وحدى بالعرا

فلمّا وقف عليها العادل أذن له فى الدخول إلى دمشق، فلمّا دخلها قال:

هجوت الأكابر فى جلّق و رعت الوضيع بسبّ الرّفيع

و أخرجت منها و لكنّنى رجعت على رغم أنف الجميع

و فيها توفّى أبو الخطّاب بن دحية المغربىّ. قال أبو المظفّر: كان فى المحدّثين مثل ابن عنين فى الشعراء، يثلب علماء المسلمين و يقع فيهم، و يتزيّد فى كلامه، فترك الناس الرواية عنه و كذّبوه. و كان الكامل مقبلا عليه، فلمّا انكشف له حاله

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۶

أعرض عنه، و أخذ منه دار الحديث و أهانه، فمات فى شهر ربيع الأوّل بالقاهرة و دفن بقرافة مصر.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الجمال أبو حمزة أحمد ابن عمر بن الشيخ أبى عمر المقدسى. و عفيف الدين علىّ بن عبد الصمد [بن محمد بن مفرج] بن الرمّاح المصرىّ المقرئ النحوى. و أبو الحسن [علىّ] بن أبى بكر بن روزبة القلانسىّ الصّوفىّ فى شهر ربيع الآخر، و قد جاوز التسعين. و العلّامة أبو الخطّاب عمر [بن الحسن] بن علىّ البلنسىّ المعروف بابن دحية فى شهر ربيع الأوّل عن سبع و ثمانين سنة. و الفخر محمد بن إبراهيم بن مسلم الإربلىّ الصّوفى بإربل فى شوّال أو شهر رمضان. و قاضى القضاة عماد الدين أبو صالح نصر بن عبد الرزاق ابن الشيخ عبد القادر الجيلىّ الحنبلىّ فى شوّال.

امر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و سبع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و إصبعان.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۴]

السنة التاسعة عشرة من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و ثلاثين و ستمائة.

فيها نزلت التّتار على إربل و حاصرتها مدّة حتّى أخذوها عنوة، و قتلوا كلّ من فيها و سبوا و فضحوا البنات، و صارت الابار و الدّور قبورا للناس. و كان أيدكين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۷

مملوك الخليفة بالقلعة فقاتلهم، فنقبوا القلعة و جعلوا لها سردابا و طرقا، و قلّت عندهم المياه حتّى مات بعضهم عطشا، فلم يبق سوى أخذها؛ فرحلوا عنها فى ذى الحجّة، و قد عجزوا عن حمل ما أخذوا من الأموال و الغنائم.

و فيها استخدم الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن الملك الكامل- صاحب الترجمة- الخوارزميّة أصحاب جلال الدين، فانضمّوا عليه و انفصلوا من الروم؛ و سرّ والده الملك الكامل بذلك.

و فيها بدت الوحشة بين الأخوين، و سببها أنّ الأشرف طلب من الكامل الرّقّة و قال: الشرق كلّه صار له، و أنا أركب كلّ يوم فى خدمته، فتكون الرّقّة برسم عليق دوابّى، فأبى الكامل و أغلظ فى الجواب، فوقعت الوحشه بينهم بسبب ذلك.

و فيها توفى الناصح عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهّاب الحنبلىّ، ولد بدمشق و نشأ بها، و تفقّه و وعظ و صنّف و درّس بمدرسة ربيعة خاتون. و مات فى غرّة المحرّم.

و فيها توفّى السلطان الملك العزيز محمد ابن السلطان الملك الظاهر غازى ابن السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب. كان صاحب حلب، وليها بعد وفاة أبيه الظاهر.

و مولده فى ذى الحجّة سنة تسع أو عشر و ستمائة. و توفّى والده و هو طفل، فنشأ تحت حجر شهاب الدين الخادم، فرتّب شهاب الدين أموره أحسنى ترتيب إلى سنة تسع و عشرين و ستمائة. استقلّ الملك العزيز هذا بالأمر إلى أن توفّى بحلب فى شهر ربيع الأوّل. و كان حسن الصورة كريما عفيفا، و لم يبلغ أربعا و عشرين سنة. و دفن بقلعة حلب، و إليه تنسب المماليك العزيزية الآتى ذكرهم فى عدّة أماكن.

و فيها توفّى كيقباذ السلطان علاء الدين صاحب الروم. كان عاقلا شجاعا مقداما جوادا، و هو الذى كسر الخوارزمىّ و كسر الكامل و استولى على بلاد الشرق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۸

و كان الملك العادل زوّجه ابنته فأولدها أولادا؛ و كان عادلا منصفا مهيبا، ما وقف له مظلوم إلّا و كشف ظلامته، و كانت وفاته فى شوّال.

قلت: و بنو قرمان ملوك الروم فى زماننا هذا يزعمون أنّهم من نسل السلطان علاء الدين هذا- و اللّه أعلم-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الملك المحسن أحمد ابن السلطان صلاح الدين فى المحرّم، و له سبع و خمسون سنة. و الخطيب أبو طاهر الخليل أحمد الجوسقىّ فى شهر ربيع الأوّل. و أبو منصور سعيد بن محمد بن يس السفّار، و قد حجّ تسعا و أربعين حجّة، فى صفر. و الحافظ أبو الربيع سليمان بن موسى بن سالم الكلاعىّ البلنسىّ فى ذى الحجّة، و له سبعون سنة. و الإمام ناصح الدين عبد الرحمن بن نجم بن عبد الوهاب الحنبلىّ فى المحرّم، و قد نيّف على الثمانين. و مفتى حرّان ناصر الدّين عبد القادر بن عبد القاهر بن أبى الفهم الحنبلىّ فى شهر ربيع الأوّل عن اثنتين و سبعين سنة. و علىّ بن محمد بن جعفر بن كب المؤدّب. و كمال الدين علىّ بن أبى الفتح بن الكبارى الطبيب بحلب فى المحرّم. و سلطان الروم علاء الدين كيقباذ بن كيخسرو بن قلج أرسلان السّلجوقىّ فى شوّال. و الحافظ أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر القطيعىّ فى شهر ربيع الآخر عن تسع و ثمانين سنة. و الملك العزيز

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۲۹۹

محمد ابن الملك الظاهر غازى بن [صلاح الدين] يوسف صاحب حلب بها فى شهر ربيع الأوّل. و محتسب دمشق الفخر محمود بن عبد اللطيف. و أبو الحسن مرتضى ابن أبى الجود حاتم بن المسلم الحارثىّ المصرىّ فى شوّال. و أبو بكر هبة اللّه بن عمر ابن الحسن القطّان، و كان آخر من روى عن أمّه كمال بنت عبد اللّه بن السّمرقندىّ، و عن هبة اللّه الشّبلىّ، عاش نيفا و ثمانين سنة. و ياسمين بنت سالم [بن علىّ] بن البيطار يوم عاشوراء.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم سبع أذرع سواء. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۵]

اشارة

السنة العشرون من ولاية الملك الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و هى السنة التى مات الكامل المذكور فى رجبها، و حكم ابنه العادل فى باقيها حسب ما تقدّم [فى] وفاة الكامل فى ترجمة.

و فيها أيضا توفّى الملك الأشرف موسى، ثم بعده أخوه الملك الكامل. و ملك دمشق بعد موت الأشرف الملك الجواد بن الأشرف. على ما سيأتى ذكره [فى] وفاة الأشرف فى هذه السنة.

و فيها اختلفت الخوارزميّة على الملك الصالح أيّوب بن الكامل، و أرادوا القبض عليه فهرب إلى سنجار، و ترك خزائنه و أثقاله، فنهبوا الجميع. و لمّا قدم الصالح سنجار سار إليه بدر الدين لؤلؤ فى ذى القعدة و حصره بها، فأرسل إليه الصالح يسأله الصلح؛ فقال: لا بدّ من حمله فى قفص إلى بغداد، و كان لؤلؤ [و] المشارقة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۰

يكرهونه و ينسبونه إلى التكبّر و الظلم؛ فاحتاج الصالح أن يبعث إلى الخوارزميّة، و هم على حرّان يستنجدهم، فساقوا جريدة من حرّان، و كبسوا لؤلؤا، فنجا وحده، و نهبوا أمواله و خزائنه و جميع ما كان فى عسكره.

و فيها توفّى الملك الأشرف أبو الفتح مظفر الدين موسى شاه أرمن ابن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب، أخو الملك الكامل محمد صاحب الترجمة. و أوّل شىء ملكه الأشرف هذا من القلاع و البلاد الرّها فى أيّام أبيه، و آخر شىء دمشق. و مات بها بعد أن ملك قلاع ديار بكر سنين. و قد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة فى حوادث دولة أخيه الكامل، و فى غزوة دمياط و غير ذلك.

و مولده سنة ثمان و سبعين و خمسمائة بقصر الزّمرّد بالقاهرة قبل أخيه المعظّم عيسى بليلة واحدة، و كان مولدهما بموضع واحد- و قيل: كان بقلعة الكرك- و الأول أشهر. و كان الملك الأشرف ملكا كريما حليما واسع الصدر كريم الأخلاق كثير العطايا، لا يوجد فى خزائنه شىء من المال مع اتّساع مملكته؛ و لا تزال عليه الديون؛ و نظر يوما فى دواة كاتبه و شاعره كمال الدين علىّ بن النّبيه المصرىّ فرأى بها قلما واحدا فأنكر عليه، فأنشد الكمال بديها دو بيت:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۱

قال الملك الأشرف قولا رشدا أقلامك يا كمال قلّت عددا

جاوبت لعظم كتب ما تطلقه تحفى فتقطّ فهى تفنى أبدا

و لكمال الدين ابن النبيه المذكور فيه غرر المدائح معروفة بمخالص قصائده فى ديوانه، و تسمّى الأشرفيّات. و كانت وفاة الأشرف فى يوم الخميس رابع المحرّم بدمشق، و دفن بقلعتها؛ ثم نقل بعد مدّة إلى التربة التى أنشئت له بالكلّاسة فى الجانب الشمالى من جامع دمشق.

و فيها توفّى يحيى بن هبة اللّه بن الحسن القاضى شمس الدين أبو البركات بن سناء الدولة، كان إماما فقيها فاضلا حافظا للقوانين الشرعيّة، ولى القضاء بالبيت المقدّس ثمّ بدمشق، و كان الملك الأشرف موسى يحبّه و يثنى عليه. و مات فى ذى القعدة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الأنجب بن أبى السعادات الحمّامى فى شهر ربيع الآخر، و له نيّف و ثمانون

سنة. و أبو محمد الحسين بن علىّ بن الحسين بن رئيس الرؤساء فى رجب. و قاضى حلب زين الدّين أبو محمد عبد اللّه بن عبد الرحمن بن عبد اللّه بن علوان الأسدىّ ابن الأستاذ. و أبو المنجّا عبد اللّه بن عمر بن علىّ بن اللّتّى القزّاز فى جمادى الأولى، و له تسعون سنة.

و أبو طالب علىّ بن عبد اللّه بن مظفّر ابن الوزير علىّ بن طرّاد الزّينبىّ فى رمضان.

و الرّضى عبد الرحمن بن محمد بن عبد الجبّار المقدسىّ المقرئ. و شيخ الشيوخ صدر الدين عبد الرزّاق بن عبد الوهّاب [بن علىّ بن علىّ] بن سكينة فى جمادى الأولى. و السلطان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۲

الملك الكامل ناصر الدين محمد بن العادل فى رجب بدمشق، و له ستون سنة. و أبو بكر محمد بن مسعود بن بهروز الطبيب فى شهر رمضان، و قد نيّف على التسعين، و هو آخر من حدّث ببغداد عن أبى الوقت. و شرف الدين محمد بن نصر المقدسىّ ابن أخى الشيخ أبى البيان فى رجب. و القاضى شمس الدين أبو نصر محمد بن هبة اللّه بن محمد ابن الشّيرازىّ فى جمادى الآخرة، و له ستّ و ثمانون سنة. و خطيب دمشق جمال الدين محمد بن أبى الفضل الدّولعىّ فى جمادى الأولى، و دفن بمدرسته بجيرون، و له ثمانون سنة. و نجم الدين مكرّم بن محمد بن حمزة بن أبى الصّقر القرشىّ السفّار فى رجب، و له سبع و ثمانون سنة. و السلطان الملك الأشرف مظفّر الدين موسى بن العادل فى المحرّم، و له تسع و خمسون سنة. و قاضى القضاة شمس الدين يحيى بن هبة اللّه بن سناء الدولة فى ذى القعدة، و له ثلاث و ثمانون سنة، و هو من تلامذة القطب النّيسابورىّ. و الشهاب يوسف بن إسماعيل الحلبىّ بن الشّوّاء الشاعر المشهور.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و نصف إصبع.

مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا سواء.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۳

ذكر سلطنة الملك العادل الصغير على مصر

هو السلطان الملك العادل أبو بكر ابن السلطان الملك الكامل محمد ابن السلطان الملك العادل أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب الأيوبىّ المصرىّ. و سبب تسلطنه و تقدّمه على أخيه الأكبر نجم الدين أيّوب أنّه لمّا مات أبوه الملك الكامل محمد بقلعة دمشق فى رجب- حسب ما ذكرناه فى أواخر ترجمته- كان ابنه الملك الصالح نجم الدين أيوب- و هو الأكبر- نائب أبيه الملك الكامل على الشرق و إقليم ديار بكر، و كان ابنه الملك العادل أبو بكر هذا- و هو الأصغر- نائب أبيه بديار مصر؛ فلمّا مات الكامل قعد الأمراء يشتورون فيمن يولّون من أولاده فوقع الاتفاق بعد اختلاف كبير- نذكره من قول صاحب المرآة- على إقامة العادل هذا فى سلطنة مصر و الشام، و أن يكون نائبه بدمشق ابن عمّه الملك الجواد يونس، و أن يكون أخوه الملك الصالح نجم الدين أيّوب على ممالك الشرق على حاله، فتم ذلك و تسلطن الملك العادل هذا فى أواخر سنة خمس و ثلاثين و ستمائة، و تمّ أمره و نعت بالعادل سيف الدين على لقب جدّه. و مولد العادل هذا بالمنصورة، و والده الملك الكامل على قتال الفرنج بدمياط فى ذى الحجّة سنة سبع عشرة و ستمائة.

و قال العلّامة شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى مرآة الزمان: «ذكر ما جرى بعد وفاة الملك الكامل، اجتمع الأمراء و فيهم سيف الدين [علىّ] بن قليج، و عزّ الدّين أيبك، و الركن الهيجاوى، و عماد الدين و فخر الدين ابنا الشيخ، و تشاوروا و انفصلوا على غير شىء؛ و كان الناصر داود (يعنى ابن الملك المعظّم عيسى) بدار أسامة، [فجاءه] الهيجاوىّ؛ و أرسل إليه عزّ الدين أيبك يقول: أخرج

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۴

المـال و فرّقه فى مماليـك أبيـك المعظّم و العوامّ معك، و تملّك البلـد و يبقوا فى القلعـة محصورين فما اتّفق ذلك؛ و أصـبحوا يوم الجمعـة فى القلعة فحضـر من سـمّينا [بالأمس]، و ذكروا الناصـر و الجواد- قلت: و الناصـر داود هو ابن المعظم عيسـى، و الجواد مظفّر الدين يونس هو ابن شمس الدين مودود بن العادل (أعنى هما أولاد عمّ).

انتهى- قال: و كان أضـرّ ما على الناصـر عماد الدين ابن الشـيخ، لأنّه كان يجرى فى مجالس الكامل مباحثات فيخطئه فيها و يسـتجهله فبقى فى قلبه، و كان أخوه فخر الدين يميل إلى الناصـر؛ فأشار عماد الدين بالجواد، و وافقوا أمره، و أرسـلوا الهيجاوىّ فى يوم الجمعة إلى الناصـر، و هو فى دار أسامـة، فـدخل عليه و قال له: إيش قعودك فى بلد القوم؟ قم فاخرج، فقام و ركب [و جميع من فى دمشـق من دار أسامـة إلى القلعة] و ما شكّ أحد أنّ الناصـر لمّا ركب من دار أسامة إلّا أنّه طالع إلى القلعة، فلمّا تعدّى مدرسة العماد الكاتب و خرج من بـاب الـدّرب عرج إلى بـاب الفرج، فصاحت العامّـة لا لا [لا]؛ و انقلبت دمشق و خرج الناصـر من باب الفرج إلى القابون، فوقع بهاء الدين بن ملكيشوا و غلمانه فى الناس بالدبابيس، فأنكوا فيهم فهربوا.

و أمّا الجواد فإنّه فتـح الخزائن و أخرج المال و فرّق سـتة آلاف ألف دينار، و خلع خمسـة آلاف خلعة، و أبطل المكوس و الخمور، و نفى الخواطىء. و أقام الناصـر بالقابون أيّاما، فعزموا على قبضه، فرحل و بات بقصر أمّ حكيم، و خرج خلفه أيبك الأشرفىّ ليمسكه، و عرف عماد الدّين بن موسك فبعث إليه فى السرّ، فسار فى الليل إلى عجلون، و وصل أيبك إلى قصر أمّ حكيم، و عاد إلى دمشق.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۵

و سار الناصـر إلى غزّة، فاسـتولى على الساحل؛ فخرج إليه الجواد فى عسكر مصر و الشام، و قال للأشرفيّة: كاتبوه و أطمعوه فكاتبوه و أطمعـوه فـاغترّ بهم، و سـاق من غزّة فى سـبعمائة فـارس إلى نـابلس بأثقـاله و خزائنه و أمواله، و كـانت على سـبعمائة جمـل، و ترك العسـاكر منقطعـة خلفه، و ضـرب دهليزه على سبسـطية، و الجواد على جيتين فساقوا عليه و أحاطوا به، فساق فى نفر قليل إلى نابلس، و أخـذوا الجمال بأحمالها و الخزائن و الجواهر و الجنائب و اسـتغنوا غنى الأبـد، و افتقر هو فقرا ما افتقره أحد؛ و وقع عماد الدين بسـقط صغير فيه اثنتا عشـرة قطعـة من الجوهر و فصوص ليس لها قيمـة؛ فـدخل على الجواد فطلبه منه فأعطاه إيّاه. و سار الناصـر لا يلوى على شىء إلى الكرك. ثم وقع له أمور نذكر بعضها فى حوادث العادل و الصالح و غيرهما». انتهى.

و لمّا تمّ أمر العادل و تسـلطن بمصـر و اسـتقرّ الجواد بـدمشق على أنّه نائب العادل، و بلغ هـذا الخبر الملك الصالـح نجم الدين أيّوب عظم عليه ذلـك، كونه كـان هو الأـكبر، فقصـد الشـام بعـد أمور وقعت له مع الخوارزميّـة و مع لؤلؤ صاحب الموصل؛ ثم سار الملك الصالح بعساكر الشـرق حتّى وافى دمشق و دخلها فى جمادى الآخرة سنة ست و ثلاثين و ستمائة، فخرج إليه الملك الجواد و التقاه؛ و اتّفق معه على مقايضـة دمشق بسـنجار و عانة، و سـببه [ضـيق] عطن الجواد، [و عجزه عن القيام بمملكة الشام] فإنّه كان يظهر أنّه نائب العادل بـدمشق فى مـدّة إقامته، ثم خاف الجواد أيضا من العادل، و ظنّ أنّه يأخـذ دمشق منه، فخرج الجواد إلى البرّيّـة و كاتب الملك الصالح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۶

المذكور حتّى حضـر، فلمّا حضـر استانس به و قايضه و دخلا دمشق، و مشى الجواد بين يدى الصالح و حمل الغاشية من تحت القلعة، ثمّ حملها بعـده الملك المظفّر صاحب حماة من باب الحديـد، و نزل الملك الصالح أيّوب بقلعة دمشق، و الجواد فى دار فرخشاه؛ ثم نـدم الجواد على مقايضـة دمشق بسـنجار، و اسـتدعى المقدّمين و الجند و اسـتحلفهم، و جمع الصالح أصـحابه عنده فى القلعة، و أراد الصالح أن يرحق دار فرخشاه، فدخل ابن جرير فى الوسط و أصـلح الحال. ثم خرج الجواد إلى النّيرب، و اجتمع الخلق عند باب النصر يـدعون عليه و يسـبّونه فى وجهه، و كان قـد أساء السّـيرة فى أهل دمشق. ثم خرج الصالح من دمشق و توجّه إلى خربة اللّصوص على عزم الـديار المصـريّة، فكاتب عمّه صاحب بعلبكّ الملك الصالـح إسـماعيل بن العادل، و سار الملك الصالـح نجم الدين إلى نابلس فاسـتولى عليهـا و على بلاـد الناصـر داود؛ فتوجّه الناصـر داود إلى مصـر داخلاـ فى طاعـة الملك العادل، فأكرمه العادل و أقام الصالح

بنابلس ينتظر مجيء عمّه الصالح إسماعيل، فلم يلتفت الملك الصالح إسماعيل إلى ابن أخيه الصالح نجم الدين أيّوب هذا؛ و توجّه نحو دمشق و هجم عليها و معه أسد الدين شيركوه صاحب حمص فدخلوها يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر من سنة سبع و ثلاثين؛ كلّ ذلك و الصالح نجم الدين مقيم بنابلس؛ و اتّفق الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ، و أسد الدين شيركوه صاحب حمص على أن تكون البلاد بينهما مناصفة.

و نزل الصالح إسماعيل فى دمشق بداره بدرب الشعّارين، و نزل صاحب جمص بداره

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۷

أيضا، و أصبحوا يوم الأربعاء فزحفوا على القلعة و نقبوها من ناحية باب الفرج، و هتكوا حرمتها و دخلوها، و بها الملك المغيث عمر بن الملك الصالح أيّوب، فآعتقله الصالح إسماعيل فى برج، و استولى على جميع ما فى القلعة. و بلغ الملك الصالح نجم الدين أيّوب ما جرى، و قيل له فى العود إلى دمشق، فخلع الصالح أيّوب على عمّيه مجير الدين و تقيّ الدين و على غيرهم، و أعطاهم الأموال و قال لهم: ما الرأى؟

قالوا: نسوق إلى دمشق قبل أن تؤخذ القلعة. فخرجوا من نابلس فنزلوا القصير فبلغهم أخذ القلعة، فنفر بنو أيّوب بأسرهم و خافوا على أولادهم و أهليهم بدمشق، و كان الفساد قد لعب فيهم، فتركوا الصالح أيّوب و توجّهوا إلى دمشق؛ و بقى الصالح فى مماليكه و غلمانه لا غير، و معه جاريته شجرة الدّرّ أمّ خليل؛ فرحل من القصير يريد نابلس فطمع فيه أهل الغور و القبائل، و كان مقدّمهم شيخا جاهلا- يقال له مسبل من أهل بيسان قد سفك الدماء، فتقاتل عسكر الصالح معه حتّى كسروه؛ ثم اتّفق بعد ذلك مجيء الملك الناصر داود من مصر بغير رضا من الملك العادل صاحب مصر و وصل إلى الكرك؛ و كتب الوزيريّ إلى الناصر يخبره الخبر، فلمّا بلغ الناصر ذلك أرسل عماد الدين بن موسك و الظّهير بن سنقر الحلبيّ فى ثلثمائة فارس إلى نابلس. فركب الصالح أيّوب و التقاهم فخدموه و سلّموا عليه بالسلطنة، و قالوا له:

طيّب قلبك، إلى بيتك جئت، فقال الصالح: لا ينظر ابن عمّى فيما فعلت، فلا زال الملوك على هذا؛ و قد جئت إليه أستجير به، فقالوا: قد أجارك و ما عليك بأس؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۸

و أقاموا عنده أيّاما حول الدار. فلمّا كان فى بعض الليالى ضربوا بوق النّفير و قالوا: جاءت الفرنج، فركب الناس و مماليك الصالح و وصلوا إلى سبسطية، و جاء عماد الدين و الظهير بالعسكر إلى الدار، و قالوا للصالح: تطلع إلى الكرك، فإنّ ابن عمّك له بك اجتماع، و أخذ سيفه. و كانت شجرة الدّرّ حاملا فسقطت، و أخذوه و توجّهوا به إلى الكرك. و استفحل أمر أخيه الملك العادل صاحب مصر بالقبض على الصالح هذا، و أخذ و أعطى و أمر و نهى، فتغيّر عليه بعض أمراء مصر، و لكن ما أمكنهم يومئذ إلّا السّكات.

و أمّا الصالح، قال أبو المظفّر: و لمّا اجتمعت به (يعنى الصالح) فى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة بالقاهرة حكى لى صورة الحال قال: أركبونى بغلة بغير مهماز و لا مقرعة، و ساروا إلى الموتة فى ثلاثة أيام، و اللّه ما كلّمت أحدا منهم كلمة، و لا أكلت لهم طعاما حتى جاءنى خطيب الموتة و معه بردة عليها دجاجة، فأكلت منها و أقاموا بى فى الموتة يومين و ما أعلم إيش كان المقصود، فإذا بهم يريدون [أن] يأخذوا طالعا نحسا يقتضى ألّا أخرج من حبس الكرك، ثم أدخلونى إلى الكرك ليلا- على الطالع الذى كان سبب سعادتى و نحوسهم.

قلت: و أنا ممّن ينكر على أرباب التقاويم أفعالهم و أقوالهم لأنّى من عمرى أصحب أعيانهم فلم أر لما يقولونه صحّة، بل الكذب الصريح المحض، و يعجبنى قول الإمام الرّبانىّ عبد المؤمن بن هبة اللّه الجرجانى فى كتابه «أطباق الذهب» الذى يشتمل على مائة مقالة [و اثنتين]، و الذى أعجبنى من ذلك هى المقالة الثالثة و العشرون،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۰۹

و هى ممّا نحن فيه من علم الفلك و النجوم، قال: «أهل التسبيح و التقديس، لا يؤمنون بالتربيع و التسديس؛ و الإنسان بعد علوّ النفس، يجلّ عن ملاحظة السعد و النحس؛ و إنّ فى الدين القويم، استغناء عن الزيج و التقويم؛ و الإيمان بالكهانة، باب من أبواب المهانة؛ فأعرض عن الفلاسفة، و غضّ بصرك عن تلك الوجوه الكاسفة، فأكثرهم عبدة الطبع، و حرسة الكواكب السبع؛ ما للمنجم الغبىّ، و العلم الغيبىّ، [و ما للكاهن الأجنبىّ]، و سرّ حجب عن النّبىّ؛ و هل ينخدع بالفال، إلّا قلوب الأطفال؛ و إنّ امرأ جهل حال قومه، و ما الذى يجرى عليه فى يومه؛ كيف يعرف علم الغد و بعده، و نحس الفلك و سعده! و إنّ قوما يأكلون من قرصة الشمس لمهزولون، و إنهم عن السمع لمعزولون؛ ما السماوات إلّا مجاهل خالية، و الكواكب صواها، و النجوم إلّا هياكل عالية، و من اللّه قواها؛ سبعة سيّرة نيّرة، خمسة منها متحيّرة، شرّارة و خيّرة طباعها متغايرة؛ كلّ يسرى لأمر معمّى، و كلّ يجرى لأجل مسمّى!» انتهت المقالة بتمامها و كمالها. و قد خرجنا بذكرها عن المقصود، و لنرجع إلى ما نحن فيه من ترجمة العادل و أخبار أخيه الصالح.

قال: و وكّلوا بى مملوكا لهم، [فظّا غليظا] يقال له: زريق، و كان أضرّ علىّ من كلّ ما جرى، فأقمت عندهم إلى شهر رمضان سبعة أشهر، و لقد كان عندى خادم صغير فاتّفق أن أكل ليلة كثيرا فاتّخم وبال على البساط، فأخذت البساط بيدى و الخادم، و قمت من الإيوان إلى قرب الدّهليز، و فى الدهليز ثمانون رجلا يحفظوننى، و قلت: يا مقدّمون، هذا الخادم قد أتلف هذا البساط، فاذهبوا به إلى الوادى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۰

و اغسلوه فنفر فىّ زريق، و قال: إيش جاء بك إلى هاهنا! و صاحوا علىّ فعدت إلى موضعى. انتهى.

قلت: و أمّا مماليكه و خزائنه فإنّ الوزيرىّ توجّه بهم إلى قلعة الصّلت. و أقام مماليكه بنابلس، و استمرّ الحال على ذلك إلى أن بلغ الملك العادل صاحب الترجمة ما جرى على أخيه الصالح، فأظهر الفرح و دقّت الكوسات و زيّنت القاهرة؛ ثم أرسل الملك العادل المذكور العلاء بن النّابلسىّ إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، يطلب الملك الصالح نجم الدين المذكور منه، و يعطيه مائة ألف دينار فما أجاب. ثم كاتبه الملك الصالح صاحب بعلبك، و صاحب حمص أسد الدين شيركوه فى إرساله إلى الملك العادل إلى مصر؛ كلّ ذلك و العادل فى قلق من جهة الصالح، فلم يلتفت الملك الناصر داود لكلامهم؛ و أقام الصالح مدّة فى الحبس حتّى أشار عماد الدين و ابن قليج و الظّهير على الملك الناصر بالاتّفاق مع الصالح نجم الدين أيّوب و إخراجه، فأخرجه الناصر و تحالفا و اتّفقا، و ذلك فى آخر شهر رمضان، و كان تحليف الناصر داود للصالح أيّوب على شىء ما يقوم به أحد من الملوك، و هو أنّه يأخذ له دمشق و حمص و حماة و حلب و الجزيرة و الموصل و ديار بكر و نصف ديار مصر و نصف ما فى الخزائن من المال و الجواهر و الخيل و الثياب و غيرها، فحلف الصالح على هذا كلّه و هو تحت القهر و اليف. و لمّا علم الملك العادل صاحب الترجمة بخلاص أخيه الصالح اتّفق مع عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ الذى ملك دمشق؛ فسار الملك العادل من مصر و الملك الصالح من

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۱

دمشق و معه أسد الدين صاحب حمص، ثم عزموا على قصد الناصر و الصالح؛ فأوّل من برز لهم الملك العادل صاحب الترجمة بعساكر مصر، و خرج و سار حتى وصل إلى بلبيس؛ و كان قد أساء السّيرة فى أمرائه و حواشيه، فوقع الخلف بينهم و تزايد الأمر حتى قبضوا عليه، و أرسلوا إلى الصالح نجم الدين أيّوب يعرّفونه و يسألونه الإسراع فى المجىء إلى الديار المصريّة. فسار و معه الملك الناصر داود صاحب الكرك و جماعة من أمرائه ابن موسك و غيره، فكان وصول الصالح إلى بلبيس فى يوم الأحد رابع عشرين ذى القعدة، فنزل فى خيمة العادل، و العادل معتقل فى خركاه. قال أبو المظفّر: حكى لى الصالح واقعات جرت له فى مسيره إلى مصر [منها] أنّه قال: ما قصدت بمجىء الناصر معى إلّا خوفا أن تكون معمولة علىّ، و منذ فارقنا غزّة تغيّر علىّ، و لا شكّ أنّ بعض أعدائى أطمعه فى الملك، فذكر لى جماعة من مماليكى أنّه تحدّث معهم فى قتلى. قال: و منها أنّه لما أخرجنى (يعنى الناصر) ندم و عزم

على حبسى، فرميت روحى على ابن قليج، فقال:

ما كان قصده إلّا أن يتوجّه إلى دمشق أوّلا فإذا أخذنا دمشق عدنا إلى مصر.

قال: و منها أنّه ليلة وصل إلى بلبيس شرب و شطح إلى العادل، فخرج له من الخركاه فقبّل الأرض بين يديه، فقال له: كيف رأيت ما أشرت عليك و لم تقبل منى! فقال: يا خوند، التوبة، فقال: طيّب قلبك، الساعة أطلقك، و جاء فدخل علينا الخيمة و وقف، فقلت: باسم اللّه اجلس، فقال: ما أجلس حتى تطلق العادل، فقلت: اقعد، و هو يكرّر الحديث؛ ثم سكت و نام فما صدّقت بنومه و قمت فى باقى اللّيل، فأخذت العادل فى محفة و رحلت به إلى القاهرة. و لمّا دخلنا القاهرة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۲

بعثت إليه بعشرين ألف دينار، فعادت إلىّ مع غلمانى، و غضب و أرد نصف ما فى خزائن مصر.

قلت: و استولى الصالح على ملك مصر و قبض على أخيه العادل صاحب الترجمة فى يوم الاثنين خامس عشرين ذى الحجّة و حبسه عنده بالقلعة سنين.

قال سعد الدين مسعود بن حمّويه: و فى خامس شوّال سنة ستّ و أربعين و ستمائة جهّز الصالح أخاه أبا بكر العادل و نفاه إلى الشّوبك، و بعث إليه الخادم محسنا يكلّمه فى السفر، فدخل عليه الحبس و قال له: السلطان يقول لك: لا بدّ من رواحك إلى الشّوبك، فقال: إن أردتم أن تقتلونى فى الشوبك فهاهنا أولى و لا أروح أبدا، فعذله محسن، فرماه بدواة كانت عنده، فخرج و عرّف الصالح أيّوب بقوله، فقال: دبّر أمره، فأخذ المحسن ثلاث مماليك و دخلوا عليه ليلة الاثنين ثانى عشر شوّال فخنقوه بشاش و علّقوه به، و أظهروا أنه شنق نفسه و أخرجوا جنازته مثل بعض الغرباء، و لم يتجاسر أحد أن يترحّم عليه أو يبكى حول نعشه، و عاش بعده الملك الصالح عشرة أشهر رأى فى نفسه العبر من مرض تمادى به و ما نفعه الاحتراز كما سيأتى ذكره فى ترجمته. إن شاء اللّه تعالى.

و زاد ابن خلّكان فى وفاته بأن قال: و دفن فى تربة شمس الدولة خارج باب النصر- رحمه اللّه تعالى-.

و كان للعادل المذكور ولد صغير يقال له الملك المغيث مقيم بالقلعة فلا زال بها إلى أن وصل ابن عمّه الملك المعظم توران شاه بعد موت أبيه الصالح نجم الدين إلى المنصورة، و سيّر المغيث المذكور من هناك و نقله إلى الشّوبك؛ فلمّا جرت الكائنة على المعظّم ملك المغيث الكرك و تلك النواحى. قلت: و كانت ولاية الملك العادل

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۳

على مصر سنة واحدة و نحو شهرين و أيّاما مع ما وقع له فيها من الفتن و الأنكاد، و لم يعرف حاله فيها لصغر سنه و قصر مدّته- رحمه اللّه تعالى- و العادل هذا يعرف بالعادل الصغير، و العادل الكبير هو جدّه.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۶]

السنة الأولى من ولاية الملك العادل الصغير أبى بكر ابن الملك الكامل محمد على مصر، و هى سنة ست و ثلاثين و ستمائة. على أنّه ولى السلطنة فى شهر رجب منها.

فيها توفّى محمود بن أحمد الشيخ الإمام العلّامة جمال الدين الحصيرىّ الحنفىّ، أصله من بخارى من قرية يقال لها حصير، و تفقّه فى بلده و سمع الحديث و برع فى علوم كثيرة، و قدم الشام و درّس بالنوريّة؛ و انتهت إليه رياسة الحنفيّة فى زمانه، و صنّف الكتب الحسان، و شرح «الجامع الكبير»، و قرأ عليه الملك المعظّم عيسى الجامع الكبير و غيره. و كان كثير الصدقات غزير الدّمعة، عاقلا ديّنا نزها عفيفا وقورا، و كان المعظّم يحترمه و يجلّه. و كانت وفاته فى يوم الأحد ثامن صفر، و دفن بمقابر الصوفيّة عند المنيبع، و مات و له تسعون سنة.

و فيها توفّى عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ محمد المنعوت بالصاحب، و هو الذى كان السبب فى عطاء دمشق الجواد، فلمّا مضى إلى مصر لامه العادل على ذلك و تهدّده، فقال: أنا أمضى إلى دمشق، و أنزل بالقلعة و أبعث بالجواد إليك، و إن امتنع قمنا عليه؛ فسار إلى دمشق فوصلها قبل مجيء الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و نزل بقلعة دمشق و أمر و نهى، و قال: أنا نائب العادل، و أمر الجواد بالمسير

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۴

إلى مصر. و كان أسد الدين صاحب حمص بدمشق، فاتّفق مع الجواد على قتل عماد الدين، فآستدعى صاحب حمص بعض نصارى قارة و أمره بقتله، فركب ابن الشيخ يوما من القلعة بعد العصر فوثب عليه النّصرانىّ و ضربه بالسكاكين حتّى قتله؛ و ذلك فى جمادى الأولى. و دخل الصالح أيّوب دمشق فحبس النّصرانىّ أياما ثم أطلقه، و مات عماد الدين و له ستّ و خمسون سنة.

و فيها توفّى الحافظ زكىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف البرزالىّ الإشبيلىّ بحماة فى رابع عشرين شهر رمضان و دفن بها، و كان إماما فقيها محدّثا فاضلا ديّنا- رحمه اللّه-

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو العباس أحمد بن علىّ القسطلانىّ المالكىّ بمكّة. و صاحب ماردين ناصر الدين أرتق الأرتقىّ.

و أبو المعالى أسعد بن المسلم بن مكّىّ بن علّان القيسىّ فى رجب، و له ست و تسعون سنة. و المحدّث بدل بن أبى المعمّر التّبريزىّ فى جمادى الأولى. و أبو الفضل جعفر بن علىّ بن هبة اللّه الهمذانىّ المالكىّ المقرئ فى صفر، و له تسعون سنة.

و العلّامة جمال الدين أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد المجيد بن إسماعيل [بن عثمان ابن يوسف بن حسين] بن حفص الصّفراوىّ المالكىّ مفتى الإسكندرية و مقرئها فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و تسعون سنة. و الشيخ عثمان القصير الزاهد. و شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۵

نصيبين عسكر بن عبد الرحيم بن عسكر بن نيّف و سبعين سنة. و الصاحب عماد الدين عمر ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجوينىّ قتيلا بقلعة دمشق.

و أبو الفضل محمد بن محمد بن الحسن بن السّبّاك فى شهر ربيع الآخر. و الحافظ زكىّ الدين أبو عبد اللّه محمد بن يوسف بن البرزالىّ الإشبيلىّ بحماة فى رمضان، و له ستون سنة. و العلّامة جمال الدين محمود بن أحمد بن عبد السيد البخارىّ الحصيرىّ شيخ الحنفية بدمشق فى صفر، و له تسعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و إحدى عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۷]

اشارة

السنة الثانية من ولاية الملك العادل الصغير ابن الملك الكامل على مصر، و هى سنة سبع و ثلاثين و ستمائة.

فيها خلع الملك العادل المذكور من ملك مصر بأخيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب حسب ما تقدّم ذكره.

و فيها هجم الملك الصالح إسماعيل صاحب بعلبكّ على دمشق، و معه أسد الدين شيركوه صاحب حمص و ملكها فى يوم الثلاثاء سابع عشرين صفر.

و فيها توفّى الملك ناصر الدين أرتق صاحب ماردين الأرتقى، كان الملك المعظّم عيسى بن العادل تزوّج أخته، و هى التى بنت

المدرسة و التربة عند الجسر الأبيض بقاسيون، و لم تدفن فيها لأنّها نقلت بعد موت زوجها المعظم إلى عند أبيها بماردين

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۶

فماتت هناك. و كان ناصر الدين المذكور شيخا شجاعا شهما جوادا ما قصده أحد و خيّبه. قتله ولده بماردين خنقا و هو سكران.

و فيها توفّى الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه ابن شادى الأيّوبى صاحب حمص، أعطاه ابن عمّ أبيه السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيّوب حمص بعد وفاة أبيه محمد بن شيركوه فى سنة إحدى و ثمانين، فأقام بها إلى هذه السنة، و حفظ المسلمين من الفرنج و العرب، و مات بحمص فى يوم الثلاثاء العشرين من شهر رجب و دفن بها.

و فيها توفّى يعقوب الخيّاط كان يسكن مغارة الجوع بقاسيون. و كان شيخا صالحا لقى المشايخ و عاصر الرجال و مات بقاسيون- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى قاضى القضاة شمس الدين أحمد بن الخليل الخويّىّ فى شعبان، و له أربع و خمسون سنة.

و أبو البقاء إسماعيل بن محمد بن يحيى المؤدّب راوى مسند إسحاق، فى المحرّم. و الصدر علاء الدين أبو سعد ثابت بن محمد [بن أبى بكر] الخجندى بشيراز، و له تسع و ثمانون سنة. و أمين الدين سالم ابن الحافظ ابن صصرّى فى جمادى الآخرة، و له ستون سنة.

و صاحب حمص الملك المجاهد أسد الدين شيركوه بن شادى فى رجب، و كانت

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۷

دولته ستّا و خمسين سنة. و القاضى أبو بكر عبد المجيد بن عبد الرشيد بن علىّ بن سمّان الهمذانى سبط الحافظ أبى العلّاء فى شوّال عن ثلاث و سبعين سنة.

و أبو القاسم عبد الرحيم بن يوسف بن هبة اللّه بن الطّفيل فى ذى الحجّة. و إمام الرّبوة عبد العزيز بن دلف المقرئ الناسخ فى صفر. و أبو الحسن علىّ بن أحمد الأندلسىّ الحرّانىّ الصوفىّ المفسّر بحماة. و شمس الدين محمد بن الحسن بن محمد بن عبد الكريم الكاتب بدمشق فى رجب. و الحافظ أبو عبد اللّه محمد بن سعيد بن يحيى فى شهر ربيع الآخر، و له تسع و سبعون سنة. و تقىّ الدين محمد بن طرخان السلمىّ الصالحىّ فى المحرّم، و له ستّ و سبعون سنة. و أبو طالب محمد بن عبد اللّه بن عبد الرحمن [بن أحمد ابن علىّ] بن صابر السلمىّ الزاهد فى المحرّم. و المحتسب رشيد الدين أبو الفضل محمد بن عبد الكريم بن الهادى التّنسىّ فى جمادى الآخرة، و له ثمان و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۸

و الصاحب شرف الدّين أبو البركات المبارك بن أحمد المستوفىّ بالموصل فى المحرّم.

و الصاحب ضياء الدّين نصر اللّه بن محمد بن محمد بن عبد الكريم [بن عبد الواحد المعروف با] بن الأثير الشّيبانىّ الجزرىّ الكاتب مؤلّف كتاب «المثل السائر» فى شهر ربيع الآخر، و له نحو من ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ثمانى أصابع.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۱۹

ذكر سلطنة الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر

هو السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن السلطان الملك العادل سيف الدين أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى الأيّوبىّ سلطان الديار المصريّة. و قد تقدّم أنّ الملك الصالح هذا ولى الشرق و ديار

بكر فى أيّام والده الملك الكامل سنين، و ذكرنا أيضا ما وقع له بعد موت الكامل مع أخيه العادل، و مع ابن عمّه الملك الناصر داود و غيرهما فى ترجمة أخيه العادل مفصّلا إلى أن ملك الديار المصريّة فى يوم الاثنين الخامس و العشرين من ذى الحجّة سنة سبع و ثلاثين و ستمائة. و مولده بالقاهرة فى سنة ثلاث و ستّمائة و بها نشأ، و استخلفه أبوه على مصر لمّا توجه إلى الشرق فأقام الصالح هذا بمصر مع صواب الخادم لا أمر له و لا نهى إلى أن عاد أبوه الكامل إلى الديار المصريّة، و أعطاه حصن كيفا فتوجّه إليها، و وقع له بها أمور و وقائع مع ملوك الشرق بتلك البلاد فى حياة والده حتّى مات أبوه، و وقع له ما حكيناه إلى أن ملك مصر؛ و لمّا تمّ أمره بمصر أصلح أمورها و مهّد قواعدها.

قلت: و الملك الصالح هذا هو الذى أنشأ المماليك الأتراك و أمّرهم بديار مصر، و فى هذا المعنى يقول بعضهم:

الصالح المرتضى أيّوب أكثر من ترك بدولته يا شرّ مجلوب

قد آخذ اللّه أيّوبا بفعلته فالناس كلّهم فى ضرّ أيّوب

و قال الحافظ أبو عبد اللّه شمس الدين الذهبىّ فى تاريخه- بعد أن ذكر من مبدأ أمره نبذة إلى أن قال-: «ثم ملك مصر بلا كلفة و اعتقل أخاه، ثم جهّز من أوهم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۰

الناصر بأنّ الصالح فى نيّة القبض عليه، فخاف و غضب فأسرع إلى الكرك. ثم تحقّق الصالح [فساد] نيّات الأشرفيّة، و أنّهم يريدون الوثوب عليه؛ فأخذ فى تفريقهم و القبض عليهم، فبعث مقدّم الأشرفيّة و كبيرهم أيبك الأشقر نائبا على جهة، ثم سيّر من قبض عليه، ثم مسكهم عن بكرة أبيهم و سجنهم؛ و أقبل على شراء المماليك التركو الخطائيّة، و استخدم الأجناد؛ ثم قبض على أكبر الخدّام: شمس الدّين الخاصّ و جوهر النّوبىّ و على جماعة من الأمراء الكامليّة و سجنهم بقلعة صدر بالقرب من ايلة؛ و أخرج فخر الدين ابن الشيخ من سجن العادل فركب ركبة عظيمة، و دعت له الرعيّة لكرمه و حسن سيرته، فلم يعجب الصالح ذلك و تخيّل، فأمره بلزوم بيته.

و استوزر أخاه معين الدين. ثم شرع يؤمّر غلمانه (يعنى مماليكه) فأكثر من ذلك، و أخذ فى بناء قلعة الجزيرة و اتّخذها سكنا، و أنفق عليها أموالا عظيمة، و كانت الجزيرة قبلا متنزّها لوالده، فشيّدها فى ثلاثة أعوام و تحوّل إليها. و أمّا الناصر داود فإنّه اتّفق مع عمّه الصالح إسماعيل و المنصور صاحب حمص فاتّفقوا على الصالح.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۱

و أمّا الخوارزميّة فإنّهم تغلّبوا على عدّة قلاع و عاثوا و خرّبوا البلاد، و كانوا شرّا من التّتار، لا يعفون عن قتل و لا [عن] سبى و لا فى قلوبهم رحمة. و فى سنة إحدى و أربعين وقع الصلح بين الصالحين و صاحب حمص على أن تكون دمشق للصالح إسماعيل؛ و أن يقيم هو و الحلبيّون و الحمصيّون الخطبة فى بلادهم لصاحب مصر، و أن يخرج ولده الملك المغيث من اعتقال الملك الصالح إسماعيل.- و الملك المغيث هو ابن الملك الصالح نجم الدين، كان معتقلا قبل سلطنته فى واقعة جرت.

قلت: (يعنى أنّ الصالح قبض عليه لمّا ملك دمشق بعد خروج الصالح من دمشق قاصدا الديار المصريّة قبل أن يقبض عليه الناصر داود) و قد ذكرنا ذلك كلّه فى ترجمة العادل مفصّلا. قلت: و كذلك أطلق أصحاب الصالح، مثل حسام الدين ابن أبى علىّ، و مجير الدين بن أبى ذكرى، فأطلقهم الملك الصالح إسماعيل-.

و ركب الملك المغيث و بقى يسير و يرجع إلى القلعة، و ردّ على حسام الدين ما أخذ منه.

ثم ساروا إلى مصر، و اتّفق الملوك على عداوة الناصر داود و جهّز الصالح إسماعيل عسكرا يحاصرون عجلون و هى للناصر، و خطب لصاحب مصر فى بلاده، [و بقى عنده المغيث حتّى تأتيه نسخ الأيمان، ثم بطل ذلك كلّه]. و قال ابن واصل:

فحدّثنى جلال الدين الخلاطىّ قال:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۲

كنت رسولا- من جهة الصالح إسماعيل، فورد علىّ منه كتاب و فى طيّه: كتاب من الصالح نجم الدين إلى الخوارزمية يحثّهم على الحركة و يعلمهم [أنّه] إنّما صالح عمّه الصالح ليخلّص ابنه المغيث من يده، و أنّه باق على عداوته، و لا بدّ له من أخذ دمشق منه، فمضيت بهذا الكتاب إلى الصاحب معين [الدين] فأوقفته عليه، فما أبدى عنه عذرا يسوغ. و ردّ الصالح إسماعيل المغيث بن الصالح نجم الدين إلى الاعتقال، و قطع الخطبة و ردّ عسكره عن عجلون و أرسل إلى الناصر داود و اتّفق معه على عداوة صاحب مصر؛ و كذلك رجع صاحب حلب و صاحب حمص عنه، و صاروا كلمة واحدة عليه، و اعتقلت رسلهم بمصر؛ و اعتضد صاحب دمشق بالفرنج، و سلّم إليهم القدس و طبريّة و عسقلان، و تجهّز صاحب [مصر] الملك الصالح هذا لقتالهم، و جهّز البعوث و جاءته الخوارزمية فساقوا إلى غزّة و اجتمعوا بالمصريّين، و عليهم ركن الدين بيبرس البندقداريّ الصالحىّ. قلت: و بيبرس هذا هو غير بيبرس البندقداريّ الظاهرىّ، و إنّما هذا أيضا على اسمه و شهرته، و هذا أكبر من الظاهر بيبرس [و أقدم]، و قبض عليه الملك الصالح بعد ذلك و أعدمه. انتهى.

قال ابن واصل: و تسلّم الفرنج حرم القدس و غيره، و عمّروا قلعتى طبريّة و عسقلان و حصّنوهما، و وعدهم الصالح إسماعيل بأنّه إذا ملك مصر أعطاهم بعضها، فتجمّعوا و حشدوا و سارت عساكر الشام إلى غزة، و مضى المنصور صاحب حمص بنفسه إلى عكّا و طلبها فأجابوه. قال: و سافرت أنا إلى مصر و دخلت القدس، فرأيت الرّهبان على الصخرة و عليها قنانى الخمر، و رأيت الجرس

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۳

فى المسجد الأقصى، و أبطل الأذان بالحرم و أعلن الكفر. و قدم- و أنا بالقدس- الناصر داود إلى القدس فنزل بغربيّه.

و فيها ولّى الصالح نجم الدين قضاء مصر للأفضل بعد أن عزل ابن عبد السلام نفسه بمديدة. و لمّا عدّت الخوارزميّة الفرات، و كانوا أكثر من عشرة آلاف ما مرّوا بشىء إلّا نهبوه و تقهقر الذين بغزّة منهم، و طلع الناصر إلى الكرك و هربت الفرنج من القدس، فهجمت الخوارزميّة القدس و قتلوا من به من النصارى، و هدموا مقبرة القمامة، و جمعوا بها عظام الموتى فحرقوها، و نزلوا بغزّة و راسلوا صاحب مصر (يعنى الملك الصالح هذا) فبعث إليهم بالخلع و الأموال و جاءتهم العساكر، و سار الأمير حسام الدين بن أبى علىّ بعسكر ليكون مركزا بنابلس، و تقدّم المنصور إبراهيم على الشاميّين (يعنى لقتال المصريّين) و كان شهما شجاعا قد انتصر على الخوارزميّة غير مرّة، و سار بهم و رافقته الفرنج من عكّا و غيرها بالفارس و الراجل، و نفّذ الناصر داود عسكرا فوقع المصافّ بظاهر غزّة، فانكسر المنصور إبراهيم شرّ كسرة. و أخذت سيوف المسلمين الفرنج فأفنوهم قتلا و أسرا، و لم يفلت منهم إلّا الشارد، و أسر أيضا من عسكر دمشق و الكرك جماعة من المقدّمين.

قال ابن واصل: حكى لى عن المنصور أنّه قال: و اللّه لقد قصّرت ذلك اليوم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۴

و وقع فى قلبى أنّه لا ننتصر لانتصارنا بالفرنج- قلت: عليه من اللّه ما يستحقّه من الخزى. و إيش يفيد تقصيره بعد أن صار هو و الفرنج يدا واحدة على المسلمين!- قال: و وصلت عسكر دمشق معه فى أسوأ حال.

و أمّا مصر فزيّنت زينة لم ير مثلها، و ضربت البشائر و دخلت أسارى الشام الفرنج و الأمراء، و كان يوما مشهودا بالقاهرة. ثم عطف حسام الدين بن أبى علىّ، و ركن الدين بيبرس فنازلوا عسقلان و حاصروها و بها الفرنج الذين تسلّموها فجرح حسام الدين، ثم ترحّلوا إلى نابلس، و حكموا على فلسطين و الأغوار إلا عجلون فهى بيد سيف الدين [بن] قليج نيابة عن الناصر داود. ثم بعث السلطان الملك الصالح نجم الدين وزيره معين الدين ابن الشيخ على جيشه و أقامه مقام نفسه، و أنفذ معه الخزائن و حكّمه فى الأمور، و سار إلى الشام و معه الخوارزميّة، فنازلوا دمشق و بها الصالح إسماعيل و المنصور صاحب حمص؛ فذلّ الصالح إسماعيل، و بعث وزيره أمين الدولة مستشفعا بالخليفة ليصلح بينه و بين ابن أخيه الملك الصالح نجم الدين، فلم يظفر بطائل، و رجع و اشتدّ الحصار على

دمشق، و أخذت بالأمان لقلّة من مع صاحبها، و لعدم الميرة بالقلعة، و لتخلّى الحلبيّين عنه، فترحّل الصالح إسماعيل إلى بعلبكّ، و المنصور إلى حمص، و تسلّم الصاحب معين الدين القلعة و البلد.

و لمّا رأت الخوارزميّة أنّ السلطان قد تملّك الشام بهم و هزم أعداءه صار لهم عليه إدلال كثير، مع ما تقدّم من نصرهم له على صاحب الموصل قبل سلطنته و هو بسنجار، فطمعوا فى الأخباز العظيمة؛ فلمّا لم يحصلوا على شىء فسدت نيتهم له و خرجوا عليه، و كاتبوا الأمير ركن الدين بيبرس البندقدارىّ، و هو أكبر أمراء الصالح نجم الدين أيّوب، و كان بغزّة، فأصغى إليهم- فيما قيل- و راسلوا صاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۵

الكرك فنزل إليهم [و وافقهم]. و كانت أمّه [أيضا] خوارزميّة و تزوّج منهم، ثم طلع إلى الكرك و استولى حينئذ على القدس و نابلس [و تلك الناحية]، و هرب منه نوّاب صاحب مصر، ثم راسلت الخوارزمية الملك الصالح إسماعيل و هو فى بعلبكّ و حلفوا له فسار إليهم، و اتّفقت كلمة الجميع على حرب الصالح صاحب مصر، فقلق الصالح لذلك و طلب ركن الدين بيبرس فقدم مصر فاعتقله. و كان آخر العهد به، ثم خرج بعساكره فخيم بالعبّاسة و كان قد نفذّ رسوله إلى الخليفة المستعصم يطلب تقليدا بمصر و الشام [و الشرق]، فجاءه التشريف و الطّوق الذهب و المركوب، فلبس التشريف الأسود و العمامة و الجبّة، و ركب الفرس بالحلية الكاملة، و كان يوما مشهودا؛ ثم جاء الصالح إسماعيل و الخوارزميّة و نازلوا دمشق و ليس بها كبير عسكر، و بالقلعة الطّواشى رشيد، و بالبلد نائبها حسام الدين بن أبى علىّ الهذبانى، فضبطها و قام بحفظها بنفسه ليلا و نهارا، و اشتدّ بها الغلاء و هلك أهلها جوعا و وباء.

قال: و بلغنى أنّ رجلا مات فى الحبس فأكلوه؛ كذلك حدّثنى حسام الدين بن أبى علىّ، فعند ذلك اتّفق عسكر حلب و المنصور صاحب حمص على حرب الخوارزميّة و قصدوهم، فتركوا حصار دمشق و ساقوا أيضا يقصدونهم فالتقى الجمعان، و وقع المصافّ فى أوّل سنة أربع و أربعين على القصب، و هى منزلة بريد من حمص من قبليها، فاشتدّ القتال و الصالح إسماعيل مع الخوارزميّة فانكسروا عند ما قتل مقدّمهم حسام الدين بركة خان، و انهزموا و لم تقم لهم بعدها قائمة، و قتل بركة خان مملوك من الحلبيّين و تشتّتت الخوارزميّة، و خدم طائفة منهم بالشام و طائفة بمصر

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۶

و طائفة مع كشلو خان ذهبوا إلى التّتار و خدموا معهم؛ و كفى اللّه شرّهم. و علّق رأس بركة خان على قلعة حلب. و وصل الخبر إلى القاهرة فزيّنت، و حصل الصلح التامّ بين السلطان (يعنى الصالح نجم الدين أيّوب) و بين صاحب حمص و الحلبيّين.

و أمّا الصالح إسماعيل [فإنّه] التجأ إلى ابن أخته الملك الناصر صلاح الدين صاحب حلب. و أما نائب دمشق حسام الدين فإنّه سار إلى بعلبك و حاصرها و بها أولاد الصالح إسماعيل فسلّموها بالأمان؛ ثم أرسلوا إلى مصر تحت الحوطة هم و الوزير أمين الدولة و الأستادار ناصر الدين بن يغمور فاعتقلوا بمصر. و صفت البلاد للملك الصالح. و بقى الملك الناصر داود بالكرك فى حكم المحصور، ثم رضى السلطان على فخر الدين ابن الشيخ و أخرجه من الحبس بعد موت أخيه الوزير معين الدين، و سيّره إلى الشام و استولى على جميع بلاد الناصر داود، و خرّب ضياع الكرك ثم نازلها أياما، و قلّ ما عند الناصر من المال و الذخائر و قلّ ناصره، فعمل قصيدة يعاتب فيها السلطان فيما له عنده من اليد من الذبّ عنه و تمليكه ديار مصر، و هى:

قل للذى قاسمته ملك اليد و نهضت فيه نهضة المستأسد

عاصيت فيه ذوى الحجى من أسرتى و أطعت فيه مكارمى و تودّدى

يا قاطع الرّحم التى صلتى بها كتبت على الفلك الأثير بعسجد

إن كنت تقدح فى صريح مناسبى فأصبر بعزمك للّهيب المرصد

عمّى أبوك و والدى عمّ به يعلو انتسابك كلّ ملك أصيد

صالا و جالا كالأسود ضواريا فارتدّ تيّار الفرات المزيد

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۷

دع سيف مقولى البليغ يدبّ عن أعراضكم بفرنده المتوقّد

فهو الذى قد صاغ تاج فخاركم بمفصّل من لؤلؤ و زبرجد

ثم أخذ يصف نفسه [وجوده و محاسنه و سؤدده] إلى أن قال:

يا محرجى بالقول و اللّه الذى خضعت لعزّته جباه السّجّد

لو لا مقال الهجر منك لما بدا منّى افتخار بالقريض المنشد

إن [كنت] قلت خلاف ما هو شيمتى فالحاكمون بمسمع و بمشهد

و اللّه يا بن العمّ لو لا خيفتى لرميت ثغرك بالعداة المرّد

لكننى ممّن يخاف حرامه ندما يجرّعنى سمام الأسود

فأراك ربّك بالهدى ما ترتجى لنراك تفعل كلّ فعل مرشد

لتعيد وجه الملك طلقا ضاحكا و تردّ شمل البيت غير مبدّد

كى لا ترى الأيام فينا فرصة للخارجين و ضحكة للحسّد

قال: ثم إنّ السلطان طلب الأمير حسام الدين بن أبى علىّ و ولّاه نيابة الديار المصريّة، و استناب على دمشق الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح، ثم قدم الشام و جاء إلى خدمته صاحب حماة الملك المنصور و هو ابن اثنتى عشرة سنة و صاحب حمص [و هو صغير]، فأكرمهما و قرّبهما، و وصل إلى بعلبكّ، ثم ردّ إلى الشام، ثم رجع السلطان و مرض فى الطريق.

قال ابن واصل: حكى لى الأمير حسام الدين قال: لمّا ودّعنى السلطان قال:

إنّى مسافر و أخاف أن يعرض لى موت و أخى العادل بقلعة مصر، فيأخذ البلاد و ما يجرى عليكم منه خير، فإن مرضت و لو أنّه حمّى يوم فأعدمه، فإنّه لا خير فيه؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۸

و ولدى توران شاه لا يصلح للملك، فإن بلغك موتى فلا تسلّم البلاد لأحد من أهلى، بل سلّمها للخليفة. انتهى.

قال: و دخل السلطان مصر، و صرف حسام الدين عن نيابة مصر بجمال الدين ابن يغمور، و بعث الحسام بالمصريّين إلى الشام، فأقاموا [بالصالحيّة] أربعة أشهر.

قال ابن واصل: و أقمت مع حسام الدين هذه المدّة، و كان السلطان فى هذه المدّة و قبلها مقيما بأشمون طنّاح، ثم فى السنة خرج الحلبيّون و عليهم شمس الدين لؤلؤ الأمينىّ، فنازلوا حمص، و معهم الملك الصالح إسماعيل يرجعون إلى رأيه، فحاصرها شهرين و لم ينجدها صاحب مصر؛ و كان السلطان مشغولا بمرض عرض له فى بيضه ثم فتح، و حصل منه ناسور بعسر بول، و حصلت له فى رئته بعض قرحة متلفة، لكنّه عازم على إنجاد صاحب حمص. و لمّا اشتدّ الحصار بالأشرف صاحب حمص اضطرّ إلى أن أذعن بالصلح، و طلب العوض عن حمص تلّ باشر مضافا إلى ما بيده، و هو الرّحبة و تدمر، فتسلمها الأمير شمس الدين لؤلؤ الأمينىّ، و أقام بها نوّابا لصاحب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۲۹

حلب. فلمّا بلغ السلطان أخذ حمص، و هو مريض، غضب و عظم عليه، و ترحّل إلى القاهرة فاستناب بها ابن يغمور و بعث الجيوش إلى الشام لاستنقاذ حمص، و سار السلطان فى محفّة، و ذلك فى سنة ستّ و أربعين و ستمائة؛ فنزل بقلعة دمشق و بعث جيشه فنازلوا حمص و نصبوا عليها المجانيق، منها منجنيق مغربىّ. ذكر الأمير حسام الدين أنّه كان يرمى حجرا زنته مائة و أربعون رطلا بالدمشقىّ؛

و نصب عليها قرابغا اثنى عشر منجنيقا سلطانيّة، و ذلك فى الشتاء. و خرج صاحب حلب بعسكره فنزل بأرض كفر طاب، و دام الحصار إلى أن قدم البادرانىّ للصلح بين صاحب حلب و السلطان، على أن تقرّ حمص بيد صاحب حلب، فوقع الاتّفاق على ذلك؛ و ترحّل السلطان عن حمص لمرض السلطان و لأنّ الفرنج تحرّكوا [و قصدوا مصر]، و ترخّل السلطان إلى الديار المصريّة كذلك و هو فى محفّة.

و كان الناصر صاحب الكرك قد بعث شمس الدين الخسرو شاهى إلى السلطان و هو بدمشق يطلب خبزا بمصر و الشّوبك و ينزل له عن الكرك، فبعث السلطان تاج الدين [ابن] مهاجر فى إبرام ذلك إلى الناصر، فرجع عن ذلك لمّا سمع حركة الفرنج؛ و طلب السلطان نائب مصر جمال الدين بن يغمور فاستنابه بدمشق و بعث على نيابة مصر حسام الدين بن أبى علىّ فدخلها فى المحرّم سنة سبع و أربعين؛ و سار السلطان فنزل بأشموم طنّاح ليكون فى مقابلة الفرنج إن قصدوا دمياط، و تواترت الأخبار بأنّ ريدا فرنس مقدّم الأفرنسيسيّة قد خرج من بلاده فى جموع عظيمة و شتّى بجزيرة قبرص؛ و كان من أعظم ملوك الفرنج و أشدّهم بأسا. و ريدا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۰

بلسانهم: الملك، فشحنت دمياط بالذخائر و أحكمت الشوانى، و نزل فخر الدين ابن الشيخ بالعساكر على جزيرة دمياط، فأقبلت مراكب الفرنج فأرست فى البحر بازاء المسلمين فى صفر من الستة، ثم شرعوا من الغد فى النزول إلى البرّ الذى فيه المسلمون و ضربت خيمة حمراء لريدا فرنس و ناوشهم [المسلمون] القتال، فقتل يومئذ الأمير نجم الدين ابن شيخ الإسلام، و الأمير الوزيرىّ- رحمهما اللّه تعالى- فترحّل فخر الدين ابن الشيخ بالناس، و قطع بهم الجسر إلى البرّ الشرقى الذى فيه دمياط، و تقهقر إلى أشمون طنّاح، و وقع الخذلان على أهل دمياط، فخرجوا منها طول الليل على وجوههم حتّى لم يبق بها أحد؛ و كان هذا من قبيح رأى فخر الدين، فإنّ دمياط كانت فى نوبة سنة خمس عشرة و ستمائة أقلّ ذخائر و عددا، و ما قدر عليها الفرنج إلّا بعد سنة، و إنّما هرب أهلها لمّا رأوا هرب العسكر و ضعف السلطان؛ فلمّا أصبحت الفرنج ملكوها صفوا بما حوت من العدد و الأسلحة و الذخائر و الغلال و المجانيق، و هذه مصيبة لم يجر مثلها! فلمّا وصلت العساكر و أهل دمياط إلى السلطان حنق على الشجعان الذين كانوا بها، [و أمر بهم] فشنقوا جميعا ثم رحل بالجيش، و سار إلى المنصورة فنزل بها فى المنزلة التى كان أبوه نزلها، و بها قصر بناه أبوه الكامل، و وقع النّفير العامّ فى المسلمين، فاجتمع بالمنصورة أمم لا يحصون من المطّوّعة و العربان؛ و شرعوا فى الإغارة على الفرنج و مناوشتهم و تخطّفهم، و استمرّ ذلك أشهرا، و السلطان يتزايد و الأطباء قد آيسته لاستحكام المرض به.

و أمّا صاحب الكرك (يعنى الملك الناصر داود) فإنّه سافر إلى بغداد فاختلف أولاده، فسار أحدهم إلى الملك الصالح نجم الدين أيّوب و سلّم إليه الكرك، ففرح [بها] مع ما فيه من الأمراض، و زيّنت بلاده و بعث إليها بالطواشى بدر الدين الصّوابى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۱

نائبا، و قدم عليه أولاد الناصر داود، فبالغ الملك الصالح فى إكرامهم و أقطعهم أخبازا جليلة. و لم يزل يتزايد به المرض إلى أن مات، و أخفى موته على ما سيأتى ذكره. إن شاء اللّه تعالى.

قال ابن واصل فى سيرة الملك الصالح نجم الدين أيّوب هذا: و كان مهيبا عزيز النفس عفيفا طاهر اللّسان و الذّيل، لا يرى الهزل و لا العبث، شديد الوقار كثير الصّمت، اشترى من المماليك التركى ما لم يشتره أحد من أهل بيته حتّى صاروا معظم عسكره، و رجّحهم على الأكراد [و أمّرهم]، و اشترى و هو بمصر خلقا منهم، و جعلهم بطانته و المحيطين بدهليزه، و سمّاهم «البحرية». حكى لى حسام الدين ابن أبى علىّ: أن هؤلاء المماليك مع فرط جبروتهم و سطوتهم كانوا أبلغ من يعظّم هيبته، كان إذا خرج و شاهدوا صورته يرعدون خوفا منه، و أنّه لم يقع منه فى حال غضبه كلمة قبيحة قطّ، أكثر ما يقول إذا شتم: يا متخلّف، و كان كثير الباه بجواريه فقط، و لم يكن عنده فى آخر وقت غير زوجتين: إحداهما شجرة الدّر، و الأخرى بنت العالمة، تزوّجها بعد مملوكه الجوكندار؛ و كان إذا سمع الغناء لا يتزعزع و لا يتحرّك، و كذلك الحاضرون يلتزمون حالته كأنّما على رءوسهم الطير؛ و كان لا يستقلّ أحدا من أرباب

دولته بأمر بل يراجعون القصص مع الخدّام، فيوقّع عليها بما يعتمده كتّاب الإنشاء؛ و كان يحبّ أهل الفضل و الدّين، و ما كان له ميل لمطالعة الكتب؛ و كان كثير العزلة و الانفراد، و له نهمة باللّعب بالصّوالجة، و فى إنشاء الأبنية العظيمة الفاخرة. انتهى كلام ابن واصل.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۲

و قال غيره: و كان ملكا مهيبا جبّارا ذا سطوة و جلالة، و كان فصيحا حسن المحاورة عفيفا عن الفواحش، أمّر مماليكه التركّ؛ و جرى بينه و بين عمّه الملك الصالح أمور و حروب إلى أن أخذ نقابة دمشق عام ثلاثة و أربعين؛ و ذهب إسماعيل إلى بعلبكّ، ثم أخذت من إسماعيل بعلبك، و تعثّر و التجأ إلى ابن أخته الناصر صاحب حلب. و لمّا خرج الملك الصالح هذا من مصر إلى الشام خاف من بقاء أخيه الملك العادل فقتله سرّا و لم يتمتع بعده؛ و وقعت الأكلة فى خدّه بدمشق.

و نزل الأفرنس ملك الفرنج بجيوشه على دمياط فأخذها، فسار إليه الملك الصالح فى محفّة حتى نزل المنصورة عليلا، ثم عرض له إسهال إلى أن مات فى ليلة النصف من شعبان بالمنصورة، و أخفى موته حتى أحضروا ولده الملك المعظم توران شاه من حصن كيفا و ملّكوه.

و قال سعد الدين: إنّ ابن عمّه فخر الدين نائب السلطنة أمر بتحليف الناس لولده الملك المعظم توران شاه، و لولىّ عهده فخر الدين فتقرّر ذلك، و طلبوا الناس فحضروا و حلفوا إلّا أولاد الناصر داود صاحب الكرك توقّفوا، و قالوا: نشتهى [أن] نبصر السلطان، فدخل خادم و خرج و قال: السلطان يسلّم عليكم، و قال: ما يشتهى أن تروه فى هذه الحالة، و قد رسم لكم أن تحلفوا.

فحلفوا؛ و كان للسلطان مدّة من وفاته و لا يعلم به أحد، و زوجته شجرة الدرّ توقّع مثل خطّه على التواقيع- على ما يأتى ذكره- و لمّا حلف أولاد الناصر صاحب الكرك جاءتهم المصيبة من كلّ ناحية، لأنّ الكرك راحت من يدهم، و اسودّت وجوههم عند أبيهم، و مات الملك الصالح الذى أمّلوه و أعطوه الكرك؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۳

ثم عقيب ذلك نفوهم من مصر. ثم إنّ الأمير فخر الدين نفذ نسخة الأيمان إلى البلاد [ليحلفوا للمعظّم] ثم كلّ ذلك و السلطان لم يظهر موته. قال: و كانت أمّ ولده شجرة الدرّ ذات رأى و شهامة، فدبّرت أمر الملك الصالح و أخفت موته. و هى التى و ليت الملك مدّة شهرين بعد ذلك، و خطب لها على المنابر بمصر و غيرها- على ما يأتى ذكر ذلك فى محلّه إن شاء اللّه تعالى. ثم ملك بعدها الأتراك إلى يومنا هذا. انتهى.

و قال الشيخ شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه مرآة الزمان- بعد ما ذكر اسم الملك الصالح و مولده قال-: «و لما ملك مصر اجتهد فى خلاص ولده المغيث فلم يقدر. قلت (يعنى المغيث الذى كان حبسه الملك الصالح إسماعيل بقلعة دمشق فى مبادئ أمر الملك الصالح). قال: و كان مهيبا، هيبته عظيمة، جبّارا أباد الأشرفيّة و غيرهم. و قال جماعة من أمرائه: و اللّه ما نقعد على بابه إلّا و نقول من هاهنا نحمل إلى الحبوس، و كان إذا حبس إنسانا نسيه، و لا يتجاسر أحد أن يخاطبه فيه، و كان يحلف أنّه ما قتل نفسا بغير حقّ. قال صاحب المرآة: و هذه مكابرة ظاهرة؛ فإنّ خواص أصحابه حكوا أنّه لا يمكن إحصاء من قتل من الأشرفية و غيرهم، و لو لم يكن إلّا قتل أخيه العادل [لكفى]. قال:

و كانت عتيقته شجرة الدرّ تكتب خطّا يشبه خطّه، فكانت تعلّم على التواقيع، و كان قد نسر مخرج السلطان و امتدّ إلى فخذه اليمنى و رجله و نحل جسمه و عملت له محفّة يركب فيها، و كان يتجلّد، و لا يطّلع أحد على حاله؛ و لمّا مات حمل تابوته إلى الجزيرة فعلّق بسلاسل حتّى قبر فى تربته إلى جانب مدرسته بالقاهرة».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۴

قلت: و ذكر القطب اليونينىّ فى كتابه الذيل على مرآة الزمان، قال فى ترجمة البهاء زهير كاتب الملك الصالح قال:

فلمّا خرج الملك الصالح بالكرك من الاعتقال و سار إلى الديار المصرية، كان بهاء الدين زهير المذكور فى صحبته، و أقام عنده فى

أعلى المنازل و أجلّ المراتب، و هو المشار إليه فى كتّاب الدرج و المقدّم عليهم، و أكثرهم اختصاصا بالملك الصالح و اجتماعا به، و سيّره رسولا فى سنة خمس و أربعين و ستمائة إلى الملك الناصر صلاح الدين يوسف صاحب حلب يطلب منه إنفاذ الملك الصالح عماد الدين إسماعيل إليه فلم يجب إلى ذلك، و أنكر الناصر هذه الرسالة غاية الإنكار، و أعظمها و استصعبها، و قال: كيف يسعنى أن أسيّر عمّه إليه، و هو خال أبى و كبير البيت الأيّوبىّ حتى يقتله، و قد استجار بى! و اللّه هذا شىء لا أفعله أبدا. و رجع البهاء زهير إلى الملك الصالح نجم الدين بهذا الجواب، فعظم عليه و سكت على ما فى نفسه من الحنق.

و قبل موت الملك الصالح نجم الدين أيّوب بمديدة يسيرة- و هو نازل على المنصورة- تغيّر على بهاء الدين زهير و أبعده لأمر لم يطّلع عليه أحد. قال: حكى لى البهاء أن سبب تغيّره عليه أنّه كتب عن الملك الصالح كتابا إلى الملك الناصر داود صاحب الكرك، و أدخل الكتاب إلى الملك الصالح ليعلّم عليه على العادة، فلمّا وقف عليه الملك الصالح كتب بخطّه بين الأسطر: «أنت تعرف قلّة عقل ابن عمّى، و أنّه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۵

يحبّ من يعظّمه و يعطيه من يده فاكتب له غير هذا الكتاب ما يعجبه»، و سيّر الكتاب إلى البهاء زهير ليغيّره، و البهاء زهير مشغول، فأعطاه لفخر الدين إبراهيم بن لقمان و أمره بختمه، فختمه و جهّزه إلى الناصر على يد نجّاب، و لم يتأمّله فسافر به النجّاب لوقته؛ و استبطأ الملك الصالح عود الكتاب إليه ليعلّم عليه؛ ثم سأل عنه بهاء الدين زهير بعد ذلك، و قال له: ما وقفت على ما كتبته بخطّى بين الأسطر؟

قال البهاء زهير: و من يجسر أن يقف على ما كتبه السلطان بخطه إلى ابن عمّه! و أخبره أنّه سيّر الكتاب مع النجّاب، فقامت قيامة السلطان، و سيّروا فى طلب النجّاب فلم يدركوه؛ و وصل الكتاب إلى الملك الناصر بالكرك فعظم عليه و تألّم له، ثم كتب جوابه إلى الملك الصالح، و هو يعتب فيه العتب المؤلم، و يقول له فيه: و اللّه ما بى ما يصدر منك فى حقّى، و إنما بى اطلاع كتّابك على مثل هذا! فعزّ ذلك على الملك الصالح، و غضب على بهاء الدين زهير، و بهاء الدين لكثرة مروءته نسب ذلك إلى نفسه و لم ينسبه لكاتب الكتاب، و هو فخر الدين بن لقمان- رحمه اللّه تعالى-.

قال: و كان الملك الصالح كثير التخيّل و الغضب و المؤاخذة على الذنب الصغير و المعاقبة على الوهم، لا يقيل عثرة و لا يقبل معذرة و لا يرعى سالف خدمة، و السيئة عنده لا تغفر، و التوسّل إليه لا يقبل، و الشفائع لديه لا تؤثّر، فلا يزداد بهذه الأمور التى تسلّ سخائم الصدور إلا انتقاما. و كان ملكا جبّارا متكبّرا شديد السطوة كثير التجبّر و التعاظم على أصحابه و ندمائه و خواصه، ثقيل الوطأة؛ لا جرم أن اللّه تعالى قصّر مدّة ملكه و ابتلاه بأمراض عدم فيها صبره. و قتل مماليكه ولده توران شاه من بعده؛ لكنه كان عنده سياسة حسنة و مهابة عظيمة و سعة صدر فى إعطاء العساكر و الإنفاق فى مهمّات الدولة، لا يتوقّف فيما يخرجه فى هذا الوجه؛ و كانت همّته عالية جدا، و آماله بعيدة، و نفسه تحدّثه بالاستيلاء على الدنيا بأسرها و التغلّب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۶

عليها، و انتزاعها من يد ملوكها، حتّى لقد حدّثته نفسه بالاستيلاء على بغداد و العراق؛ و كان لا يمكّن القوىّ من الضعيف، و ينصف المشروف من الشريف؛ و هو أوّل من استكثر من المماليك من ملوك البيت الأيّوبىّ، ثم اقتدوا به لمّا آل الملك إليهم.

قلت: و من ولى مصر بعد الصالح من بنى أيّوب حتى اقتنى المماليك! هو آخر ملوك مصر، و لا عبرة بولاية ولده الملك المعظم توران شاه، اللهم إن كان الذى بالبلاد الشاميّة فيمكن، و أمّا بمصر فلا.

و كانت ولايته بمصر تسع سنين و سعة أشهر و عشرين يوما لأنّه ولى السلطنة فى عشرين ذى الحجّة سنة سبع و ثلاثين، و مات فى نصف شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة. انتهى.

قال: و لمّا مات الملك الصالح نجم الدين لم يحزن لموته إلّا القليل مع ما كان الناس فيه من قصد الفرنج الديار المصرية و استيلائهم

على قلعة منها، و مع هذا سرّ معظم الناس بموته حتّى خواصّه، فإنّهم لم يكونوا يأمنون سطوته و لا يقدرون على الاحتراز منه. قال: و لم يكن فى خلقه الميل لأحد من أصحابه و لا أهله و لا أولاده و لا المحبة لهم و لا الحنوّ عليهم على ما جرت به العادة. و كان يلازم فى خلواته و مجالس أنسه من الناموس ما يلازمه إذا كان جالسا فى دست السلطنة.

و كان عفيف الذيل طاهر اللسان قليل الفحش فى حال غضبه، ينتقم بالفعل لا بالقول- رحمه اللّه تعالى-. انتهى ما أوردناه فى ترجمة الملك الصالح من أقوال جماعة كثيرة من المؤرّخين ممّن عاصره و بعدهم، فمنهم من شكر و منهم من أنكر.

قلت: و هذا شأن الناس فى أفعال ملوكهم، و الحاكم أحد الخصمين غضبان منه إذا حكم بالحقّ، فكيف السلطان! و فى الجملة هو عندى أعظم ملوك بنى أيّوب

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۷

و أجلّهم و أحسنهم رأيا و تدبيرا و مهابة و شجاعة و سؤددا بعد السلطان صلاح الدين يوسف بن أيّوب، و هو أخو جدّه الملك العادل أبى بكر بن أيّوب؛ و لو لم يكن من محاسنه إلّا تجلّده على مقابلة العدوّ بالمنصورة، و هو بتلك الأمراض المزمنة المذكورة و موته على الجهاد، و الذبّ عن المسلمين.- و اللّه يرحمه- ما كان أصبره و أغزر مروءته.

و لمّا مات رثاه الشعراء بعدّة مراث. و أمّا مدائحه فكثيرة من ذلك ما قاله فيه كاتبه و شاعره بهاء الدين زهير من قصيدته التى أوّلها:

وعد الزيارة طرفه المتملّق و بلاء قلبى من جفون تنطق

إنّى لأهوى الحسن حيث وجدته و أهيم بالقدّ الرشيق و أعشق

يا عاذلى أنا من سمعت حديثه فعساك تحنو أو لعلّك ترفق

لو كنت منّا حيث تسمع أو ترى لرأيت ثوب الصبر كيف يمزّق

و رأيت ألطف عاشقين تشاكيا و عجبت ممّن لا يحبّ و يعشق

أ يسومنى العذّال عنه تصبّرا و حياته قلبى أرقّ و أشفق

إن عنّفوا أو سوّفوا أو خوّفوا لا انتهى لا أنثنى لا أفرق

أبدا أزيد مع الوصال تلهّفا كالعقد فى جيد المليحة يقلق

يا قاتلى إنّى عليك لمشفق يا هاجرى إنّى اليك لشيّق

و أذاع أنّى قد سلوتك معشر يا ربّ لا عاشوا لذاك و لا بقوا

ما أطمع العذّال إلّا أنّنى خوفا عليك إليهم أتملّق

و إذا وعدت الطيف منك بهجعة فاشهد علىّ بأنّنى لا أصدق

فعلام قلبك ليس بالقلب الذى قد كان لى منه المحبّ المشفق

و أظنّ قدّك شامتا لفراقنا فلقد نظرت إليه و هو مخلّق

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۸

و لقد سعيت إلى العلا بعزيمة فقضى لسعيى أنّه لا يحقق

و سريت فى ليل كأنّ نجومه من فرط غيرتها إلىّ تحدّق

حتّى وصلت سرادق الملك الذى تقف الملوك ببابه تسترزق

و وقفت من ملك الزمان بموقف ألفيت قلب الدهر منه يخفق

فإليك يا نجم السماء فإنّنى قد لاح نجم الدين لى يتألّق

الصالح الملك الذى لزمانه حسن يتيه به الزمان و رونق

ملك تحدّث عن أبيه و جدّه نسب لعمرى فى العلا لا يلحق

سجدت له حتّى العيون مهابة أو ما تراها حين يقبل تطرق

و القصيدة أطول من هذا تركتها خوف الإطالة و الملل.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۸]

السنة الأولى من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل محمد على مصر، و هى سنة ثمان و ثلاثين و ستمائة.

فيها سلّم الملك الصالح إسماعيل الشّقيف لصاحب صيداء الفرنجىّ. و عزل عزّ الدين بن عبد السلام عن الخطابة و حبسه، و حبس أيضا أبا عمرو بن الحاجب لأنّهما أنكرا عليه فعله، فحبسهما مدّة ثم أطلقهما؛ و ولّى العماد ابن خطيب بيت الأبّار الخطابة عوضا عن ابن عبد السلام.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۳۹

و فيها ظهر بالروم رجل تركمانىّ يقال له البابا و ادّعى النبوّة، و كان يقول قولوا:

لا إله إلا اللّه البابا وليّ اللّه، و اجتمع إليه خلق كثير؛ فجهّز إليه صاحب الروم جيشا فالتقوا، فقتل بينهم أربعة آلاف، و قتل البابا المذكور. قال أبو المظفّر:

«و فيها ذكر أنّ بمازندران - و هى مدينة العجم- عين ماء يطلع منها فى كلّ ستّ و ثلاثين سنة حيّة عظيمة مثل المنارة، فتقيم طول النهار، فإذا غربت الشمس غاصت الحيّة فى العين فلا ترى إلّا مثل ذلك الوقت؛ و قيل: إنّ بعض ملوك العجم جاء بنفسه إليها فى مثل ذلك اليوم، و ربطها بسلاسل حتّى يعوقها، فلمّا غربت الشمس غاصت فى العين، و هى إلى الآن إذا طلعت رأوا السلاسل فى وسطها».

قلت: و لعلّها لم تتعرّض لأحد بسوء، و إلّا فكان الناس تحيّلوا فى قتلها و قتلوها بأنواع المكايد. و أمر هذه الحيّة مشهور ذكره غير واحد من المؤرّخين.

و فيها وصل الملك الناصر داود من مصر إلى غزّة، و كان بينه و بين الفرنج وقعة، و كسرهم فيها و غنم منهم أشياء كثيرة.

و فيها توفّى أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد الشيخ الإمام محى الدين العالم المشهور بابن عربى الطائىّ [الأندلسىّ] الحاتمىّ فى شهر ربيع الآخر، و له بمان و سبعون سنة.

و كان إماما فى علوم الحقائق، و له المصنّفات الكثيرة. و قد اختلف الناس فى تصانيفه و أقواله اختلافا كبيرا. قال: و كان يقول: أعرف الاسم الأعظم، و أعرف الكيمياء

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۰

بطريق المنازلة لا بطريق الكسب، و كانت وفاته بدمشق و دفن بقاسيون بتربة القاضى محيى الدين [بن الزكىّ]. و من شعره فى جزار:

ناديت جزّارا تروق صفاته قد أخجلت سمر القنا حركاته

يا واضع السّكين فى فمه و قد أهدى بها ماء الحياة لهاته

ضعها على المذبوح ثانى كرّة و أنا الضمين بأن تعود حياته

قلت: و أحسن من هذا قول البرهان القيراطىّ - رحمه اللّه- فى المعنى:

ربّ جزّار هواه صار لى دما و لحما

فزت بالألية منه و امتلا قلبى شحما

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ أحمد بن محمّد بن محمود الحرّانىّ ثم البغدادىّ فى المحرّم. و

العلّامة القاضى نجم الدين أبو العبّاس أحمد بن محمد بن خلف بن راجح المقدسىّ الشافعىّ مدرس العذراويّة فى شوّال.

و خطيب داريّا سمح بن ثابت. و جمال الملك علىّ بن مختار العامرىّ ابن الجمل فى شعبان، و له تسعون سنة. و محيى الدين أبو بكر محمد بن علىّ بن محمد بن العربىّ الطائى الحاتمىّ المرسىّ، و له ثمان و سبعون سنة. مات فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ست عشرة ذراعا و تسع أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۱

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۳۹]

السنة الثانية من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة تسع و ثلاثين و ستمائة.

فيها شرع الملك الصالح المذكور فى عمارة المدارس ببين القصرين من القاهرة، و شرع أيضا فى بناء قلعة الجزيرة، و أخذ أملاك الناس، و أخرب نيّفا و ثلاثين مسجدا، و قطع ألف نخلة، و غرم عليها خراج مصر سنين كثيرة؛ فلم تقم بعد وفاته، و أخر بها مماليكه الأتراك سنة إحدى و خمسين و ستمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۲

و فيها توفّى أحمد بن الحسين بن أحمد الشيخ الإمام العالم شمس الدين النحوى الإربلىّ ثم الموصلىّ الضّرير [المعروف بابن الخبّاز] صاحب التصانيف. كان إماما بارعا مفتّنا عالما بالنحو و اللغة و الأدب. و من شعره فى العناق:

كأنّنى عانقت ريحانة تنفّست فى ليلها البارد

فلو ترانا فى قميص الدّجى حسبتنا فى جسد واحد

قلت: و مثل هذا قول العلّامة أبى الحسن علىّ بن الجهم- رحمه اللّه تعالى-:

سقى اللّه ليلا ضمّنا بعد هجعة و أدنى فؤادا من فؤاد معذّب

فبتنا جميعا لو تراق زجاجة من الخمر فيما بيننا لم تسرّب

و مثل هذا قول القائل:

لا و المنازل من نجد و ليلتنا بالخيف إذ جسدانا بيننا جسد

كم رام منّا الكرى من لطف مسلكه نوما فما انفكّ لا خد و لا عضد

و مثل هذا أيضا قول [ابن] النّعاويذىّ - رحمه اللّه تعالى-:

فكم ليلة قد بتّ أرشف ريقه و جرت على ذاك الشّنيب المنضّد

و بات كما شاء الغرام معانقى و بتّ و إيّاه كحرف مشدّد

و قد خرجنا عن المقصود و لنرجع لما نحن بصدده.

و فيها توفى موسى بن يونس بن محمد بن منعة بن مالك العلّامة كمال الدين أبو الفتح الموصلىّ الشافعىّ. مولده فى صفر سنة إحدى و خمسين و خمسمائة بالموصل، و تفقّه على والده و غيره، و برع فى عدّة علوم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۳

قال ابن خلّكان- رحمه اللّه-: و كان الشيخ يعرف الفقه و الأصلين و الخلاف و المنطق و الطبيعى و الإلهى و المجسطى و أقليدس و الهيئة و الحساب و الجبر و المقابلة و المساحة و الموسيقى معرفة لا يشاركه فيها غيره. ثم قال بعد ثناء زائد إلّا أنّه كان يتّهم فى دينه

لكون العلوم العقليّة غالبة عليه.

و عمل فيه العماد المغربيّ و هو عمر بن عبد النور الصّنهاجى النحويّ هجوا- رحمه اللّه تعالى-

أجدّك أن قد جاد بعد التعبّس غزال بوصل لى و أصبح مؤنسى

و عاطيته صهباء من فيه مزجها كرقّة شعرى أو كدين ابن يونس

و كان العماد المذكور قد مدحه قبل ذلك بأبيات منها:

كمال كمال الدين للعلم و العلا فهيهات ساع فى مساعيك يطمع

إذا اجتمع النّظّار فى كلّ موطن فغاية كلّ أن تقول و يسمعوا

فلا تحسبوهم من عناد تطيلسوا و لكن حياء و اعترافا تقنّعوا

و من شعر ابن يونس ما كتبه لصاحب الموصل يشفع عنده شفاعة، و هو:

لئن شرّفت أرض بمالك قدرها فمملكة الدنيا بكم تتشرّف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۴

بقيت بقا نوح و أمرك نافذ و سعيك مشكور و ظلّك منصف

و مكّنت فى حفظ البسيطة مثل ما تمكّن فى أمصار فرعون يوسف

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة؛ ج۶؛ ص۳۴۴

ذين ذكر الذهبيّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى العلّامة شمس الدين أحمد بن الحسين بن أحمد الإربلىّ ثم الموصلىّ الضّرير النحويّ صاحب التصانيف.

و أحمد بن يعقوب أبو العيناء المارستانىّ الصّوفىّ فى ذى الحجّة. و الفقيه إسحاق ابن طرخان الشّاغوريّ فى رمضان، و له نحو تسعين سنة. و أبو الطاهر إسماعيل ابن ظفر النابلسىّ فى شوّال، و له خمس و ستّون سنة. و أبو علىّ الحسن بن إبراهيم ابن هبة اللّه بن دينار الصائغ فى جمادى الآخرة. و خطيب بيت لهيا أبو الرّبيع سليمان بن إبراهيم بن هبة اللّه بن رحمة الإسعردىّ الحنبلىّ فى شهر ربيع الآخر.

و الفقيه عبد الحميد بن محمد بن أبى بكر بن ماض. و العلّامة كمال الدين أبو الفتح موسى بن يونس الموصلىّ، ذو الفنون فى شعبان عن تسع و ثمانين سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و إحدى و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۰]

السنة الثالثة من ولاية الملك، الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة أربعين و ستّمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۵

فيها كان الوباء ببغداد و تزايدت الأمراض. و توفّى الخليفة المستنصر و بويع ابنه المستعصم.

و فيها عزم الملك الصالح المذكور على التوجّه إلى الشام، فقيل له: البلاد مختلّة و العساكر مختلفة، فجهّز إليها العساكر و أقام هو بمصر.

و فيها توفّى كمال الدين أحمد ابن صدر الدين شيخ الشيوخ بمدينة غزّة فى صفر عن ستّ و خمسين سنة، و بنى عليه أخوه معين

الدين قبّة على جانب الطريق، و كان قد كسره الجواد بعسكر الملك الناصر داود صاحب الكرك؛ و قيل: إنّه مات مسموما.

و من شعره ما كتبه لابن عمّه سعد الدين:

لو أنّ فى الأرض جنّات مزخرفة تحفّ أركانها الولدان و الخدم

و لم تكن رأى عينى فالوجود بها إذ لا أراك وجود كلّه عدم

و فيها توفّى الخليفة أمير المؤمنين المستنصر بالله أبو جعفر منصور ابن الخليفة الظاهر بأمر اللّه محمد ابن الخليفة الناصر لدين اللّه أبى العباس أحمد ابن الخليفة المستضىء بأمر اللّه حسن ابن الخليفة المستنجد بالله يوسف العباسىّ الهاشمىّ البغدادىّ.

مولده فى سنة ثمان و ثمانين و خمسمائة ببغداد، و أمّه أمّ ولد تركيّة، بويع بالخلافة بعد موت أبيه الظاهر بأمر اللّه فى شهر رجب سنة ثلاث و عشرين و ستمائة؛ و لمّا ولى الخلافة نشر العدل فى الرعايا و بذل الإنصاف، و قرّب أهل العلم و الدين، و بنى المساجد و الرّبط و المدارس، و أقام منار الدين و قمع المتمرّدة، و نشر السنن و كفّ الفتن. و كان أبيض أشقر الشعر ضخما قصيرا، و خطه الشيب فخضب بالحنّاء، ثم ترك الخضاب. و مات فى العشرين من جمادى، و قيل: فى يوم الجمعة عاشر جمادى الآخرة عن إحدى و خمسين سنة و أربعة أشهر و تسعة أيام و كتم موته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۶

و خطب له يومئذ بالجامع حتى أقبل شرف الدين إقبال الشّرابىّ و معه جمع من الخدّام، و سلّم على ولده المستعصم بالله أمير المؤمنين، و استدعاه إلى سدّة الخلافة، ثم عرّف الوزير و أستاذ الدار، ثم طلبوا الناس، و بايعوه بالخلافة و تمّ أمره.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى زين الدين أحمد بن عبد الملك بن عثمان المقدسىّ المحدّث الشّروطىّ. و إبراهيم بن بركات بن إبراهيم الخشوعىّ فى رجب. و عبد العزيز بن محمد بن الحسن بن عبد اللّه و يعرف بابن الدجاجيّة. و علم الدين علىّ بن محمود ابن الصابونىّ الصّوفى فى شوّال، و له أربع و ثمانون سنة. و أبو الكرم محمد بن عبد الواحد بن أحمد المتوكّلىّ، المعروف بابن شفنين فى رجب، و له إحدى و تسعون سنة. و المستنصر بالله أبو جعفر منصور بن الظاهر، و له اثنتان و خمسون سنة، توفّى فى جمادى الآخرة، و كانت خلافته ثلاث عشرة سنة.

قلت: لعل الذهبىّ و هم فى مدّة خلافته، و الصحيح أنّه ولى فى سنة ثلاث و عشر بن و ستمائة، و توفّى سنة أربعين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و أربع عشرة إصبعا.

مبلغ الزيادة ستّ عشرة ذراعا و ثلاث أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۱]

السنة الرابعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة إحدى و أربعين و ستمائة.

فيها تردّدت الرسل بين السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب المذكور و بين عمّه الملك الصالح إسماعيل صاحب الشام [فى الصلح]، و كان الملك المغيث بن الصالح

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۷

نجم الدين هذا فى حبس الصالح إسماعيل صاحب الشام بدمشق، فأطلقه الصالح إسماعيل و خطب للصالح هذا ببلاده، ثم تغيّر ذلك كلّه و قبض الصالح إسماعيل ثانيا على الملك المغيث بن الصالح نجم الدين و حبسه.

قال أبو المظفر- رحمه اللّه-: «و فيها قدمت القاهرة و سافرت إلى الإسكندريّة فى هذه السنة، فوجدتها كما قال اللّه تعالى: ذات قرار و معين معمورة بالعلماء، مغمورة بالأولياء، [الذين هم فى الدنيا شامة]: كالشيخ محمد القبّارىّ و الشاطبىّ و ابن أبى أسامة. و هى أولى

بقول القيسرانىّ رحمه اللّه فى وصف دمشق:

أرض تحلّ الأمانى من أماكنها بحيث تجتمع الدنيا و تفترق

إذا شدا الطير فى أغصانها وقفت على حدائقها الأسماع و الحدق

قلت: و أين [قول] أبى المظفّر من قول مجير الدين بن تميم فى وصف الإسكندريّة!:

لمّا قصدت سكندريّة زائرا ملأت فؤادى بهجة و سرورا

ما زرت فيها جانبا إلّا رأت عيناى فيها جنّة و حريرا

و فيها صالح صاحب الروم التتار على أن يدفع إليهم فى كلّ يوم ألف دينار و فرسا و مملوكا و جارية و كلب صيد؛ و كان صاحب الروم يومئذ ابن علاء الدين كيقباذ، و هو شابّ لعّاب ظالم قليل العقل، يلعب بالكلاب و السباع و يسلّطها على الناس فعضّه بعد ذلك سبع فمات، فأقام التّتار شحنة على الروم.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۸

و فيها توفّى الشيخ نجم الذين خليل بن علىّ بن الحسين الحمويّ الحنفىّ الفقيه [قاضى العسكر]، قدم دمشق و تفقّه بها و خدم المعظّم و درس فى الرّيحانيّة بدمشق، و ناب فى القضاء بها عن الرّفيع. و مات فى شهر ربيع الأوّل و دفن بقاسيون.

و فيها توفّى مظفّر الدين الملك الجواد يونس بن مودود بن الملك العادل أبى بكر بن أيّوب. و قد تقدّم من ذكره نبذة كبيرة عند وفاة الملك الكامل محمد بدمشق.

انتهى. و كان مظفّر الدين هذا قد جاء إلى ابن عمّه الملك المعظّم لمّا وقع بينه و بين الملك الكامل صاحب مصر [ما وقع] فأحسن إليه المعظّم، ثم عاد إلى مصر لمّا مات الملك الأشرف موسى شاه أرمن، فأقام بها عند الكامل إلى أن عاد.

صحبته إلى دمشق و أقام بها إلى أن مات الكامل فملّكوه دمشق، حسب ما حكيناه فى ترجمة الكامل و العادل ابنه؛ و وقع له بعد ذلك أمور. و كان جوادا كما اسمه، و يحبّ الصالحين و الفقراء.

قال أبو المظفّر: «إلّا أنّه كان حوله من ينهب الناس و يظلم و ينسب ذلك إليه». قلت: ثمّ قبض عليه عمّه الملك الصالح إسماعيل و اعتقله، فطلبه منه الفرنج لصحبة كانت بينهم، فحنقه ابن يغمور و قال: إنّه مات، و كان ذلك فى شوّال، و دفن بقاسيون دمشق فى تربة المعظّم. و أمّا ابن يغمور فإنّه حبس بأذن الصالح بقلعة دمشق، ثم شنقه الملك الصالح أيّوب لما ملك دمشق بعث به ابن شيخ

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۴۹

الشيوخ إلى مصر، فحبسه الصالح بالجبّ، ثم شنقه بعد مدّة هو و أمين الدولة على قلعة القاهرة.

و فيها توفّى الشيخ الصالح الزاهد أبو بكر [الشّعيبى]، كان من أهل ميّافارقين و كان من الأبدال، بعث إليه غازى صاحب ميّافارقين مرارا يسأله الإذن فى الزيارة، فلم يأذن له، فقيل له: هل يطرق البلاد التتار؟ فرفع رأسه إلى السماء و أنشد:

و ما كلّ أسرار القلوب مباحة و لا كلّ ما حلّ الفؤاد يقال

ثم خرج إلى الشّعيبة و هى قرية هناك و قال: احفروا لى ها هنا، فبعد يومين اموت، فمات بعد يومين- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو تمّام علىّ ابن أبى الفخار هبة اللّه بن محمد الهاشمىّ خطيب جامع ابن المطّلب [ببغداد]، و له تسعون سنة. و أبو الوفاء عبد الملك بن عبد الحقّ [بن عبد الوهّاب بن عبد الواحد] ابن الحنبلى. و أمّ الفضل كريمة بنت عبد الوهاب القرشيّة فى جمادى الآخرة.

و العدل أبو المكارم عبد الواحد بن عبد الرحمن بن عبد الواحد [بن محمد] بن هلال فى رجب. و أبو طالب عبد اللطيف بن محمد بن علىّ بن القبّيطىّ التاجر، و له ستّ و ثمانون سنة. و أبو محمد عبد الحقّ بن خلف الحنبلىّ. و أبو الرضا علىّ بن زيد التّسارسىّ الخيّاط بالثغر. و الأعزّ بن كرم بن محمد الإسكاف. و القاضى شمس الدين عمر بن أسعد بن المنجّا الحنبلى، و له أربع و ثمانون سنة.

و الحافظ تقيّ الدين إبراهيم

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۰

ابن محمد بن الأزهر بدمشق، و له ستون سنة. و قيصر بن فيروز المقرئ البوّاب فى رجب. و قاضى القضاة الرّفيع الحنبلىّ فى آخر السنة.

أمر النيل فى هذه السنة الماء القديم ثلاث أذرع، و قيل أكثر. مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۲]

السنة الخامسة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة اثنتين و أربعين و ستمائة.

فيها توفّى شهاب الدين أحمد [ابن محمد بن علىّ بن أحمد] بن الناقد وزير الخليفة. كان أبوه وكيل أمّ الخليفة الناصر لدين اللّه، و نشأ ابنه هذا و تنقّل فى الخدم حتّى ولى الوزارة للخليفة المستنصر، و لقّب مؤيّد الدين، و حسنت سيرته. و كان رجلا صالحا فاضلا عفيفا ديّنا صار فى وزارته أحسن سيرة- رحمه اللّه تعالى-.

و فيها توفّى شيخ الشيوخ تاج الدين أبو محمد عبد اللّه بن عمر [ابن علىّ] بن محمد ابن حمّويه. كان فاضلا نزها شريف النفس عالى الهمّة، صنّف التاريخ و غيره، و كان معدودا من العلماء الفضلاء. و مات فى صفر.

و فيها قتل القاضى الرّفيع عبد العزيز بن عبد الواحد بن إسماعيل أبو حامد الملقّب بالرّفيع. قال أبو المظفّر فى تاريخه: قيل إنّه كان فاسد العقيدة دهريّا مستهترا بأمور الشريعة، يخرج إلى الجمعة سكران، و كذلك كان يجلس فى مجلس الحكم، و كانت داره مثل الحانات، قبض عليه أمين الدولة و بعث به فى الليل إلى بعلبكّ،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۱

و صودر هناك، و باع أملاكه؛ و بعد ذلك جاءه داود النصرانىّ [سيف النّقمة] فقال: قد أمرنا بحملك إلى بعلبكّ، فأيقن بالهلاك؛ فقال: دعونى أصلى ركعتين! فقال له داود: صلّ، فقام يصلّى فأطال، فرفسه داود من رأس شقيف مطلّ على نهر إبراهيم فوقع، فما وصل إلى الماء إلا و قد تقطّع- و قيل: إنّه تعلّق بذيله بسنّ الجبل فما زال داود يضربه بالحجارة حتّى قتله-. قلت: لا شلّت يداه! فإنّه كان من مساوىء الدنيا!.

و فيها توفّى الملك المغيث عمر بن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب صاحب الترجمة، مات فى حياة والده الملك الصالح فى حبس دمشق- بعد أن عجز والده فى خلاصه- فى يوم الجمعة ثانى عشرين شهر ربيع الآخر، و حمل إلى تربة جدّه الملك الكامل محمد فدفن بها، و كان شابّا حسنا عاقلا ديّنا. و قد مرّ من ذكره نبذة كبيرة فى عدّة مواضع من هذا الكتاب.

و فيها توفّى شمس الأئمة محمد بن عبد الستّار بن محمد الإمام العلّامة فريد دهره و وحيد عصره المعروف بشمس الأئمة الكردرىّ البراتقينىّ الحنفىّ. و براتقين: قصبة من قصبات كردر من أعمال جرجانيّة. قال الذهبىّ: كان أستاذ الأئمة على الإطلاق و الموفود إليه من الآفاق؛ برع فى علوم، و أقرأ فى فنون؛ و انتهت إليه رياسة الحنفيّة فى زمانه. انتهى. قلت: و شمس الأئمة أحد العلماء الأعلام و أحد من سار ذكره شرقا و غربا، و انتشرت تصانيفه فى الدنيا- رحمه اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى شيخ الشيوخ تاج الدين عبد اللّه بن عمر بن علىّ الجوينىّ فى صفر، و له سبعون سنة. و أبو المنصور

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۲

ظافر بن طاهر [ابن ظافر بن إسماعيل] بن سحم الأزدى المطرّز بالإسكندريّة فى شهر ربيع الأوّل. و أبو الفضل يوسف بن عبد المعطى

بن منصور بن نجا العسالىّ ابن المخيلىّ أحد رءوس الثغر فى جمادى الآخرة، و له أربع و سبعون سنة. و أبو الضوء قمر بن هلال بن بطّاح القطيعىّ فى رجب. و تاج الدين أحمد بن محمد بن هبة اللّه بن محمد بن الشّيرازىّ فى رمضان، و قد نيّف على السبعين.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع سواء. مبلغ الزيادة خمس عشرة ذراعا سواء.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۳]

السنة السادسة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة ثلاث و أربعين و ستمائة.

فيها كان الحصار على دمشق [من المصريين و] من الخوارزميّة.

و فيها كان الغلاء العظيم بدمشق، و بلغت الغرارة القمح ألفا و ستمائة درهم، و أبيعت الأملاك و الأمتعة بالهوان.

و فيها أيضا كان الغلاء بمصر، و قاسى أهلها شدائد.

و فيها توفّى الوزير معين الدين الحسن ابن شيخ الشيوخ أبو علىّ وزير الملك الصالح أيّوب، و هو الذى حصر دمشق فيما مضى. كان استوزره الملك الصالح بعد أخيه

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۳

عماد الدين، و كانت وفاته بدمشق فى شهر رمضان، و دفن إلى جانب أخيه عماد الدين المذكور بقاسيون.

و فيها توفّى عبد المحسن بن حمّود بن [عبد] المحسن أبو الفضل أمين الدين الحلبىّ، كان كاتبا لعزّ الدين أيبك المعظّمىّ، و كان فاضلا ديّنا بارعا حسن الخط.

و من شعره فى إجازة- رحمه اللّه تعالى-:

قد أجزت الذى فيها إلى ما التمسوه منى

فلهم بعدها رواية ما صح لديهم من الرواية عنّى

و كانت وفاته فى شهر رجب، و دفن بباب توما.

و فيها توفّيت ربيعة خاتون بنت أيّوب أخت السلطان صلاح الدين يوسف ابن أيّوب، و أخت الملك العادل أبى بكر بن أيّوب، كان تزوّجها أوّلا سعد الدين مسعود بن معين [الدين] أنر، و بعد موته تزوّجها صلاح الدين بن مظفّر الدين بن زين الدين صاحب إربل، ثم قدمت دمشق، و هى صاحبة الأوقاف، و ماتت بدمشق و دفنت بقاسيون، و قد جاوزت ثمانين سنة.

و فيها توفّى أحمد بن عيسى ابن العلّامة موفّق الدين عبد اللّه بن أحمد بن محمد بن قدامة الإمام الحافظ الزاهد سيف الدين بن المجد الحنبلىّ. ولد سنة خمس و ستمائة.

و سمع الحديث الكثير، و كتب و صنّف و جمع و خرّج، و كان ثقة حجّة بصيرا بالحديث و رجاله، و مات فى أوّل شعبان.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۴

و فيها توفى عثمان بن عبد الرحمن بن عثمان بن موسى أبى نصر الإمام المفتى تقىّ الدين أبو عمرو ابن الإمام البارع صالح الدين النّصرى الكردىّ الشّهرزورىّ الشافعىّ المعروف بابن الصلاح. ولد سنة سبع و سبعين و خمسمائة و تفقّه على والده الصلاح بشهرزور و غيره، و برع فى الفقه و الحديث و العربيّة و شارك فى فنون.

و مات فى شهر ربيع الآخر و دفن بمقابر الصوفيّة.

و فيها توفّى علىّ بن محمد بن عبد الصمد العلّامة شيخ القرّاء بدمشق علم الدين أبو الحسن الهمذانىّ السّخاوىّ المصرىّ. ولد سنة ثمان أو تسع و خمسين و خمسمائة، و كان إماما علّامة مقرئا محققا مجوّدا بصيرا بالقراءات، ماهرا فى النحو و اللغة إماما فى التفسير،

مات بدمشق فى جمادى الآخرة.

و فيها توفى محمد بن عبد الواحد بن أحمد بن عبد الرحمن بن إسماعيل الحافظ ضياء الدين أبو عبد اللّه المقدسىّ السّعدىّ ثم الدّمشقىّ الصالحىّ صاحب التصانيف المشهورة. ولد سنة تسع و ستين و خمسمائة، و سمع الكثير و رحل البلاد، و كتب و صنّف و حصّل شيئا كثيرا من الأجزاء و الأسانيد. و مات يوم الاثنين الثامن و العشرين من جمادى الآخرة، و له أربع و سبعون سنة.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى الحافظ أبو القاسم عبد الرحمن بن مقرّب التّجيبى الإسكندرىّ فى صفر. و الحافظ أبو العبّاس أحمد ابن محمود بن إبراهيم بن نبهان بن الجوهرىّ بدمشق فى صفر. و الحافظ العلّامة تقىّ الدين عثمان بن الصلاح عبد الرحمن بن عثمان الكردىّ فى شهر ربيع الآخر، و له ست و ستون سنة. و الحافظ سيف الدين أحمد بن المجد عيسى بن الموفّق فى شعبان. و الحافظ ضياء الدين محمد بن عبد الواحد المقدسىّ فى جمادى الآخرة، و له أربع و سبعون سنة. و الحافظ الفقيه تقىّ الدين أحمد بن المعزّ محمد بن عبد الغنى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۵

ابن عبد الواحد المقدسىّ فى شهر ربيع الآخر، و له اثنتان و خمسون سنة. و الحافظ المفيد تاج الدين محمد بن أبى جعفر [أحمد بن علىّ] القرطبىّ إمام الكلّاسة فى جمادى الأولى. و الرئيس عزّ الدين ابن النّسابة محمد بن أحمد بن محمد [بن الحسن] ابن عساكر فى رجب، و له ثمان و سبعون سنة. و العلّامة موفّق الدين يعيش بن علىّ بن يعيش النحوىّ بحلب فى جمادى الأولى، و له تسعون سنة. و العلّامة علم الدين علىّ بن محمد بن عبد الصمد الهمذانىّ السّخاوىّ المقرئ المفسّر؛ و له خمس و ثمانون سنة فى جمادى الآخرة. و أبو غالب منصور بن أحمد بن أبى غالب [محمد بن محمد] المراتبىّ ابن المعوج فيه، و له ثمان و ثمانون سنة. و خطيب الجبل شرف الدين عبد اللّه ابن الشيخ أبى عمر [محمد] المقدسىّ فيه أيضا. و الحافظ مجد الدين محمد بن محمود بن حسن [بن هبة اللّه بن محاسن] بن النجّار محدث العراق فى شعبان، و له خمس و تسعون سنة. و الصاحب معين الدين حسن ابن شيخ الشيوخ صدر الدين محمد بن عمر الجوينىّ بدمشق فى رمضان. و الشيخ أبو الحسن علىّ بن الحسين بن المقيّر النجّار بمصر فى ذى القعدة، و له ثمان و تسعون سنة. و أبو بكر محمد بن سعد بن الموفّق الصّوفىّ بن الخازن ببغداد فى ذى الحجّة، و له سبع و ثمانون سنة. و الأمير سيف الدين علىّ بن قليج، و دفن بتربته داخل دمشق.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم أربع أذرع و عشرون إصبعا.

مبلغ الزيادة ثمانى عشرة ذراعا و أربع عشرة إصبعا.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۶

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۴]

السنة السابعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة أربع و أربعين و ستمائة.

فيها توفّى الملك المنصور صاحب حمص و اسمه إبراهيم بن شيركوه بن محمد بن أسد الدين شيركوه الكبير أخو أيّوب. كان المنصور هذا شجاعا متواضعا موافقا للملك الصالح إسماعيل و مصاهرا له. و مات بدمشق فى يوم الأربعاء حادى عشر صفر، و حمل فى تابوت إلى حمص، و مات و له عشرون سنة. و قام بعده على حمص ولده الأشرف موسى، فأقام بها سنتين و شهورا و أخذت منه.

و فيها تسلّم السلطان الملك الصالح أيّوب قلعة الصّبيبة من ابن عمّه الملك السعيد ابن الملك العزيز، ثم أخذ السلطان أيضا حصن الصّلت من الملك الناصر داود صاحب الكرك.

و فيها قدم رسولان من التّتار إلى بغداد، أحدهما من بركة خان، و الآخر من ناخو، فاجتمعا بالوزير مؤيّد الدين ابن العلقمىّ، فتغمّت

على الناس بواطن الأمور.

و فيها أخذت الفرنج مدينة شاطبة من بلاد المغرب صلحا، ثم أجلوا أهلها بعد سنة عنها. فما شاء اللّه كان.

و فيها توفّى بركة خان الخوارزميّ أحد الخانات الأربعة، كان أصلحهم فى الميل إلى الخير، و كان الملك الصالح نجم الدين- صاحب الترجمة- قد صاهره و أحسن إليه، و جرى منه [عليه] ما جرى فى حياة والده الملك الكامل. و لمّا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۷

قتل انحلّ نظام الخوارزميّة من بعده، و كان قتله بالقرب من حلب فى قتال كان بينه و بين صاحب حلب و حمص. و قد تقدّم ذكر ذلك كلّه فى أوّل ترجمة الصالح هذا.

قال الأمير شمس الدين لؤلؤ: لمّا التقينا على حمص رأيت الخوارزمية خلقا عظيما، و كنا بالنسبة إليهم كالشّامة السوداء فى الثور الأبيض، فقال لى غلمانى (يعنى مماليكه): أيّما أحبّ إليك، نأخذ بركة خان أسيرا، أو نحمل رأسه إليك؟

فقلت: رأسه، كأنّ اللّه أنطقنى و التقينا. فلمّا كان بعد ساعة و إذا بواحد من أصحابنا يحمل رأسا مليح الصّورة و ليس فى وجهه سوى شعرات يسيرة، و لم يعرفه أحد و لا نحن عرفناه، و انهزموا، و جىء بطائفة منهم أسارى، فلمّا رأوا الرأس رموا نفوسهم من خيولهم و حثوا التراب على رءوسهم، فعلمنا حينئذ أنّه رأسه، و بعثنا به إلى حلب.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو عبد اللّه محمد بن حسّان بن رافع العامرىّ خطيب الموصل. و عبد المنعم بن محمد [بن محمد] بن أبى الضياء الدّمشقىّ بحماة. و الزاهد إسماعيل بن علىّ الكورانىّ، و دفن بمقابر الصّوفيّة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع أصابع.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۵]

السنة الثامنة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة خمس و أربعين و ستّمائة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۸

فيها نزل الوزير فخر الدين ابن الشيخ بعسكر الصالح نجم الدين المذكور على طبريّة ففتحها عنوة، و حاصر عسقلان و قاتل عليها قتالا عظيما [و أخذها المسلمون].

و فيها وجّه الملك الصالح نجم الدين تاج الدين بن مهاجر من مصر إلى دمشق و معه المبارز نسيبه و معهما تذكرة فيها أسماء جماعة من أعيان الدّماشقة بأن يحملوا إلى مصر فحملوا، و هم: [القاضى] محيى الدين بن الزّكىّ و ابن الحصيرىّ و ابن العماد الكاتب و بنو صصرّى الأربعة، و شرف الدين بن المعتمد و ابن الخطيب العقربانىّ و التاج [الإسكندرانىّ] الملقّب بالشّحرور و أبو الشامات و الحكيمىّ مملوك إسماعيل و غازى والى بصرى و ابن الهادى المحتسب؛ و أخرج العماد ابن خطيب بيت الأبّار من جامع دمشق، و ولّى العماد الحرستانىّ الخطابة عوضه. و سبب حمل هؤلاء الجماعة إلى مصر، أنّه نقل إلى الملك الصالح أيّوب أنّهم خواصّ الصالح إسماعيل، فخاف أن يجرى ما جرى فى النوبة الأولى من أخذ دمشق. و لمّا وصلوا إلى مصر حبس منهم السلطان الملك الصالح جماعة فأقاموا فى الحبس إلى أن مات الملك الصالح، فأخرجوا و عادوا إلى دمشق.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفى العلّامة أبو علىّ عمر بن محمد الأزدىّ الإشبيلىّ النحوىّ الشّلوبينى فى صفر، و له ثلاث و ثمانون سنة.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۵۹

و أبو مدين شعيب بن يحيى الإسكندرانىّ الزّعفرانىّ التاجر بمكّة- شرّفها اللّه تعالى- و الشيخ علىّ الحريرىّ فى رمضان عن سنّ عالية.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم ستّ أذرع سواء. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و تسع عشرة إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۶]

السنة التاسعة من ولاية الملك الصالح نجم الدين أيّوب على مصر، و هى سنة ستّ و أربعين و ستمائة.

فيها قايض الملك الأشرف موسى صاحب حمص تلّ باشر بحمص مع الملك الناصر يوسف [بن العزيز بن الظاهر بن صلاح الدين] صاحب حلب، و لذلك خرج الملك الصالح نجم الدين أيّوب هذا من مصر بالعساكر حسب ما ذكرناه فى ترجمته، ثم عاد مريضا لمّا بلغه مجيء الفرنج إلى دمياط.

و فيها أخذ الملك الصالح نجم الدين المذكور من الأمير علاء الدين أيدكين البندقداريّ بيبرس البندقداريّ الذى تسلطن، اشتراه منه و رقّاه إلى أن صار من أمره ما صار.

و فيها زار الملك الصالح فى عوده إلى مصر القدس الشريف، و أمر أن يذرع سوره، فجاء ستة آلاف ذراع، فأمر بأن يصرف مغلّ القدس فى عمارته. و تصدّق السلطان الملك الصالح بألفى دينار فى الحرم، و زار الخليل- عليه السلام- ثم عاد إلى مصر.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۰

و فيها توفّى علىّ بن أبى الجنّ بن منصور الشيخ أبو الجنّ. و أبو محمد الحريرىّ، مقدّم الطائفة الفقراء الحريريّة، ولد بقرية بسر و قدم دمشق صبيّا فنشأ بها.

و فى أحوال الحريرىّ هذا أقوال كثيرة، أثنى عليه أبو شامة و غيره، و تكلّم فيه جماعة منهم الذهبىّ و غيره. و اللّه أعلم بحاله. و قال ابن إسرائيل: و توفّى فى الساعة التاسعة من يوم الجمعة السادس و العشرين من رمضان سنة خمس و أربعين من عير مرض، و كان أخبر بذلك قبل موته بمدّة.

و فيها توفّى عثمان بن عمر بن أبى بكر بن يونس الشيخ الإمام العالم العلّامة جمال الدين أبو عمرو المعروف بابن الحاجب الكردىّ المالكىّ النحوىّ الأصولىّ صاحب التصانيف فى النحو و غيره. مولده فى سنة سبعين و خمسمائة بإسنا من بلاد الصعيد، و مات فى شوّال، و فى شهرته ما يغنى عن الإطناب فى ذكره- رحمه اللّه تعالى-.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۱

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو علىّ منصور ابن سند [بن منصور المعروف با] بن الدبّاغ بالإسكندريّة فى شهر ربيع الأوّل.

و أبو القاسم عبد اللّه بن الحسين بن عبد اللّه [بن الحسين بن عبد اللّه] بن رواحة الأنصارىّ فى جمادى الآخرة. و له ستّ و ثمانون سنة. و أمّ حمزة صفيّة بنت عبد الوهّاب بن علىّ القرشيّة أخت كريمة فى رجب. و العلّامة أبو الحسن علىّ بن جابر بن الدّبّاح الإشبيلىّ بها عند استيلاء الفرنج عليها. و الوزير الأكرم علىّ بن يوسف جمال الدين القفطى بحلب. و العلّامة جمال الدين أبو عمرو عثمان بن الحاجب. و عمرو بن عبد اللّه بن أبى بكر الإشبيلىّ فى شوّال بالإسكندريّة، و له ستّ و سبعون سنة.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و أربع و عشرون إصبعا. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثلاث و عشرون إصبعا.

***

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۷]

السنة العاشرة من ولاية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب على مصر، و هى سنة سبع و أربعين و ستمائة، و فيها كانت وفاته فى

شعبان، حسب ما تقدّم ذكره.

فيها فى أوّلها كان عود السلطان الملك الصالح المذكور من دمشق- حسب ما ذكرناه فى العام الماضى- قال الذهبىّ: و فيها فى أوّلها عاد الملك الصالح إلى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۲

الديار المصريّة مريضا فى محفّة، و كان قد قتل أخاه الملك العادل قبل خروجه من مصر فما هنّأه اللّه. و استعمل على نيابة دمشق الأمير جمال الدين [موسى] ابن يغمور. قال: و فيها ولدت امرأة ببغداد ابنين و بنتين فى جوف، و شاع ذلك فطلبوا إلى دار الخلافة و أحضروا، و قد مات واحد، فأحضر ميّتا فتعجّبوا، و أعطيت الأمّ من الثياب و الحلىّ ما يبلغ ألف دينار.

و فيها توجّه الملك الناصر داود صاحب الكرك إلى الملك الناصر يوسف صاحب حلب، و بلغ السلطان الملك الصالح نجم الدين ذلك، فأرسل إلى نائبه ابن يغمور بدمشق بخراب دار أسامة و قطع شجر بستان القصر الذى للنّاصر داود بالقابون و خراب القصر، ففعل ذلك.

و فيها سار الملك الظاهر [شادى] و الملك الأمجد ابنا الملك الناصر داود المقدّم ذكره من الكرك إلى مصر، و سلّما الكرك إلى السلطان الملك الصالح نجم الدين بغير رضا أبيهما الناصر، فأعطى الملك الصالح للظاهر بن الناصر داود عوضّا عن الكرك خبز مائتى فارس بمصر، و خمسين ألف دينار، و ثلثمائة قطعة قماش، و الذخائر التى بالكرك؛ و أعطى لأخيه الأمجد إخميم، و خبزمائة و خمسين فارسا بمصر؛ فلم تطل مدّتهم بمصر و مات الملك الصالح و زال ذلك كلّه من أيديهم حسب ما تقدّم ذكره، و حسب ما يأتى ذكره أيضا.

و فيها هجمت الفرنج دمياط و أحاطت بها فى شهر ربيع الأوّل، و قد ذكر ذلك كلّه.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۳

و فيها توفّى الصّاحب فخر الدين يوسف بن صدر الدين شيخ الشيوخ [أبى الحسن محمد بن عمر بن على بن محمد بن حمّويه الجوينىّ]. كان عاقلا جوادا ممدّحا مدبّرا خليقا بالملك محبوبا إلى الناس. و لمّا مات الملك الصالح نجم الدين أيّوب على دمياط ندب إلى الملك فامتنع، و لو أجاب لما خالفوه، و استشهد على دمياط بعد أخذها.

و من شعره قوله:

عصيت هوى نفسى صغيرا فعند ما رمتنى الليالى بالمشيب و بالكبر

أطعت الهوى عكس القضيّة ليتنى خلقت كبيرا و انتقلت إلى الصّغر

قلت: و يذكر هذا الشعر أيضا لغيره فيما يأتى- إن شاء اللّه تعالى-.

الذين ذكر الذهبىّ وفاتهم فى هذه السنة، قال: و فيها توفّى أبو يعقوب يوسف ابن محمود بن الحسين الساوىّ فى رجب بالقاهرة، و ولد بدمشق فى سنة ثمان و ستّين. و السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب بن الكامل بن العادل بالمنصورة فى شعبان، و له أربع و أربعون سنة. و الأمير مقدّم الجيوش فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ صدر الدين الجوينىّ فى ذى القعدة شهيدا يوم وقعة المنصورة.

و أبو جعفر محمد بن عبد الكريم بن محمد ببغداد. و صفىّ الدين عمر بن عبد الوهّاب ابن البرادعىّ فى شهر ربيع الآخر.

أمر النيل فى هذه السنة- الماء القديم خمس أذرع و ستّ أصابع. مبلغ الزيادة سبع عشرة ذراعا و ثمانى أصابع.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۴

[ما وقع من الحوادث سنة ۶۴۸]

ذكر سلطنة الملك المعظّم توران شاه على مصر

هو السلطان الملك المعظّم توران شاه ابن السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب ابن السلطان الملك الكامل ناصر الدين محمد ابن الملك العادل سيف الدين محمد أبى بكر ابن الأمير نجم الدين أيّوب بن شادى، سلطان الديار المصريّة الأيّوبىّ الكردىّ، آخر ملوك بنى أيّوب بمصر، و لا عبرة بولاية الأشرف فى سلطنة الملك المعزّ أيبك. تسلطن الملك المعظّم هذا بعد موت أبيه الملك الصالح بنحو شهرين و نصف، و قيل: أربعة أشهر و نصف و هو الأصحّ؛ لأنّ الملك الصالح أيّوب كانت وفاته فى ليلة النصف من شعبان سنة سبع و أربعين بالمنصورة، و الفرنج محدقة بعساكر الإسلام، فأخفت زوجته أمّ ولده خليل شجرة الدّرّ موته مخافة على المسلمين، و بايعوا لابنه المعظّم هذا بالسلطنة فى غيبته، و صارت شجرة الدّرّ تدبّر الأمور و تخفى موت السلطان الملك الصالح إلى أن حضر المعظّم توران شاه هذا من حصن كيفا إلى المنصورة فى أوّل المحرّم من سنة ثمان و أربعين و ستمائة. و كان المعظّم هذا نائبا لأبيه الملك الصالح على حصن كيفا و غيرها من ديار بكر. و لمّا وصل المعظّم إلى المنصورة فتح اللّه على يديه، و نصر اللّه الإسلام فى يوم دخوله فتيمّن الناس بطلعته. و سبب النصر أنّه لمّا استهلّت سنة ثمان و أربعين و الفرنج على المنصورة و الجيوش الإسلاميّة بإزائهم، و قد طال القتال بين الفريقين أشهرا ضعف حال الفرنج لانقطاع الميرة عنهم، و وقع فى خيلهم و باء و موت، و عزم ملكهم الفرنسيس على أن يركب فى أوّل اللّيل و يسير إلى دمياط، فعلم المسلمون بذلك. و كان الفرنج قد عملوا جسرا عظيما من الصّنوبر على النيل، فسهوا عن قطعه، فعبر منه المسلمون فى الليل إلى برّهم، و خيامهم على حالها و ثقلهم، و أحدق المسلمون بهم يتخطّفونهم طول الليل قتلا و أسرا، فالتجئوا

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۵

إلى قرية تسمّى منية أبى عبد اللّه و تحصّنوا بها، و دار المسلمون حولها، و ظفر أسطول المسلمين بأسطولهم، فغنموا جميع المراكب بمن فيها. و اجتمع إلى الفرنسيس خمسمائة فارس من أبطال الفرنج، و قعد فى حوش منية أبى عبد اللّه؛ و طلب الطّواشى رشيد [الدين]، و الأمير سيف الدين القيمرىّ فحضرا إليه؛ فطلب منهما، الأمان على نفسه و من معه؛ فأجاباه و أمّناه فلم يرض الفرنج و حملوا على حميّة؛ و أحدق المسلمون بهم؛ و بقوا يحملون عليهم حملة بعد حملة، حتّى أبيدت الفرنج، و لم يبق منهم سوى فارسين، فرموا نفوسهم بخيولهم إلى البحر فغرقوا [و لم يصل إلى دمياط من يخبر بحالهم] و غنم المسلمون منهم ما لا يوصف و استغنى خلق؛ و أنزل الفرنسيس فى حرّاقة، و أحدقت به مراكب المسلمين تضرب فيها الكوسات و الطّبول. و فى البرّ الشرقىّ العسكر سائر منصور مؤيّد، و البرّ الغربىّ فيه العربان و العامّة فى لهو و تهان و سرور بهذا الفتح العظيم، و الأسرى تقاد فى الحبال؛ فكان يوما من الأيّام العظيمة المشهودة. و قال سعد الدين فى تاريخه: لو أراد الفرنسيس أن ينجو بنفسه لخلص على خيل سبق أو فى حرّاقة، لكنّه أقام فى الساقة يحمى أصحابه. و كان فى الأسر ملوك و كنود من الفرنج.

و أحصى عدّة الأسرى فكانوا نيّفا و عشرين ألف آدمىّ، و الذى غرق و قتل سبعة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۶

آلاف نفس. قال: فرأيت القتلى و قد ستروا وجه الأرض من كثرتهم، و كان الفارس العظيم يأتيه و سائق يسوقه وراءه كأذلّ ما يكون، و كان يوما لم يشاهد المسلمون مثله؛ و لم يقتل فى ذلك اليوم من المسلمين مائة نفس، و نفّذ السلطان الملك المعظّم توران شاه للفرنسيس و الملوك الذين معه و الكنود خلعا. و كانوا نيّفا و خمسين، فلبس الكلّ سواه. و قال: إنّ بلادى بقدر بلاد صاحب مصر، كيف ألبس خلعته! و عمل السلطان من الغد دعوة عظيمة فامتنع الملعون أيضا من حضورها؛ و قال: أنا ما آكل طعامه و ما يحضرنى إلا ليهزأ بى عسكره و لا سبيل إلى هذا! و كان عنده عقل و ثبات و دين، فالنصارى كانوا يعتقدون فيه بسبب ذلك. و كان حسن الخلقة. و أبقى الملك المعظّم الأسرى، و أخذ أصحاب الصنائع، ثم أمر بضرب رقاب الجميع. انتهى. و قال غيره: و حبسوا الفرنسيس بالمنصورة بدار ابن لقمان يحفظه الطواشى [جمال الدين] صبيح [المعظّمىّ] مكرما غاية الكرامة. و قال آخر: بمصر بدار ابن لقمان و

هو الأصحّ، و زاد بعضهم فقال:

دار ابن لقمان هى الدار الكبيرة بالقرب من باب الخرق (يعنى دار ابن قطينة) انتهى.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۷

و قال أبو المظفّر فى تاريخه مرآة الزمان: «و فى أوّل ليلة منها (يعنى سنة ثمان و أربعين) كان المصافّ بين الفرنج و المسلمين على المنصورة بعد وصول المعظّم توران شاه إلى المخيّم، و مسك الفرنسيس و قتل من الفرنج مائة [ألف]، و وصل كتاب المعظّم توران شاه إلى جمال الدين بن يغمور (يعنى إلى نائب الشام) يقول: «الحمد للّه الذى أذهب عنّا الحزن. و ما النصر إلّا من عند اللّه. و يومئذ يفرح المؤمنون بنصر اللّه ينصر من يشاء و هو العزيز الرحيم. و أمّا بنعمة ربّك فحدّث. و إن تعدّوا نعمة اللّه لا تحصوها. نبشّر المجلس السامى الجمالىّ، بل نبشّر الإسلام كافّة بما منّ اللّه به على المسلمين، من الظّفر بعدوّ الدين، فإنّه كان قد استفحل أمره و استحكم شرّه؛ و يئس العباد من البلاد، [و الأهل] و الأولاد؛ فنودوا: وَ لا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ الآية. و لمّا كان يوم الأربعاء مستهلّ السنة المباركة تمّم اللّه على الإسلام بركتها؛ فتحنا الخزائن، و بذلنا الأموال، و فرّقنا السلاح، و جمعنا العربان و المطّوّعة و اجتمع خلق لا يحصيهم إلّا اللّه تعالى، فجاءوا من كلّ فجّ عميق، و من كلّ مكان بعيد سحيق؛ و لمّا رأى العدوّ ذلك أرسل يطلب الصلح على ما وقع عليه الاتّفاق بينهم و بين الملك العادل أبى بكر فأبينا. و لمّا كان فى الليل تركوا خيامهم و أثقالهم و أموالهم و قصدوا دمياط هاربين، فسرنا فى آثارهم طالبين؛ و ما زال السيف يعمل فيهم عامّة الليل، و يدخل فيهم الخزى و الويل. فلمّا أصبحنا نهار الأربعاء قتلنا منهم ثلاثين ألفا غير من ألقى نفسه فى اللّجج. و أمّا الأسرى فحدّث عن البحر و لا حرج؛ و التجأ الفرنسيس إلى المنية و طلب الأمان فأمّناه، و أخذناه و أكرمناه؛ و تسلّمنا دمياط بعونه و قوته، و جلاله و عظمته».

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۸

و أرسل الملك المعظّم مع الكتاب إلى ابن يغمور المذكور بغفارة الفرنسيس فلبسها ابن يغمور فى دست مملكته بدمشق، و كانت سقرلاط أحمر بفرو سنجاب.

فكتب ابن يغمور فى الجواب إلى السلطان الملك المعظّم المذكور بيتين لابن إسرائيل، و هما:

أسيّد أملاك الزمان بأسرهم تنجّزت من نصر الإله و عوده

فلا زال مولانا يبيح حمى العدا و يلبس أسلاب الملوك عبيده

انتهى كلام أبى المظفّر بعد أن ساق كلاما طويلا من هذا النموذج بنحو ما حكيناه.

و قال غيره: و بقى الفرنسيس فى الاعتقال إلى أن قتل الملك المعظّم توران شاه ابن الملك الصالح نجم الدين أيّوب (يعنى صاحب الترجمة)، فدخل حسام الدين ابن أبى علىّ فى قضيّته، على أن يسلّم للمسلمين دمياط و يحمل خمسمائة ألف دينار.

فأركبوه بغلة و ساقت معه الجيوش إلى دمياط، فما وصلوا إلّا و المسلمون على أعلاها بالتكبير و التهليل، و الفرنج الذين كانوا بها قد هربوا إلى المراكب و أخلوها، فخاف الفرنسيس و اصفرّ لونه. فقال الأمير حسام الدين بن أبى علىّ [للملك المعزّ]: هذه دمياط قد حصلت لنا، و هذا الرجل فى أسرنا و هو عظيم النصرانيّة، و قد اطّلع على عوراتنا، و المصلحة ألّا نطلقه؛ و كان قد تسلطن أيبك التّركمانىّ الصالحىّ أو صار حاكما عن الملكة شجرة الدّر؛ فقال أيبك و غيره من المماليك الصالحيّة: ما نرى

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۶۹

الغدر! و كانت المصلحة ما قاله حسام الدين. فقووا عليه و أطلقوه طمعا فى المال! فركب فى البحر الرومىّ فى شينىّ. و ذكر حسام الدين أنّه سأل الفرنسيس عن عدّة العسكر الذى كان معه لمّا قدم لأخذ دمياط؛ فقال: كان معى تسعة آلاف و خمسمائة فارس، و مائة ألف و ثلاثون ألف طبسىّ سوى الغلمان و السّوقة و البحّارة. انتهى.

قال سعد الدين فى تاريخه: اتّفقوا على أن يسلّم الفرنسيس دمياط، و أن يعطى هو و الكنود ثمانمائة ألف دينار عوضا عما كان

بدمياط من الحواصل، و يطلقوا أسرى المسلمين، فحلفوا على هذا؛ و ركبت العساكر ثانى صفر إلى دمياط قرب الظهر، و ساروا حتّى دخلوها، و نهبوا و قتلوا من بقى من الفرنج حتّى ضربتهم الأمراء و أخرجوهم، و قوّموا الحواصل التى بقيت فى دمياط بأربعمائة ألف دينار؛ و أخذوا من الملك الفرنسيس أربعمائة ألف دينار، و أطلقوه العصر هو و جماعته؛ فانحدروا فى شينى إلى البطس، و أنفذ رسولا- إلى الأمراء الصالحيّة يقول: ما رأيت أقلّ عقلا- و لا دينا منكم! أمّا قلّة الدين فقتلتم سلطانكم بغير ذنب (يعنى لمّا قتلوا ابن أستاذهم الملك المعظّم توران شاه بعد أخذ دمياط بأيّام) على ما سنذكره هنا إن شاء اللّه تعالى. قال: و أمّا قلّة العقل فكذا، مثلى ملك البحر وقع فى أيديكم بعتموه بأربعمائة ألف دينار، و لو طلبتم مملكتى دفعتها لكم حتّى أخلص. ثم لمّا سار إلى بلاده أخذ فى الاستعداد و العود إلى دمياط فأهلكه اللّه تعالى. و ندمت الأمراء على إطلاقه. و لمّا أراد الفرنسيس العود إلى دمياط قال فى ذلك الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدته المشهورة، و كتب بها إليه يعنى إلى الفرنسيس، و هى:

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۰

قل للفرنسيس إذا جئته مقال صدق من قؤول فصيح

آجرك اللّه على ما جرى من قتل عبّاد يسوع المسيح

أتيت مصر تبتغى ملكها تحسب أنّ الزمر يا طبل ريح

فساقك الحين إلى أدهم ضاق به عن ناظريك الفسيح

و كلّ أصحابك أودعتهم بحسن تدبيرك بطن الضريح

خمسون ألفا لا ترى منهم إلّا قتيلا أو أسيرا جريح

وفّقك اللّه لأمثالها لعلّ عيسى منكم يستريح

إن كان باباكم بذا راضيا فربّ غشّ قد أتى من نصيح

و قل لهم إن أضمروا عودة لأخذ ثار أو لعقد صحيح

دار ابن لقمان على حالها و القيد باق و الطواشى صبيح

قلت: للّه درّه! فيما أجاب عن المسلمين مع اللطف و البلاغة و حسن التركيب، رحمه اللّه.

و أمّا أمر الملك المعظّم توران شاه صاحب الترجمة، قال العلّامة شمس الدين يوسف بن قزأوغلى فى تاريخه فى سبب قتله، قال: «ذكرنا مجيئه إلى الشام و ذهابه إلى مصر، و اتّفق كسرة الفرنج عند قدومه فتيمّن الناس بطلعته، [و استبشروا بمشاهدته]؛ غير أنّه بدت منه أسباب نفّرت القلوب عنه فاتّفقوا على قتله و كان فيه نوع خفّة، فكان يجلس على السماط، فإذا سمع فقيها يذكر مسألة و هو بعيد عنه، يصيح: لا نسلّم!. ثمّ احتجب عن الناس أكثر من أبيه؛ و كان

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۱

إذا سكر يجمع الشموع و يضرب رءوسها بالسيف فيقطعها و يقول: كذا أفعل بالبحريّة! يعنى مماليك أبيه الذين كان جعلهم بقلعة البحر بجزيرة الرّوضة، ثم يسمّى مماليك أبيه بأسمائهم؛ و أهانهم و قدّم الأرذال و أبعد الأماثل. و وعد [الفارس] أقطاى أن يؤمّره و لم يف له، فاستوحش منه. و كانت أمّ خليل (يعنى شجرة الدرّ) زوجة والده الملك الصالح لمّا وصل إلى القاهرة مضت هى إلى القدس، فبعث يهدّدها و يطلب المال و الجواهر منها فخافت منه، فكاتبت فيه، فاتّفق الجميع عند ذلك على قتله. فلمّا كان يوم الاثنين سابع عشرين المحرّم جلس المعظّم على السّماط فضربه بعض مماليك أبيه البحريّة بالسيف فتلقّاه بيده فقطع بعض أصابعه؛ و قام من وقته و دخل البرج [الخشب الذى كان قد عمل هناك بفارسكور] و صاح: من جرحنى؟ قالوا: الحشيشيّة. فقال: لا و اللّه إلّا البحريّة، و اللّه لا أبقيت منهم بقيّة.

و استدعى المزيّن فخيّط يده و هو يتوعّدهم، فقال بعضهم لبعض: تمّموه و إلّا أبادكم! فدخلوا عليه فانهزم إلى أعلى البرج، فأوقدوا

النّيران حول البرج و رموه بالنّشّاب، فرمى بنفسه و هرب نحو البرج، و هو يقول: ما أريد ملكا! دعونى أرجع إلى الحصن يا مسلمون! ما فيكم من يصطنعنى و يجيرنى! و العساكر واقفة فما أجابه أحد، و النّشّاب تأخذه، فتعلق بذيل [الفارس] أقطاى فما أجاره، فقطّعوه قطعا و بقى على جانب البحر ثلاثة أيّام منتفخا لا يجسر أحد أن يدفنه حتّى شفع فيه رسول الخليفة، فحمل إلى ذلك الجانب فدفن به.

و لمّا قتلوه دخلوا على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۲

الفرنسيس الخيمة بالسيوف، فقالوا: نريد المال، فقال: نعم، فأطلقوه و سار إلى عكّا على ما اتّفقوا عليه معه. قال: و كان الذى باشر قتله أربعة؛ و كان أبوه الملك الصالح أيّوب قال لمحسن الخادم: اذهب إلى أخى العادل إلى الحبس، و خذ معك من المماليك من يخنقه، فعرض محسن ذلك على جميع المماليك فامتنعوا إلّا هؤلاء الأربعة فإنّهم مضوا معه و خنقوه، فسلّطهم اللّه على ولده فقتلوه أقبح قتلة، و مثّلوا به أعظم مثلة لما فعل بأخيه!

قال الأمير حسام الدين بن أبى علىّ: كان توران شاه لا يصلح للملك؛ كنا نقول لأبيه الملك الصالح نجم الدين أيّوب: ما تنفذ تحضره إلى هاهنا، فيقول: دعونى من هذا، فألححنا عليه يوما، فقال: أجيبه إلى ها هنا أقتله!

و قال عماد الدين بن درباس: رأى بعض أصحابنا الملك الصالح أيّوب فى المنام و هو يقول:

قتلوه شرّ قتله صار للعالم مثله

لم يراعوا [فيه] إلّا لا و لا من كان قبله

ستراهم عن قليل لأقلّ الناس أكله

و كانوا قد جمعوا فى قتله ثلاثة أشياء: السيف و النار و الماء!

و تسلطن بعده زوجة والده أمّ خليل شجرة الدرّ باتّفاق الأمراء و خشدا شينها المماليك الصالحيّة، و خطب لها على المنابر بمصر و القاهرة. و كانت ولاية توران شاه هذا على مصر دون الشهر، و قتل فى يوم الاثنين سابع عشرين المحرّم من سنة ثمان و أربعين و ستّمائة، و كان قدومه من حصن كيفا إلى المنصورة فى ليلة مستهلّ المحرّم من السنة المذكورة حسب ما تقدّم ذكره.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۳

ذكر ولاية الملكة شجرة الدّر على مصر

هى الملكة شجرة الدرّ بنت عبد اللّه جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيّوب و زوجته و أمّ ولده خليل، و كانت حظيّة عنده إلى الغاية، و كانت فى صحبته و هو ببلاد المشرق فى حياة أبيه الملك الكامل، ثم سارت معه لمّا حبسه الملك الناصر داود صاحب الكرك بالكرك، و معها ولدها خليل أيضا، و قاست مع الصالح تلك الأهوال و المحن، ثم قدمت معه مصر لمّا تسلطن؛ و عاش ابنها خليل بعد ذلك و توفّى صغيرا. و لا زالت فى عظمتها من الحشم و الخدم و إليها غالب تدبير الديار المصريّة فى حياة سيّدها الملك الصالح و فى مرضه و بعد موته، و الأمور تدبّرها على أكمل وجه إلى أن قدم ولد زوجها الملك المعظّم توران شاه، فلم يشكر لها توران شاه ما فعلته من الإخفاء لموت والده و قيامها بالتدبير أتمّ قيام، حتّى حضر إلى المنصورة و جلس فى دست السلطنة. و لم تدع أحدا يطمع فى الملك لعظمتها فى النفوس، فترك توران شاه ذلك كلّه و أخذ فى تهديدها، و طلب الأموال منها سرعة، فلم يحسن ذلك ببال أحد. و اتّفقوا على ولايتها لحسن سيرتها و غزير عقلها و جودة تدبيرها، و جعلوا المعزّ أيبك التركمانىّ أتابكا لها، و خطب لها على المنابر بمصر و القاهرة لكنّها لم تلبس خلعة السلطنة الخليفتى على العادة، غير أنّهم بايعوها بالسلطنة فى أيّام أرسالا و تمّ أمرها.

قال الشيخ صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدىّ فى تاريخه: «شجرة الدر أمّ خليل الصالحيّة و جارية السلطان الملك الصالح نجم

الدين أيّوب، و أمّ ولده خليل؛

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۴

كان الملك الصالح يحبّها حبّا عظيما، و يعتمد عليها فى أموره و مهمّاته، و كانت بديعة الجمال ذات رأى و تدبير و دهاء و عقل، و نالت من السعادة ما لم ينله أحد فى زمانها.

و لمّا مات الملك الصالح فى شعبان سنة سبع و أربعين و ستمائة على دمياط فى حصار الفرنج، أخفت موته و صارت تعلّم بخطّها مثل علامة الملك الصالح، و تقول:

السلطان ما هو طيّب. و تمنع الناس من الدخول إليه؛ و كان أرباب الدولة يحترمونها.

و لمّا علموا بموت السلطان ملّكوها عليهم أيّاما. و تسلطنت بعد قتل السلطان الملك المعظّم ابن الملك الصالح نجم الدين أيّوب، و خطب لها على المنابر، و كان الخطباء يقولون على المنبر بعد الدعاء للخليفة: «و احفظ اللهمّ الجهة الصالحية ملكة المسلمين، عصمة الدنيا و الدين أمّ خليل المستعصميّة صاحبة السلطان الملك الصالح».

انتهى كلام الصّفدىّ.

و قال غيره: و كانت تعلّم على المناشير و غيرها «والدة خليل»، و بقيت على ذلك مدّة ثلاثة أشهر إلى أن خلعت نفسها، و استقرّ زوجها الملك المعزّ أيبك التّركمانىّ الصالحىّ الآتى ذكره [مدّة، إلى أن اتّفقت المماليك البحريّة و قالوا: لا بدّ لنا من واحد من بنى أيّوب يجتمع الكلّ على طاعته، و كان القائم بهذا الأمر الأمير الفارس أقطاى الجمدار، و بيبرس البندقدارىّ، و بلبان الرشيدىّ و سنقر الرّومىّ؛ فأقاموا فى السلطنة] الملك الأشرف الأيّوبىّ. و قيل: إنه تزوّجها أيبك بعد سلطنته، و كانت مستولية على أيبك فى جميع أحواله ليس له معها كلام، و كانت تركيّة ذات

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۵

شهامة و نفس قويّة و سيرة حسنة، شديدة الغيرة. فلمّا بلغها أنّ زوجها الملك المعزّ أيبك يريد أن يتزوّج ببنت الملك الرحيم بدر الدين لؤلؤ صاحب الموصل، و قد عزم على ذلك، فتخيّلت منه [أنه] ربّما عزم على إبعادها أو إعدامها [بالكليّة] لأنّه سئم من حجرها عليه و استطالتها، فعاجلته و عزمت على الفتك به و إقامة غيره فى الملك.

قال الشيخ قطب الدين: «و طلبت صفىّ الدين [إبراهيم] بن مرزوق و كان بمصر فاستشارته و وعدته بالوزارة، فأنكر عليها و نهاها عن ذلك فلم تصغ إلى قوله، و طلبت مملوكا للطّواشى محسن [الجوهرىّ] الصالحى و عرضت عليه أمرها و وعدته و منّته إن قتل المعزّ! ثم استدعت جماعة من الخدّام و اتّفقت معهم. فلمّا كان يوم الثلاثاء الثالث و العشرون من شهر ربيع الأوّل لعب المعزّ بالكرة و من معه، و صعد إلى القلعة آخر النهار، و أتى الحمّام ليغتسل، فلمّا قلع ثيابه و ثب عليه سنجر الجوهرىّ و الخدم فرموه و خنقوه؛ و طلبت شجرة الدر ابن مرزوق على لسان الملك المعزّ، فركب حماره و بادر و طلع القلعة من باب السرّ، فرآها جالسة و المعزّ بين يديها ميّت، فأخبرته الأمر فعظم عليه جدّا، و استشارته فقال: ما أعرف ما أقول، و قد وقعت فى أمر عظيم مالك منه مخلص! ثم طلبت الأمير جمال الدين بن أيدغدى [بن عبد اللّه] العزيزىّ و عزّ الدين أيبك الحلبىّ، و عرضت عليهما السلطنة فامتنعا؛ فلمّا ارتفع النهار شاع الخبر و اضطربت الناس». انتهى كلام قطب الدين.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۶

و قيل فى قتله وجه آخر: و هو أنّ شجرة الدرّ لمّا غارت رتّبت للمعزّ سنجر الجوهرىّ مملوك الفارس أقطاى، فدخل عليه الحمّام [و] لكمه و رماه، و ألزم الخدّام معاونته، و بقيت هى تضربه بالقبقاب و هو يستغيث و يتضرّع إليها إلى أن مات، و انطوت الأخبار عن الناس تلك الليلة. فلمّا كان سحر يوم الأربعاء الرابع و العشرين من شهر ربيع الأول ركب الأمراء الأكابر إلى القلعة على عادتهم، و ليس عندهم خبر بما جرى، و لم يركب الفائزىّ فى ذلك اليوم؛ و تحيّرت شجرة الدرّ فيما تفعل، فأرسلت إلى الملك المنصور نور

الدين علىّ ابن الملك المعزّ تقول له عن أبيه: إنه ينزل إلى البحر فى جمع من الأمراء لإصلاح الشوانى التى تجهّزت للمضى إلى دمياط ففعل، و قصدت بذلك لتقلّ الناس من على الباب لتتمكن ممّا تريد، فلم يتمّ مرادها.

و لمّا تعالى النهار شاع الخبر بقتل الملك المعزّ، و اضطربت الناس فى البلد و اختلفت أقاويلهم و لم يقفوا على حقيقة الأمر، و ركب العسكر إلى جهة القلعة، و أحدقوا بها و دخلها مماليك الملك المعزّ أيبك و الأمير بهاء الدين بغدى الأشرفىّ مقدّم الحلقة؛ و طمع الأمير عزّ الدين الحلبىّ فى التقدّم، و ساعده على ذلك جماعة من الأمراء الصالحيّة، فلم يتمّ له ذلك. ثم استحضر الذين فى القلعة الوزير شرف الدين الفائزىّ و اتّفقوا على تمليك الملك المنصور نور الدين علىّ بن الملك المعزّ أيبك، و عمره يومئذ نحو خمس عشرة سنة، فرتّبوه فى الملك و نودى فى البلد بشعاره، و سكن الناس و تفرّقوا إلى دورهم، و نزل الأمراء الصالحيّة إلى دورهم. فلمّا كان يوم الخميس خامس عشرين الشهر وقع فى البلد خبطة عظيمة و ركب العسكر إلى القلعة.

و اتّفق رأى الذين بالقلعة على نصب الأمير علم الدين سنجر الحلبىّ فى السلطنة، و كان أتابك الملك المعزّ و يعرف بالمشدّ، و استحلفوا العسكر له، و حلف له الأمراء الصالحيّة

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۷

على كره من أكثرهم، و امتنع الأمير عزّ الدين ثم خاف على نفسه فحلف و انتظمت الأمور، ثم انتقض بعد ذلك. و فى يوم الجمعة سادس عشرين شهر ربيع الأوّل خطب للملك المنصور بمصر و القاهرة.

و أمّا شجرة الدر صاحبة الترجمة فإنّها امتنعت بدار السلطنة، هى و الذين قتلوا الملك المعزّ أيبك، و طلب المماليك المعزيّة هجوم الدار عليهم، فحالت الأمراء الصالحيّة بينهم و بينها، حمية لشجرة الدر لأنّها خشداشتهم؛ فلمّا غلبوا مماليك المعزّ منهم و منها أمّنوها و حلفوا لها أنّهم لا يتعرّضون لها بسوء. فلمّا كان يوم الاثنين التاسع و العشرون منه أخرجت من دار السلطنة إلى البرج الأحمر فحبست به و عندها بعض جواريها، و قبض على الخدّام و اقتسمت الأمراء جواريها؛ و كان نصر العزيزىّ الصالحىّ، و هو أحد الخدّام القتلة، قد تسرّب إلى الشام يوم ظهور الواقعة، و أحاطت المماليك المعزيّة بالدار السلطانيّة و جميع ما فيها؛ و يوم ظهور الواقعة أحضر الصفىّ بن مرزوق من الدار و سئل عن حضوره عند شجرة الدر لمّا طلبته بعد قتل المعزّ و استشارته، فعرّفهم صورة الحال فصدّقوه و أطلقوه. و حضر الأمير جمال الدين أيدغدى العزيزىّ، و كان الناس قد قطعوا بموت المعزّ، فعند حضور أيدغدى العزيزىّ المذكور أمر باعتقاله بالقلعة، ثم نقل إلى الإسكندريّة، فاعتقل بها، ثمّ صلب الخدّام الذين اتّفقوا على قتل المعزّ، و هرب سنجر غلام الجوهرىّ ثم ظفر به و صلب إلى جانب أستاذه محسن، فمات سنجر من يوم الاثنين المذكور وقت العصر على

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۸

الخشبة، و تأخّر موت الباقين إلى تمام يومين. و استمرّت شجرة الدرّ بالبرج الأحمر بقلعة الجبل، و الملك المنصور علىّ ابن الملك المعز أيبك و والدته يحرّضان المعزية على قتلها، و المماليك الصالحيّة تمنعهم عنها، لكونها جارية أستاذهم، و لا زالوا على ذلك إلى يوم السبت حادى عشر شهر ربيع الآخر وجدت مقتولة مسلوبة خارج القلعة، فحملت إلى التّربة التى كانت بنتها لنفسها بقرب مشهد السيدة نفيسة - رحمها اللّه تعالى- فدفنت بها. و لشجرة الدرّ أوقاف على التربة المذكورة و غيرها. و كان الصاحب بهاء الدين علىّ بن محمد بن سليم المعروف بابن حنّا وزيرها، و وزارته لها أوّل درجة ترقّاها من المناصب الجليلة. و لما تيقّنت شجرة الدرّ أنّها مقتولة أودعت جملة من المال و الجواهر، و أعدّت أيضا جملة من الجواهر النفيسة فسحقتها فى الهاون لئلا يأخذها الملك المنصور ابن المعزّ أيبك و أمّه، فإنّها كانت تكره المنصور و والدته،

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۷۹

و كانت غير متجمّلة فى أمرها لمّا تزوّجها أيبك حتّى منعته الدخول إليهما بالكليّة، فلهذا كان المنصور و أمّه يحرّضان المماليك المعزيّة على قتلها. و كانت خيّرة دينة رئيسة عظيمة فى النفوس، و لها مآثر و أوقاف على وجوه البرّ معروفة بها. و الذى وقع لها من

تملّکها الدیار المصریّة لم یقع ذلک لأمرأة قبلها و لا بعدها فی الإسلام.

*** انتهی الجزء السادس من النجوم الزاهرة، و یلیه الجزء السابع، و أوّله: ذکر ولایة المعزّ أیبک التّرکمانیّ علی مصر

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۰

استدراکات

اشارة

علی بعض تعلیقات وردت فی الأجزاء الثالث و الرابع و الخامس من هذا الکتاب

منبوبة

ورد فی الحاشیة رقم ۳ ص ۹۹ بالجزء الثالث (من هذه الطبعة) أن منبوبة هی المعروفة الیوم باسم انبابه التی یقال لها أیضا أنبوبة. و الصواب أن منبوبة و انبابه ناحیتان إحداهما منفصلة عن الأخری:

فأما منبوبة و یقال لها أنبوبة فهذه تعرف الیوم باسم أمبوبة و قد أضیفت إلی ناحیتی وراق الحضر و میت النصاری و أصبح یتکوّن من هذه النواحی الثلاث قریة واحدة مشترکة فی الزمام و الادارة باسم «وراق الحضر و أمبوبة و میت النصاری بمرکز امبابة بمدیریة الجیزة».

و أما انبابة و تعرف الیوم باسم امبابة فقد وردت فی نزهة المشتاق للإدریسیّ ثم حدث أن قسمت هذه البلدة إلی خمس نواح: و هی منیة تاج الدولة التی تعرف الیوم باسم تاج الدول، و منیة کرداک التی تعرف الیوم باسم میت کردک، و منیة أبو علی التی تعرف الیوم باسم کفر الشوام، و کفر الشیخ إسماعیل، و جزیرة امبابة.

و هذه النواحی مدرجة فی جدول أسماء البلاد الحالیة بأسمائها المذکورة کلّ ناحیة قائمة بذاتها إلّا أنّه بسبب تجاورها فی السکن لا یزال یطلق علی مجموعها اسم «امبابة» و إلیها ینسب مرکز امبابة أحد مراکز مدیریة الجیزة.

خلیج القاهرة

ورد فی التعلیق الخاص بهذا الخلیج فی صفحة ۴۳ من الجزء الرابع أن الخلیج المصری ردم فی سنة ۱۸۹۶. و الصواب أنه بدئ فی ردمه من جهة قنطرة غمرة فی أول ابریل سنة ۱۸۹۷ و أتم ردمه من جهة فم الخلیج فی یونیة سنة ۱۸۹۹

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۱

قنطرة السدّ

بما أنّ الشرح الخاصّ بهذه القنطرة المدرج فی صفحة ۴۴ بالجزء الرابع جاء غیر واف فیستبدل به الشرح الآتی:

یستفاد مما ورد فی الجزء الثانی من الخطط المقریزیة ص ۱۴۶: أن هذه القنطرة أنشأها الملک الصالح نجم الدین أیّوب فی سنة ۶۴۳ ه علی الخلیج المصری (خلیج القاهرة) بالقرب من فمه و کانت واقعة فی شارع الخلیج المصری تجاه النقطة التی یتلاقی فیها هذا الشارع بشارع مدرسة الطب.

و کانت هذه القنطرة موجودة و معروفة کما شاهدتها باسم قنطرة الماوردی إلی منتصف سنة ۱۸۹۹ التی تم فیها ردم هذا الخلیج، و بردمه اختفت هذه القنطرة من تلک السنة.

و ذکر المقریزی أنها عرفت بقنطرة السد بسبب السدّ الذی کان یقام سنویا من التراب بجوار هذه القنطرة عند ما یبدأ ماء النیل فی الزیادة وقت الفیضان لکی یصد الماء، و متی وصلت الزیادة إلی ست عشرة ذراعا یفتح السدّ حینئذ باحتفال رسمی عظیم و یمرّ الماء فی الخلیج فتملأ منه صهاریج مدینة القاهرة و برکها و تروی منه بساتینها کما تروی الأراضی الزراعیة الواقعة علی جانبی الخلیج حتی نهایته الشمالیة فی مدیریة الشرقیة.

برکة الحبش

بما أنّ الشرح الخاصّ بهذه البرکة المدرج فی صفحة ۱۴ بالجزء الخامس جاء غیر واف فیستبدل به الشرح الآتی:

هذه البرکة کانت واقعة جنوبی مدینة مصر فیما بین النیل و الجبل. و ذکر المقریزی فی الجزء الثانی من خططه عند الکلام علی البرک ص ۱۵۲: بأن هذه البرکة کانت تعرف ببرکة المغافر و برکة حمیر و باصطبل قرة و باصطبل قامش و برکة الأشراف و برکة الحبش و هو الاسم الذی اشتهرت به.

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۲

و هذه البرکة لم تکن برکة عمیقة فیها ماء راکد بالمعنی المفهوم الآن من لفظ برکة و إنّما کانت تطلق علی حوض من الأراضی الزراعیّة التی یغمرها ماء النیل وقت فیضانه سنویا بواسطة خلیج بنی وائل الذی کان یأخذ ماءه من النیل جنوبی مصر القدیمة، فکانت الأرض وقت أن یغمرها الماء تشبه البرک و لهذا سمیت برکة. و بعد أن ینتهی فیضان النیل و یصرف الماء عنها تنکشف أرضها و لا تحتاج إلی الحرث للینها بل تلاق لوقا و تزرع أصنافا شتویة أسوة بأراضی الملق التی فی حیاض الوجه القبلی.

و أمّا الیوم فقد بطلت طریقة الریّ الحوضی لهذه الأرض و أصبحت تروی ریّا صیفیا و شتویّا من ترعة الخشاب التی تأخذ میاهها من النیل بواسطة طلمبات اللیثی ببلدة الصف فی أیام الصیف، و بواسطة طلمبات بلدة الکریمات فی أیام فیضان النیل.

و یتّضح ممّا ذکر المقریزی أنّها سمّیت برکة الحبش لأنّه کان یوجد بجوارها من الجهة الجنوبیة جنان تعرف بالحبش فنسبت إلیها البرکة. و یستفاد مما ذکره أبو صالح الأرمنی فی کتاب الدیارات أن هذه الجنان عرفت بالحبش لأنها کانت لطائفة من الرهبان الحبش، یؤیّد ذلک ما ذکره المقریزی أیضا عند الکلام علی هذه البرکة حیث قال: «و فی تواریخ النصاری أن الأمیر أحمد بن طولون صادر البطریق میخائیل بطرک الیعاقبة علی عشرین ألف دینار قباع النصاری رباع الکنائس بالإسکندریة و أرض الحبش بظاهر مصر».

و من تطبیق الحدود التی ذکرها المقریزی لهذه البرکة علی موضعها الیوم یتبین أنها کانت تشغل من الأرض مساحة قدرها نحو ۱۵۰۰ فدان: منها ۲۱۳ فدانا و هو مجموع الزمام المنزرع من أرأضی قریة دیر الطین، و الباقی من زمام ناحیة البساتین، و تحدّ هذه المنطقة الیوم من الشمال بصحراء جبانة مصر و جبل الرصد الذی یعرف الیوم بجبل اصطبل عنتر و أرض قریة أثر النبی فی الحدّ الفاصل بینها و بین دیر الطین،

النجوم الزاهرة فی ملوک مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۳

و من الغرب جسر النیل بین قریة دیر الطین و معادی الخبیری، و من الجنوب و الشرق باقی أراضی ناحیة البساتین التابعة لمرکز الجیزة بمدریة الجیزة.

قوص

یضاف إلی ما ورد فی شرحها المدرج بصفحة ۲۹۲ بالجزء الخامس ما یأتی:

و کانت مدینة قوص قاعدة لإقلیم یعرف بالأعمال القوصیة نسبة إلی قوص من عهد الدولة الفاطمیة إلی آخر أیام حکم المماریک. و فی أیام الحکم العثمانی اندمجت الأعمال القوصیة کلها بما فیها مدینة قوص فی ولایة جرجا التی کانت تمتدّ فی ذاک الوقت علی

جانبى النيل من مدينة أسيوط شمالا إلى وادى حلفا عند الشلال الثانى جنوبا.

و لمّا أنشئت مديرية قنا فى سنة ۱۸۳۳ تتبعت لها مدينة قوص و جعلت قاعدة لأحد أقسام هذه المديرية و لا تزال قوص قاعدة لمركز قوص بمديرية قنا إلى اليوم.

منية ابن خصيب

ذكر سهوا فى صفحة ۳۰۹ بالجزء الخامس أن منية ابن خصيب واقعة على الشاطئ الشرقى للنيل. و الصواب أنها واقعة على الشاطئ الغربى للنيل كما هو معلوم.

*** تنبيه: التعليقات الخاصة بالأماكن الأثرية على اختلاف أنواعها و المدن و القرى القديمة و غيرها مع تعيين و تحديد مواضعها هى من وضع حضرة الأستاذ محمد رمزى بك المفتش بوزارة المالية سابقا. فنسدى إليه جزيل الشكر و نسأل اللّه جلت قدرته أن يجزيه خير الجزاء عن خدمته للعلم و أهله.

النجوم الزاهرة فى ملوك مصر و القاهرة، ج۶، ص: ۳۸۴

فهرس الولاة الذين تولوا مصر من سنة ۵۶۷ ه الى سنة ۶۴۸ ه

(ا) ابن العزيز- المنصور محمد بن العزيز عثمان.

أبو بكر- العادل سيف الدين بن أيوب.

أبو المظفر- صلاح الدين يوسف بن أيوب.

أبو المظفر- الكامل محمد بن العادل.

أبو المعالى ناصر الدين- الكامل محمد بن العادل.

أم خليل المستعصمية- شجرة الدر.

(ش) شاهنشا ملك الملوك- العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب.

شجرة الدر بنت عبد اللّه جارية السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب و زوجته و أم ولده خليل ۳۷۳- ۳۷۹

(ص) الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر ابن أيوب بن شادى بن مروان ۳۱۹- ۳۶۳

صلاح الدين يوسف ابن الأمير نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان الملك الناصر أبو المظفر ۱- ۱۱۹

(ع) العادل سيف الدين أبو بكر محمد بن نجم الدين أيوب بن شادى ابن مروان ۱۶۰- ۲۲۶

العادل الصغير أبو بكر بن الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب ابن شادى بن مروان ۳۰۳- ۳۱۸

العزيز عماد الدين أبو الفتح عثمان بن صلاح الدين يوسف ابن أيوب ۱۲۰- ۱۴۵

(ك) الكامل محمد بن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان ۲۲۷- ۳۰۲

(م) محمد بن أبى بكر بن أيوب- الكامل محمد بن العادل.

محمد بن العزيز عثمان بن صلاح الدين يوسف بن أيوب ۱۴۶- ۱۵۹

المعظم توران شاه بن الصالح نجم الدين أيوب بن الكامل ابن العادل أبى بكر بن أيوب بن شادى بن مروان ۳۶۴- ۳۷۲

المنصور- محمد بن العزين عثمان.

(ن) الناصر- صلاح الدين يوسف بن أيوب.

ناصر الدين- محمد بن العزيز عثمان.

تعريف مركز القائمية باصفهان للتحريات الكمبيوترية

جاهِدُوا بِأَمْوالِكُمْ وَ أَنْفُسِكُمْ فی سَبیلِ اللَّهِ ذلِکُمْ خَیْرٌ لَکُمْ إِنْ کُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (التوبة/۴۱).

قالَ الإمامُ علیّ بْنُ موسَی الرِّضا – علَیهِ السَّلامُ: رَحِمَ اللّهُ عَبْداً أحْیَا أمْرَنَا... َ یَتَعَلَّمُ عُلُومَنَا وَ یُعَلِّمُهَا النَّاسَ؛ فَإِنَّ النَّاسَ لَوْ عَلِمُوا مَحَاسِنَ کَلَامِنَا لَاتَّبَعُونَا... (بَنادِرُ البِحار – فی تلخیص بحار الأنوار، للعلاّمة فیض الاسلام، ص ۱۵۹؛ عُیونُ أخبارِ الرِّضا(ع)، الشَّیخ الصَّدوق، الباب۲۸، ج۱/ ص۳۰۷).

مؤسّس مُجتمَع "القائمیّة" الثّقافیّ بأصبَهانَ – إیرانَ: الشهید آیة الله "الشمس آباذی" – رَحِمَهُ اللهُ – کان أحداً من جَهابذة هذه المدینة، الذی قدِ اشتهَرَ بشَغفِهِ بأهل بَیت النبیّ (صلواتُ اللهِ علَیهِم) و لاسیَّما بحضرة الإمام علیّ بن موسَی الرِّضا (علیه السّلام) و بساحة صاحِب الزّمان (عَجَّلَ اللهُ تعالی فرجَهُ الشَّریفَ)؛ و لهذا أسّس مع نظره و درایته، فی سَنَةِ ۱۳۴۰ الهجریّة الشمسیّة (=۱۳۸۰ الهجریّة القمریّة)، مؤسَّسةً و طریقةً لم یَنطَفِئ مِصباحُها، بل تُتَّبَع بأقوَی و أحسَنِ مَوقِفٍ کلَّ یوم.

مرکز "القائمیّة" للتحرِّی الحاسوبیّ – بأصبَهانَ، إیرانَ – قد ابتدَأَ أنشِطتَهُ من سَنَةِ ۱۳۸۵ الهجریّة الشمسیّة (=۱۴۲۷ الهجریّة القمریّة) تحتَ عنایة سماحة آیة الله الحاجّ السیّد حسن الإمامیّ – دامَ عِزّهُ – و مع مساعَدَةِ جمعٍ من خِرّیجی الحوزات العلمیّة و طلاب الجوامع، باللیل و النهار، فی مجالاتٍ شتّی: دینیّة، ثقافیّة و علمیّة...

الأهداف: الدّفاع عن ساحة الشیعة و تبسیط ثَقافة الثَّقَلَین (کتاب الله و اهل البیت علیهِمُ السَّلامُ) و معارفهما، تعزیز دوافع الشّباب و عموم الناس إلی التَّحَرِّی الأدَقّ للمسائل الدّینیّة، تخلیف المطالب النّافعة – مکانَ البَلاتیثِ المبتذلة أو الرّدیئة – فی المحامیل (=الهواتف المنقولة) و الحواسیب (=الأجهزة الکمبیوتریّة)، تمهید أرضیّةٍ واسعةٍ جامعةٍ ثَقافیّةٍ علی أساس معارف القرآن و أهل البیت –علیهم السّلام – بباعث نشر المعارف، خدمات للمحققین و الطّلاّب، توسعة ثقافة القراءة و إغناء أوقات فراغة هُواةِ برامِجِ العلوم الإسلامیّة، إنالة المنابع اللازمة لتسهیل رفع الإبهام و الشُّبُهات المنتشرة فی الجامعة، و...

– مِنها العَدالة الاجتماعیّة: التی یُمکِن نشرها و بثّها بالأجهزة الحدیثة متصاعدةً، علی أنّه یُمکِن تسریعُ إبراز المَرافِق و التسهیلاتِ – فی آکناف البلد – و نشرِ الثّقافةِ الاسلامیّة و الإیرانیّة – فی أنحاء العالَم – مِن جِهةٍ اُخرَی.

– من الأنشطة الواسعة للمرکز:

الف) طبع و نشر عشراتِ عنوانِ کتبٍ، کتیبة، نشرة شهریّة، مع إقامة مسابقات القِراءة

ب) إنتاجُ مئات أجهزةٍ تحقیقیّة و مکتبیة، قابلة للتشغیل فی الحاسوب و المحمول

ج) إنتاج المَعارض ثّلاثیّةِ الأبعاد، المنظر الشامل (= بانوراما)، الرّسوم المتحرّکة و... الأماکن الدینیّة، السیاحیّة و...

د) إبداع الموقع الانترنتی "القائمیّة" www.Ghaemiyeh.com و عدّة مَواقِعَ اُخرَ

ه) إنتاج المُنتَجات العرضیّة، الخَطابات و... للعرض فی القنوات القمریّة

و) الإطلاق و الدَّعم العلمیّ لنظام إجابة الأسئلة الشرعیّة، الاخلاقیّة و الاعتقادیّة (الهاتف: ۰۰۹۸۳۱۱۲۳۵۰۵۲۴)

ز) ترسیم النظام التلقائیّ و الیدویّ للبلوتوث، ویب کشک، و الرّسائل القصیرة SMS

ح) التعاون الفخریّ مع عشراتِ مراکزَ طبیعیّة و اعتباریّة، منها بیوت الآیات العِظام، الحوزات العلمیّة، الجوامع، الأماکن الدینیّة کمسجد جَمکرانَ و...

ط) إقامة المؤتمَرات، و تنفیذ مشروع "ما قبلَ المدرسة" الخاصّ بالأطفال و الأحداث المُشارِکین فی الجلسة

ی) إقامة دورات تعلیمیّة عمومیّة و دورات تربیة المربّی (حضوراً و افتراضاً) طیلة السَّنَة

المکتب الرّئیسیّ: إیران/أصبهان/ شارع "مسجد سیّد/ "ما بینَ شارع "پنج رَمَضان "ومُفترَق "وفائی/"بنایة "القائمیّة"

تاريخ التأسيس: ۱۳۸۵ الهجريّة الشمسيّة (=۱۴۲۷ الهجرية القمريّة)

رقم التسجيل: ۲۳۷۳

الهويّة الوطنيّة: ۱۰۸۶۰۱۵۲۰۲۶

الموقع: www.ghaemiyeh.com

البريد الالكترونى: Info@ghaemiyeh.com

المَتجَر الانترنتى: www.eslamshop.com

الهاتف: ۲۵-۲۳۵۷۰۲۳- (۰۰۹۸۳۱۱)

الفاكس: ۲۳۵۷۰۲۲ (۰۳۱۱)

مكتب طهرانَ ۸۸۳۱۸۷۲۲ (۰۲۱)

التِّجاريّة و المَبيعات ۰۹۱۳۲۰۰۰۱۰۹

امور المستخدمين ۲۳۳۳۰۴۵(۰۳۱۱)

ملاحَظة هامّة:

الميزانيّة الحاليّة لهذا المركز، شَعبيّة، تبرّعيّة، غير حكوميّة، و غير ربحيّة، اقتُنِيَت باهتمام جمع من الخيّرين؛ لكنّها لا تُوافِي الحجمَ المتزايد و المتّسِعَ للامور الدّينيّة و العلميّة الحاليّة و مشاريع التوسعة الثّقافيّة؛ لهذا فقد ترجَّى هذا المركزُ صاحِبَ هذا البيتِ (المُسمَّى بالقائميّة) و مع ذلك، يرجو مِن جانب سماحة بقيّة الله الأعظم (عَجَّلَ اللهُ تعالى فرَجَهُ الشَّريفَ) أن يُوفِّقَ الكلَّ توفيقاً متزائداً لِإعانتهم - فى حدّ التّمكّن لكلّ احدٍ منهم – إيّانا فى هذا الأمر العظيم؛ إن شاءَ اللهُ تعالى؛ و اللهُ ولىّ التوفيق.

مرکز القائمیة للبحوث والتخریبات الکمبیوتریة
اصبهان
WWW
للحصول على المكتبات الخاصه الاخرى
ارجعوا الى عنوان المـركز من فضلـكم
www.Ghaemiyeh.com
www.Ghaemiyeh.net
www.Ghaemiyeh.org
www.Ghaemiyeh.ir
و للايصاء من فضلكم
۰۹۱۳ ۲۰۰۰ ۱۰۹